١٩٥٢

مكتبة نوبل

فرانسوا مورياك

عقدة الأفاعي



ترجمة: نزيه الحكيم

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : فرانسوا مورياك
عنوان الكتاب : عقدة الأفاعي
ترجمة : نزيه الحكيم
الناشر : المدى
طبعة خاصة : ١٩٩٩
الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى : ديسمبر ١٩٤٧(دار الكاتب المصري)

Author: François Mauriac
Title : Le nœud de vipères
Translator: Nazeeh Al-Hakim
Al- Mada : P. C.
Special Edition 1998
Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publ... retrieval system , or transmitted in any ... chanical, photocopying, recording or oth... writing, of the publisher.

اهداءات ٢٠٠٢
دار المدى
سوريا

١٩٥٢

مكتبة نوبل

فرانسوا مورياك

عقدة الأفاعي

ترجمة

نزيه الحكيم

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربي
(إهداء)

رقم التسجيل ٧ ٨ ٩ - ٥

هذا الرجل عدو أهله ، هذا القلب الذي ينهشه الحقد والبخل ، أريد برغم ضعته أن ترثي له وأن يبعث في قلبك الحنان . لقد قضى عمره الكامد تحجب عنه النور القريب ، الذي يمسه أحيانا شعاع منه فيكاد يحرقه ، أهواء مسكينة هي أهواؤه ، ومن قبلها مسيحيون وسط يرقبونه ويعذبهم . إن بيننا لكثيرين ينفرون الخاطئ هذا التنفير ، فينكبونه حقيقة تفقد من خلالهم إشعاعها !

لا ، لم يكن المال ما يحبه هذا البخيل ، ولا الثأر ما يطلبه هذا المجنون . أما هواه الحق فستعرفه إذا ملكت القوة والجرأة على أن تصغي إلى هذا الرجل حتى اعترافه الأخير الذي يقطعه الموت ...

«... ربنا إنك تعلم أنا لاندرك ما بنفوسنا ولانعرف ما نريد ، وأنا أبداً في تباعد عما نطلب» .

القديسة تيريز دافيلا

القسم الأول

١

سيدهشك أن تكتشفي هذه الرسالة في صندوق ، فوق حزمة من الأسناد .ولربما كان أفضل أن أودعها لدى مسجل العقود فيردها إليك بعد موتي ، أو أن أضعها في درج مكتبي ، وهو أول الأدراج التي سيخلعها أبنائي وجسمي لمايبرد بعد . ولكنني منذ سنوات أنشئ في فكري هذه الرسالة فأتمثلها أبداً ، خلال ساعات أرقي ، بارزة على رف الصندوق ، والصندوق فارغ لايحوي إلا هذه الترة التي أهينها منذ حوالي نصف قرن . واطمئني ، بل لقد طمأنتك من قبل : فالأسناد في الصندوق . يخيل لي أني أسمع هذه الصيحة ، منذ الدهليز ، وأنت عائدة من المصرف : «الأسناد في الصندوق! » تنادين بها الأولاد من خلال نقابك الأسود .

ولقد أوشكت ألا تكون فيه واتخذت التدابير لذلك . فلو شئت لعريتهم اليوم من كل شيء ، إلا من المنزل والأرض . فأنتم مجدودون أن انتهت ضغينتي قبل حياتي . لقد ظللت طويلا أحسب أن ضغينتي هذه هي أشد ما فيّ حياة ، ولكن هأنذا اليوم على الأقل لا أستشعرها قط . ويشق على العجوز الذي أمسيته أن يتمثل المريض الحانق الذي كنته من عهد قريب ، يقضي الليالي ، لافي إعداد ثأره (فلقد كانت هذه القنبلة المستأخرة الانفجار مركبة في دقة كنت فخوراً بها) ، بل في تدبر السبيل إلى التمتع بهذا الثأر : فكنت

أود لو يمتد بي العمر فأرى وجوهكم لدى عودتكم من المصرف . معتزماً ألاأبكر في توكيلك بفتح الصندوق ، فلا أمنحك هذه الوكالة إلا في آخر لحظة أستطيع معها التمتع بهذه الفرصة الأخيرة ، وأنا أسمع تساؤلكم اليائس : «أين هي الأسناد ؟ » وكان يبدو لي إذ ذاك أن أشد ساعات النزع لن تفسد عليّ هذه اللذة . نعم ، لقد كنت امرءاً لايتورع من مثل هذه الخطط ، فكيف تأديت إلى ذلك ، وما كنت غولا ؟

الساعة الرابعة ، وصينية طعامي والصحون المتسخة ما تزال على المائدة تجتذب الذباب . ولقد قرعت الجرس بلا جدوى ، فأجراس الريف أبداً متعطلة . وهأنذا أنتظر ، طويل الصبر ، في هذه الغرفة التي نمت فيها طفلا ، والتي لاريب أني ميت فيها . وفي ذلك اليوم ، ستكون الفكرة الأولى التي تخطر لابنتنا جنفييف أن تطلبها لأولادها . إنني أحتل وحدي أوسع الغرف وأجملها طلالة ، ولكن اعترفوا بأني عرضت على جنفييف أن أتخلى لها عنها ، وأنني كنت فاعلا ذلك لولا الدكتور لاكاز الذي يشفق على رئتيّ من رطوبة الجو في الدور الأرضي . كنت موافقاً على ذلك بلا ريب ، ولكن في ضغينة كان من الخير معها أني منعت منه . (فلقد قضيت عمري أقوم بتضحيات كانت ذكراها تسمني وتغذي هذه الضغائن التي يزيدها الزمن قوة) .

إن حب القطيعة إرث عائلي ؛ فلطالما سمعت من أمي أن أبي كان على نزاع مع أهله الذين ماتوا أيضاً دون أن يروا ابنتهم التي طردوها من عندهم قبل ثلاثين عاماً (فهي أصل أولئك المارسيليين أبناء عمتنا ، الذين لانعرفهم) . وما عرفنا قط أسباب كل هذا الشقاق ولكننا كنا نخلد إلى أحقاد أسلافنا ؛ وحتى إذا صادفت اليوم واحداً من أحفاد عمتي المارسيليين فاني موليه ظهري . ومن السهل أن يستغني المرء عن رؤية أهله الأباعد ؛

ولاكذلك الحال فيما يتصل بالأبناء ، وبالزوجة . صحيح أن هناك أسراً متحدة ، ولكن إذا فكرنا في عدد البيوت التي يلتقي فيها اثنان فيغيظ أحدهما الآخر و يعافه على المائدة الواحدة والمغسلة الواحدة وتحت اللحاف الواحد ، فكم تدهشنا ندرة الطلاق ! إنهم في قلب هذه البيوت ليتباغضون ، ثم لايستطيع أحدهم أن يهرب من الآخر...

أية حمى تدفعني إلى الكتابة اليوم ، في عيد ميلادي ؟ إنني أدخل في الثامنة والستين وما يعرف هذا أحد سواي . أما جنفييف وهوبير وأولادهما فلهم الحلوى في كل عيد ، والشمعات الصغيرة والورد... ولئن كنت لاأهديك شيئا من أجل عيدك منذ أعوام ، فما عن نسيان ولكن تره . وهذا يكفي... إن آخر طاقة تلقيتها في مثل هذا اليوم قطفتها أمي المسكينة بيديها المغضنتين ، وقد جرّت نفسها مرة أخيرة ، برغم قلبها المريض ، إلى ممر شجيرات الورد .

أين كنت من حديثي ؟ نعم تتساءلين لم هذا الجنون المباغت في الكتابة ؛ وإنه لجنون حقاً ، تستطيعين أن تريه في خطي ، في هذه الحروف المحنية في وجهة واحدة كما مالت بالصنوبر ريح الغرب . أصغي إلي : ولكن شيئا في نفسك ، شيئاً من نفسك أريد أن أظفر عليه ، هو صمتك . وافهمي ما أعني :إن لسانك لطويل ؛ وإن في وسعك أن تناقشي كازو ساعات حول الطيور أو البقيلة ؛ وإنك لتهذرين وتخطلين مع أولادنا ، بل مع صغارهم ، أياماً كاملة . ولكن آه من ساعات الطعام ما كان أمرها ، أخرج منها فارغ الرأس تنخرني شواغلي وهمومي التي لم أكن أجد أحداً أحدثه بها ، وبخاصة من بعد قضية فيلناف حين غدوت فجأة محامياً كبيراً لدى محكمة الجنايات ، كما تقول الصحف ! كنت كلما ازددت ميلا إلى الايمان برفعة شأني زدتني شعوراً بعدمي ... ولكن لا ، ليس هذا ما أريد ، ومن نوع آخر من الصمت أريد أن أنتقم : من الصمت الذي كنت تلجين فيه حول بيتنا وشقاقنا

العميق .وكم من مرة تساءلت ، وأنا أشهد مسرحية أو أقرأ رواية ، ألا توجد في الحياة عشيقات أو زوجات يشتمن رجالهن ، ويفتحن قلبهن ليشرحن ما فيه ، ثم يثلجهن هذا الشرح ؟

لقد كانت لك ، طوال هذه الأعوام الأربعين التي تألمنا فيها جنباً إلى جنب ، قوة التنكب عن كل حديث عميق بعض العمق ، فكنت أبداً تقطعين الطريق من أوله .

ولقد ظللت دهراً أحسب هذا خطة اتخذتها ، ومنهجا يفوتني سببه ، حتى جاء اليوم الذي فهمت فيه أن ليس في الأمر إلا كونه لايعنيك : لقد كنت من الخروج عن دائرة اهتمامك بحيث كنتِ تتملصين لا رهبة ولكن ملالة . وكنت ماهرة في تنسيم الريح ترينني قادماً من بعيد ؛ فاذا ما فجئتك اكتشفت أيسر طرق الهزيمة أو طبطبت بيدك على خدي أو قبلتني وهربت مسرعة .

ولاريب أنه كان يمكن أن أشفق منك أن تمزقي هذه الرسالة وما قرأتِ منها إلا سطورها الأولى ، لولا أني منذ أشهر أدخل على نفسك الدهش والحيرة وهل كان لك مهما ضؤلت ملاحظتك إياي ألا تري بعض التحول في مزاجي ؟ أجل ، إني مطمئن هذه المرة إلى أنك لن تفلتي . أريد أن تعلمي ، أريد أن تعلموا أنت وابنك وابنتك ، وصهرك وأحفادك ، من كان هذا المحامي المرهق الذي كان عليكم أن تداروه لأن في يده المال ، والذي كان يتألم في غير كوكبكم .أي كوكب ؟ إنك لم ترتضي قط أن تزوريه فيه . وقري عينا : فما هذه مرثية أبتسر كتابتها لنفسي أكثر منها اتهاماً لكم ؛ فالسمة المهيمنة على طبعي ، والتي كانت تدهش لها امرأة غيرك ، هي بصير يقظة مقيتة .

ولقد كنت أبداً مفتقراً إلى تلك المهارة التي يخدع بها أكثر الناس أنفسهم فيتوسلون بها إلى العيش ، وما مرت بي قط عاطفة شريرة إلا أدركتها من قبل أن تظهر...

لقد اضطررت إلى التوقف... فما جاء أحد بالمصباح ، ولاأتوا ليغلقوا النافذة . وكنت أنظر إلى سطح المستودعات التي يزهو قرميده بلون الأزهار أو حناجر الأطيار ، وكنت أسمع صوت السَمَرْمَر في لبلاب في شجر الحور ، وصوت برميل يتدحرج . وإنه لسعد أن أنتظر الموت في المكان الأوحد الذي مايزال كل ما فيه مماثلا لذكرياتي . وليس إلا ضجة المحرك قد حلت محل صرير الناعورة التي كانت تديرها الأتان ، وهذه الطائرة البريدية القبيحة التي تعلن ساعة لهنة الأصيل وتوسخ السماء .

وقليل بين الناس من يتهيأ لهم أن يلقوا في الواقع ، أمام أبصارهم ، هذا العالم الذي لا تكشفه الكثرة الغالبة إلا في ذواتها إذا امتلكت الجرأة وصبرت على التذكر . إني لأضع يدي على صدري ، وأجس قلبي ، وأنظر إلى الخزانة ذات المرآة ، التي تقوم في زاوية منها حقنة برافاز وقرص «نيتريت الأميل» وكل ما يلزم في حالة النوبة . ترى هل من يسمعني إذا ناديت ؟ إنهم يصرون على أنه خناق صدري كاذب ، ولايبالون أن يقنعوني بذلك قدر ما يعنيهم أن يثقوا به هم أنفسهم ليناموا في راحة بال . هأنذا أتنفس ، وكأنما يد وضعت على كتفي اليسرى تثبتها في وضع خاطئ ، فعل من يود ألا أنساه . على أن الموت لن يكون سارقا في إقباله عليّ إنه ليحوم حولي منذ سنوات ، أسمعه وأشعر بنفسه ، وهو معي ذو أناة ، ولست أتحداه بل أخضع للنظام الذي يفرضه اقترابه ،وأصرف أيامي الأخيرة في مبذل ، في وضع مريض عصبي الداء . في قرار مقعد ذي مساند ، فيه ارتقبت أمي نهايتها ، وقد جلست مثلها قريبا من منضدة تغطيها الأدوية ، طويل اللحية ، كريه الرائحة ، تستبعدني نزوات بشعة . ولكن لاتطمئنوا إلى هذا : فبين نوباتي أسترجع نشاطي ، وأطلع من جديد على بورو وكيل الدعاوي وقد حسبني مت ، وأقوى على أن أقتطع بيدي الصكوك خلال ساعات في المؤسسات المالية .

يجب أن أستمر في العيش زمنا يكفي لأكمل هذا الاعتراف ، ولأضطرك أخيراً الى الإصغاء إليّ ، أنت التي كنت ، خلال السنوات التي شاطرتك فيها الفراش ، تقولين لي أبداً كلما اقتربت عند المساء :« لقد أخذني النعاس ... هأنذي أنام... » .

فما تجنبين بهذا وصالي بقدر ما تجنبين حديثي .

وفي الحق أن شقاءنا ولد من هذه الأحاديث غير المتناهية التي كنا نستمرئها أول عهدنا بالزواج ، ونحن طفلان :أنا في الثالثة والعشرين وأنت في الثامنة عشرة . بل لعل الحب كان أضأل لذة لدينا من هذا التّسار وهذه النجوى . فلقد كنا آلينا على أنفسنا ، كما يحدث في الصداقات الصبيانية ، أن يقول أحدنا للآخر كل شيء . وأنا الذي كان ما عندي من التفاهة بحيث أضطر حين أسارك إلى تزويق مغامرات لاشأن لها ، ما كنت لأشك في أنك مثلي ضئيلة العتاد ، بل ما كنت لأتصور أنك قد تكونين لفظت قبلي اسم فتى آخر ، فما عنّ ذلك لبالي حتى ذات مساء...

كان ذلك في هذه الغرفة التي أكتب فيها اليوم . ولقد بُدّل ورق الجدران ولكن الأثاث الخشبي ما يزال في مكانه ؛ وكانت على المائدةكأس الماء البيضاء وعدة الشاي التي ربحناها في «اليانصيب» ؛ والقمر يضيء الحصير وريح الجنوب التي تجتاز باللاند تحمل حتى سريرنا رائحة حريق .

هذا الصديق رودولف ، الذي كنت كثيراً ماحدثتيني عنه ، وأبداً في ظلمات الغرفة كأن لم يكن بد من أن يقوم شبحه بيننا في أحم ساعاتنا وحدة ، لقد لفظت اسمه من جديد ذلك المساء ــ أنسيت ؟ ــ ولكن هذا لم يكن يكفيك ، فقلت لي :

ــ هناك أشياء كان يجب أن أحدثك بها ، ياحبيبي ، قبل خطبتنا ، ويؤنبني ضميري على أن لم أعترف بها لك ... اطمئن ، فليس الأمر بخطير...

ولم أكن قلقاً ولاعملت ما يستدعي اعترافك ، ولكنك أفضيته عليّ في

رعاية ضقت بها أول الأمر . لم تكوني تطاوعين ضميرك ولا كنت تستجيبين إلى رغبة في أن تصدقيني ما بنفسك ، كما كنت تقولين وتظنين .

لا ، بل كنت تمرغين في ذكرى عذبة أمسيت لاتستطيعين التمالك عنها . ولعلك كنت تشيمين في هذا ما يهدد سعادتنا ، ولكنه كان أقوى منك كما يقولون ، فلم يكن في وسع إرادتك أن تمنع شبح رودولف هذا أن يحوم حول سريرنا .

ولايذهب بك الظن إلى أن شقاءنا ولدته الغيرة ؛ فأنا الذي أصبحت فيما بعد مجنوناً غيرة لم أكن أستشعر شيئا يقارب هذا الهوى في ليلة الصيف التي أحدثك عنها ، إحدى ليالي العام ٨٥ ، والتي اعترفت لي فيها أنك كنت في إيكس ، خلال الاجازة ، خطيبة هذا الفتى المجهول .

لقد مضت خمس وأربعون سنة قبل أن يتاح لي التحدث في هذا الموضوع ! ولكن هل تراك قارئة رسالتي ؟ فكل هذا يعنيك أقل العناية ، ويضجرك كل ما يخصني . لقد كان أولادنا يمنعونك رؤيتي والاستماع إليّ ، ولكن منذ أن أتى الأحفاد ...لاعليّ ! إنها محاولتي الأخيرة ، ولقد أكون ميتاً أشد سلطة عليك مني إذ أنا حي ، في الأيام الأولى على الأقل ، فأنال مرة أخرى ، وتقرئين هذه الصفحات حتى آخرها قياماً بواجب على الأقل . إنني بحاجة إلى الإيمان بهذا ؛ وأؤمن به...

٢

لا ، لم أستشعر خلال اعترافك أية غيرة . كيف السبيل إلى إفهامك ما هدمه في نفسي ؟ لقد كنت الابن الوحيد لتلك الأرملة التي عرفتها ، أو التي عشت إلى جانبها ـ على الأصح ـ سنوات طوالاً فلم تعرفيها . ولكنك كنت بلا ريب ، حتى لو عناك ذلك ، واجدة بعض المشقة في فهم ما كانت عليه وحدة هذين الكائنين ، وأنت حجيرة من أسرة قوية عديدة ، «بوزجوازية» ، مسلسة منظمة . لا ، لن يسعك أن تتصوري عناية أرملة موظف بسيط رئيس مصلحة في الولاية ، بابن هو كل ما بقي لها في العالم . لقد كان نجاحي في المدرسة يملأها زهواً ، وكان أيضاً فرحتي الوحيدة . وما كنت أشك قط في ذلك الحين في أننا جد فقراء ، وكان يكفي لاقناعي بهذا ضنك عيشنا والقترة التي جعلت منها أمي قانوناً لها . ولا ريب أني لم إكن أفتقر إلى شيء ، ويتراءى لي اليوم أني كنت طفلاً مدللاً إلى حد بعيد . وكانت أراضي أمي ، في هوستانز ، توفر لنا بأرخص التكاليف طعاماً كنت أدهش لو قيل لي إنه كان فاخر الذوق ؛ فما كانت الفراخ التي سمنها الدُخْن ، ولا الأرانب ، ولا فطائر الدجاج البري ، لتبعث في نفسي أي شعور بالثراء . ولقد طالما كنت سمعت إن هذه الأراضي تافهة ضئيلة القيمة ، وفي الحق إنها حين ورثتها أمي كانت مساحات ماحلة رعى فيها جدي الأغنام

بنفسه وهو طفل . ولكني كنت أجهل أن أول ما عنى به أهلي هو زرعها ، وأني في الحادية والعشرين سأكون مالكاً لألفي «هكتار» من الغابات في عز نموها وقد بدأت تغل عمداً للمناجم . وكانت أمي توفر أيضاً بعض دخلها المتواضع ؛ وحين كان أبي حياً ، بذلا الغالي والرخيص حتى اشتريا كاليز (أربعون ألف فرنك لهذا الكرم الذي لا أبيعه الآن بمليون!) وكنا نسكن ، في شارع القديسة كاترين ، الدور الثالث من منزل كنا نملكه ، وكان يؤلف مهر أمي ، هو وبعض الأراضي غير المبنية . وكانت تأتينا سلة من الحقول مرتين في الأسبوع ، ثم تذهب أمي إلى الجزار أقل ما يمكن من المرات . وأما أنا فكنت أحيا في فكرة مدرسة المعلمين التي كنت أريد الانتساب إليها ، فكان لا بد من نضال ، يومي الخميس والأحد ، كيما أقبل الخروج للنزهة ؛ ولم أكن أشبه في شيء أولئك الصبية الذين هم أبداً أول بين زملائهم ثم يتظاهرون بأن هذا لا يقتضيهم أي جهد : لقد كنت أكد باستمرار وأفخر بكدي ، كناحت في الصخر ، فما أذكر أني استشعرت أي لذة ، في المدرسة الثانوية ، وأنا أدرس فيرجيل وراسين ، وما كان كل هذا لدى إلا مادة للدرس فحسب . كنت أعزل الآثار المفروضة عليّ في البرنامج عن بقية الآثار الانسانية ، فيكون لها وحدها في نظري شأن ، وأكتب عنها ما يجب أن يكتب لإرضاء الممتحنين ، أي ما قاله وكتبه عنها أجيال من الطلاب . ذلك هو الأبله الذي كنته ، والذي ربما كنت ظللته لولا النفاث الدموي الذي أفزع أمي والذي اضطرني ، قبل شهرين من موعد مسابقة المدرسة ، إلى إهمال كل شيء .

ذلك كان جزاء طفولتي المفرطة الجد ، وفتوتي المضناة بالعمل ؛ فلا بد من عقاب يناله الفتى إذا قضى أيام نموه محنياً على المنضدة قد جمع بين كتفيه حتى ساعة متأخرة من الليل مهملاً كل تمارين الجسد .

أأملّكِ بهذا ؟ إني لأرعش خوفاً من إملالك . ولكن لا تجوزي أي سطر ،

وثقي أني لا أذكر إلا الضروري الذي لا بد منه ؛ فلقد كانت مأساة حياتنا مرهقة في هذه الحوادث التي لم تعرفيها أو التي نسيتها...

ثم أنك ترين ، من هذه الصفحات الأولى ، أني لن أداري نفسي ، وفي هذا ما يرضي حقدك عليّ... لا ، لا تحتجي ؛ فما تفكرين فيّ إلا لتغذي سخيمتك .

على أني أشفق أن أكون جرت على ذلك الصبي الضعيف الذي كنته ، والمحني على معاجمه ؛ فإذا ما قرأت ذكريات الآخرين عن طفولتهم ، ورأيت إلى هذا الفردوس الذي يحنون جميعاً إليه ، تساءلت في غصة : «وأنا ؟ لِمَ هذه الأرض الموات في حياتي ؟ أم تراني نسيت ما يذكره الآخرون ، وكنت عرفت ما عرفوه من بهجة ؟...» فوا حزني ما أرى إلا هذه الجأشة المسعورة ، وهذا النضال من أجل المحل الأول ، وإلا منافستي الحاقدة لزميل يدعى حنوك وآخر يدعى رودريج . فلقد كانت غريزتي ترد كل عاطفة ، برغم أني أذكر أن المكانة التي كان يرفعني إليها نجاحي ، وحتى هذه الجهامة ، كانتا تجذبان نحوي بعض الطبائع : كنت طفلاً ضارياً لدى من يطلب حبي ، وكنت أكره «العواطف» .

ولو كانت حرفتي الكتابة لما كان في طوقي أن أستخرج من حياتي المدرسية صفحة فيها بعض الرقة . بلى ، انتظري... هناك شيء واحد ، تافه كلا شيء : كان يحدث أحياناً أن أقتنع أن أبي ، الذي كنت نادراً ما أذكره ، لم يكن ميتاً ، وأن مزيجاً من ظروف غريبة جعله يختفي . فإذا ما خرجت من المدرسة صعدت شارع القديسة كاترين عدواً في عرض الطريق بين العربات ، كيلا تعيق مشيتي زحمة الرصيف ؛ ثم أصعد السلم أربعاً فأربعاً ، فأرى أمي ترتق بعض الثياب قرب النافذة ، وصورة أبي ما تزال معلقة في مكانها إلى يمين السرير . وما أكاد أدع أمي تقبلني وأجيبها على أسئلتها حتى أفتح كتبي .

ولقد أعقبت ذلك النفاث الذي حول قدري شهور كئيبة ، تصرمت في منزل أركاشون الصيفي حيث أتم تهدم صحتي إغراق مطامحي الجامعية . وكان يحفظني من أمي المسكينة أن هذا لم يكن لديها ذا شأن ، وأنها كانت فيما بدا لي قليلة الهم بمستقبلي . فكانت كل يوم تحيا في انتظار «ساعة ميزان الحرارة» وبزنتي الأسبوعية يتعلق كل ألمها أو كل فرحتها . وأنا الذي آلمني أشد الألم فيما بعد أن أمرض فلا أجد من يبالي مرضي ، أعترف أني نلت القصاص العدل على قسوتي وغيظي يوم كنت الطفل المدلل .

وما أتت أيام الصحو الأولى حتى «استعدت السيطرة» كما كانت تقول أمي ، فبعثت من جديد ، بكل معنى الكلمة ، ونشطت وقويت ؛ وتفتح هذا الجسم الذي طال ضيقه بما أخذته من حمية ، في تلك الغابة الجافة التي تملأها أشجار الرتم والقطلب ، يوم لم تكن أركاشون إلا قرية .

وفي الوقت نفسه عرفت من أمي أن لم يكن ما يدعو للاشفاق من المستقبل ، وأننا كنا نملك ؛ ثروة طيبة تنمو العام بعد العام ، فما كان شيء يضطرني إلى التعجل ، ما دمت سأكون بلا ريب معفى من الخدمة العسكرية . وكانت لي على الكلام السهل قدرة لحظها كل أساتذتي ، فأرادت أمي أن أدرس الحقوق موقنة أني سأغدو دون جهد محامياً كبيراً ، إلا إذا جذبتني السياسة... وكانت لا تألو تبدي وتعيد ، وتكشف لي مرة واحدة عن «برامجها» ، أما أنا فكنت أصغي إليها ، نفوراً حردان ، وعيناي إلى النافذة .

وبدأت أسعى وراء البنات ، فكانت أمي تراقبني في إغضاء وجل ولقد رأيت من بعد ، حين عشت عند أهلك ، شأن هذه المغامرات في أسرة دينية . أما أمي فلم تكن تشفق من هذا إلا أن يضر صحتي ، فلما وثقت من أني لا أفرط في لهوي أغمضت عينيها دون سهراتي شريطة أن أعود قبل

انتصاف الليل . لا ، لا تخشى أن أقص عليك غرامياتي في ذلك العهد ، فأنا أعرف أنك تكرهين هذه الأمور ، ثم إنها كانت مغامرات جد تافهة!

على أنها كانت إلى ذلك باهظة التكاليف ، وكان هذا يؤلمني ، ويؤلمني أن كنت من ضآلة الفتنة بحيث لم يفدني شبابي في شيء . ولم أكن دميماً ، فيما أرى ، فقسماتي عادية ، وجنفييف ــ صورتي الحية ـ كانت فتاة جميلة حقاً ؛ ولكني كنت من أولئك الناس الذين يقال إنهم بلا شباب : فتى عبوساً ما به نضرة : فكنت بمنظري وحده أنفر الناس وأزداد جفوة بقدر ما أزداد بهذا معرفة . وما نجحت يوماً في لبسي ، أو في انتقاء رباط لرقبتي أو احسان عقده ، بل ما عرفت يوماً أن أستسلم للضحك ، أو أتظاهر بالجنون... وكان مستحيل التصور أن أستطيع الانتظام في أية جماعة صاخبة ، فكنت من فصيلة أولئك الذين يضيع لدى حضورهم كل مرح كما كنت سريع النزق لا أرتضي أبسط المزاح ، بينا كنت على العكس ، إذا أردت أن أمزح ، أكيل للآخرين برغمي ضربات لا يغفرونها لي ، فأدل رأساً على ما بهم من مضحك ، أو من عاهة كان ينبغي السكوت عنها . وكان في حديثي ، استحياء وكبرياء ، هذه الجفخة المستعلية التي يكرهنها ، وما كنت ألتفت إلى ثيابهن ، بل كنت كلما ازددت شعوراً بكرههن نبرت في نفسي ما لا يرضيهن ، بحيث لم يكن شبابي إلا انتحاراً طويل الأمد ، وكنت أتعجل الإساءة المقصودة خوف الإساءة العضوية .

وكنت ، بالحق وبالباطل ، أنحو باللائمة على أمي لما كنته ، متخيلاً أني أكفّر عن طفولتي التي قضيتها أنعم بوفر من العناية والرعاية . فكنت معها ، ذلك العهد ، فظاً في قسوتي ، أنكر عليها إفراط حبها ، ولا أغفر لها إرهاقي بما كانت وحدها بين الناس تقدمه لي فلم أعرفه قط إلا لديها . واغفري لي ترداد هذه الفكرة ، ففيها أجد القوة على احتمال إهمالك إياي . ولعدلٌ أن أدفع الثمن ، فتلك المرأة المسكينة الفانية منذ سنوات طوال ،

والتي لم يعش ذكرها بعدها إلا في قلب العجوز الذي أمسيت ، ما كان أشد ألمها لو أنها تنبأت كيف سيثأر لها القدر!

أجل ، لقد كنت شرساً ، ففي غرفة الطعام الصغيرة في المصيف ، تحت المصباح المعلق الذي يضيء طعامنا ، كنت لا أرد على أسئلتها الوجلة إلا بكلمات مقتضبة ، أو أثور في وحشية لأتفه المعاذير أو دون عذر .

ولم تكن تحاول أن تفهم ، ولا كانت تتدبر عوامل ثوراتي ، بل تتلقاها كما يصبر على غضب الله ، وتقول : «إنه المرض ، ولقد كنت في حاجة إلى التفريج عن أعصابك» . ثم تضيف أنها من الجهل بحيث لا تستطيع فهمي : «إني أعترف أن عجوزاً مثلي ليست النديمة التي ترضي فتى في سنك...» وهي التي كنت رأيتها جد مقتصدة ، إذا لم أقل بخيلة ، كانت تعطيني من المال أكثر مما أطلب ، وتدفعني إلى الانفاق ، وتأتيني من بوردو بأربطة رقبة سخيفة الذوق كنت أرفض وضعها .

وكنا قد اتصلنا بجيران ألاطف ابنتهم ، لا إعجاباً بها ؛ ولكنها كانت تمضي الشتاء في أركاشون للاستشفاء ، وكان يفزع أمي التفكير في أنها قد تعديني ، أو تخشى أن أسيء إلى سمعتها فأغدو خطيبها برغمي ؛ وأنا واثق اليوم أني ما حاولت هذه الغزوة ، عبثاً بلا ريب ، إلا لأنال أمي بعذاب جديد .

وعدنا إلى بوردو بعد سنة من غياب . وكنا قد بدلنا منزلنا ، واشترت أمي قصراً يطل على الشوارع الكبرى ؛ ولكنها لم تحدثني عنه بشيء لتوفر لي المفاجأة . وقد بهت حين فتح الباب لنا فرّاش . وكان الدور الأول مخصصاً لي ، وكل شيء يبدو جديداً . وبرغم أني بهرت في سري لترف أتخيل اليوم أنه كان ـ لا بد ـ بشعاً ، فقد كان من قسوتي أني لم أجد عليها إلا بالانتقاد وأهمني المال الذاهب في هذا السبيل .

وحينئذ قدمت لي أمي ، مفاخرة ، حساباً لم يكن هناك ما يوجب عليها أداءه (ما دام أكثر الثروة إرثاً عن عائلتها) . كانت الخمسون ألف فرنك ريعاً ، خلا قطع الغابات ، تؤلف في ذلك العهد ، وبخاصة في الريف ، ثروة «محترمة» ؛ وكان في وسع أي فتى غيري أن يستخدمها ليدفع بنفسه ويرتفع حتى أعلى المجتمعات في المدنية . ولم يكن الطموح ما يعوزني ، وإنما كان عسيراً عليّ أن أكتم رفاقي في كلية الحقوق بغضي لهم .

كان أكثرهم أبناء أسر نبيلة ، نشئوا عند اليسوعيين ، ولم أكن وأنا حفيد الراعي الذي ربي في المدارس الحكومية لأغفر لهم شعور الحسد البغيض الذي كانت تبعثه فيّ حركاتهم ، رغم أنهم كانوا يبدون لي أحط مني فكراً . إن في هذا الهوى البغيض ، في حسدك أناساً تحتقرهم ، لما يسم حياة كاملة .

كنت أحسدهم وأزدريهم ؛ وكان استخفافهم بي (ولعله استخفاف موهوم) يزيد ضغينتي سورة ، فلقد كان من خلتي أن لم أفكر لحظة واحدة في كسب ودهم ، وإن كنت أزداد اليوم إيغالاً في الانضمام إلى خصومهم ، وكراهة الدين ، هذه التي ظلت أمداً طويلاً أشد أهوائي ، والتي عذبتك دهراً وجعلتنا عدوين إلى الأبد ، هذه الكراهية ولدت في كلية الحقوق ، في العامين ١٨٧٩ و١٨٨٠ ، حين إقرار المادة السابعة ، سنة المراسيم المشهورة وطرد اليسوعيين .

فلقد عشت حتى ذلك الحين لا أبالي هذه المشكلات ، وما كانت أمي تحدثني عنها إلا لتقول : «أنا مطمئنة ؛ فإذا كان أمثالنا من الناس تناول القربان ، أول مرة في المدرسة ، شعيرة مملة ما أحفظ عنها إلا ذكرى غامضة ؛ وهو على أي حال لم يتكرر ؛ فكنت بالغ الجهل في هذه المواد ، وكان الرهبان في الشارع أيام طفولتي يبدون لي أدنى إلى شخوص منكرة أو

ضروب من الأقنعة . فما فكرت قط في مثل هذه المشكلات ، ولا عرضت لها آخر الأمر إلا من وجهة نظر السياسة .

وأسست ندوة للدراسات كانت تنعقد في قهوة «فولتير» وأرتاض فيها على الكلام . فأنا الحي الهبوب في حياتي الخاصة ، كنت أغدو رجلاً آخر في المقارعات السياسية ، وكان لي أنصار أنعم برئاستهم ؛ وما كنت لهم أقل ازدراء مني للبورجوازيين ، إذ كان يغيظني منهم كشفهم في سذاجة عن حقارة دوافعهم التي كانت دوافعي أنا أيضاً وكانوا يضطرونني إلى إدراكها في نفسي . كلهم أبناء موظفين صغار ، كانوا طلاباً بالمجان ، وفتيان أذكياء مطاميح ولكن يملأ نفوسهم الحقد ، ويصانعونني دونما حب . وكنت أدعوهم إلى بعض مآدب كانت تواريخ هامة في حياتهم ، يتحدثون عنها طويلاً من بعد . ولكن أساليبهم كانت تبعث فيّ الاشمئزاز ، وكان يحدث ألا أستطيع كظم سخرية تثخن فيهم الجرح ويضمرون لي من أجلها الضغينة .

على أن بغضي للمدين كان صادقاً . وكان بعض الرغبة في العدالة الاجتماعية يضطرب أيضاً في نفسي ، وقد أجبرت أمي أن تهدم أكواخ الطين التي كان يسكنها أجراؤنا ، طعامهم ماء وخبز أسود . وفي المرة الأولى حاولت أن تعارضني بقولها : «أتحسبهم يحفظون لك هذا الجميل ؟...» .

ولكني لم أقم بأي عمل آخر . وكان يعذبني أن أدرك أني وخصومي كان لنا هوىً مشترك : هو الأرض ، والمال . فهناك الطبقات المالكة ، والطبقات الأخرى ؛ ولقد فهمت أني سأظل أبداً في المالكين ، إذ كانت ثروتي تعدل أو تفضل ثروة كل أولئك الصبية المزهوين الذين كنت أحسبهم يشيحون عني وجوههم إذا رأوني ، وللذين لم يكونوا ـ بلا ريب ـ ليرفضوا يدي لو مددتها . ثم إني لم أكن أعدم ، عن شمال وعن يمين ، أناساً يعيبون عليّ في الاجتماعات العامة أن لي كروماً وغابات تبلغ مساحتها ألفي هكتار .

إغفر لي هذا الاستطراد الطويل فلعلك لن تفهمي ، من دون هذه التفاصيل ، ما كان شأن لقائنا لدى الغلام النفل الذي كنته ، وما كان شأن حبنا . أنا ابن الفلاحين ، ابن تلك التي كانت تضع على رأسها المنديل القروي ، أتزوج من أسرة فوندوديج!... لقد كان هذا عجباً ، وكان ممتنعاً على الخيال!...

٣

توقفت عن الكتابة لأن النور ضؤل ولأني سمعت حديثاً في الدور الأسفل : لم تكونوا تحدثون ضجة كبيرة ، لا بل كنتم تتكلمون بصوت خفيض ، وكان هذا ما يزعجني . فقديماً ، من هذه الغرفة ، كنت أستطيع أن أتتبع أحاديثكم ؛ أما الآن فأنتم حذارى تتهامسون . ولقد قلت لي منذ أيام إني أمسيت ثقيل السمع . لا : إني لأسمع هدرة القطار على الجسر . لا ، لست بالأصم ، ولكنكم تغضون الصوت ولا تريدون أن تبلغني أقوالكم . فما تخفون عني ؟ أحبطت أعمالكم ؟ إنهم جميعاً من حولك ، ممدودي اللسان : صهرنا صاحب الخمارة وصهر ابنتنا العاطل ، وابننا هوبير السمسار... ماذا يطلب هذا الغلام الذي يربح عشرين في المائة وبين يديه أموال كل الناس ؟...

لا تعتمدوا عليّ ، فلن أنزل لكم عن شيء . ستوسوسين لي هذا المساء : «من اليسير أن نقطع أشجار الصنوبر...» وستذكرينني لأنهما ابنتيّ هوبير ما زالتا من زفافهما تسكنان عند أهل زوجيهما لأنهما لا تملكان مالاً لشراء الأثاث . وستقولين لي بعد ساعة : «لدينا في المستودع أكوام من المتاع تتلف في مكانها ، ولن يكلفنا شيئاً أن نعيرهما إياها...» وهذا تتحدثون عنه الآن بصوتكم الخفيض : «إن هذا يحفظهما علينا ، وقد انقطعتا عن زيارتنا ، فحرمت من حفيدتيّ...» .

... ...

... ...

أعدت قراءة هذه الأسطر التي كتبتها أمس مساءً ، فيما يشبه الهذيان . كيف انقدت إلى هذه الغضبة ؟ لم تعد هذه رسالة ، ولكنها أصبحت يوميات أنقطع عنها وأعود إليها... هل ينبغي أن أمحو كل هذا ، وأن أبدأ من جديد ؟ مستحيل ، فالوقت يعجلني ، وما كتبته انتهى أمره . وبعد ، فماذا أطلب إلا أن أفتح لك كل نفسي ، وأن أجبرك على أن ترى ما بها إلى الأعماق ؟ منذ ثلاثين عاماً لم أعد لديك غير جهاز يوزع أوراقاً من ذوات الألف فرنك ، جهاز خرب يجب هزه باستمرار ، حتى يأتي أخيراً يوم يستطاع فيه فتحه وبقره ، والاغتراف ملء اليدين من الكنز الذي يحتويه .

ها قد عدت ثانية إلى الغضب ، وهو يردني إلى النقطة التي وقفت عندها : فيجب الارتداد إلى منبع هذا الغضب ، وتذكر تلك الليلة المشؤومة... ولكن اذكري ، قبل ذلك ، لقاءنا الأول .

كنت في لوشون مع أمي ، في أغسطس عام ٨٣ . وكان فندق «ساكارون» في ذلك الحين مليئاً بالأرائك المحشوة ، والمقاعد والوعول المصبرة . وحين يزهر الزيزفون اليوم ، فعبير زيزفون ممرات ايتيني هو الذي تنشاه أبداً ، بعد كل هذه السنين . وكان خبب الحمر ، وجلاجلها ، ولعلعة الأسواط ، توقظني في الصباح ، ماء الجبل ينساب حتى الشوارع ، وصغار الباعة ينادون في كل مكان ، والأدلاء يمرون على خيولهم فأشهد رحيل المراكب .

وكان الدور الأول كله يقطنه آل فوندوديج ، وقد احتلوا شقة الملك ليوبولد . وكانت أمي تقول : «علام يبذر هؤلاء الناس ؟» إذ أن ذلك لم يكن يمنعهم أن يماطلوا باستمرار إذا ما حان أجل الدفع (فقد كانوا استأجروا المخازن الواسعة التي كنا نملكها في الميناء ، ليودعوا فيها البضائع) .

وكنا نأكل على المائدة المشتركة ، أما أنتم فطعامكم وحده ، وما أزال أذكر تلك المائدة المستديرة قرب النوافذ ، وقد جلست إليها جدتك البادنة ، التي تحجب صلعتها بمناديل مخرمة تلمع فوقها جواهر ملونة . وكنت أحسبها أبداً تبسم لي ، ولكنه وهم كان يخلقه شكل عينيها الصغيرتين وافراط فمها في الاتساع . وكانت تقوم على خدمتها راهبة مورمة الوجه ممرورة ، تغلقها أردية منشاة . وأمك... ما كان أجملها! تلبس السواد ، أبداً حادة على ابنيها الفقيدين . وإليها ، لا إليك أنت ، كنت أول الأمر اختلس النظر المعجب ، يرعشني عرى جيدها وذراعيها ويديها ، عاطلة من كل حلي . وكنت أمني قلبي بمغامرات «ستاندالية» معها ، وأواعد نفسي أن أوجه إليها الحديث في المساء أو أبعث إليها بكلمة... أما أنت فلم أكد ألتفت إليك ، وكنت أحسب أن الفتيات لا يعنينني ، ثم كان من وقاحتك أنك لا تنظرين أبداً إلى الآخرين ، فكأنما تسقطينهم من حساب الوجود .

وذات يوم ، كنت عائداً من «الكازينو» ، فوجدت أمي في حديث مع السيدة فوندوديج ، التي كانت مبالغة في المداراة ، منفرطة في الملاطفة ، كمن يزعجه النزول إلى مستوى محدثه ، بينا كانت أمي على العكس شديدة اللهجة كعادتها مع كل مستأجر يقع بين يديها ، وما كان آل فوندوديج في نظرها أكثر من مدينين مقصرين . وكان شأنها شأن كل الفلاحين وأصحاب الأراضي لا تطمئن إلى التجارة ولا تركن إلى هذه الثروات المهددة أبداً بالزوال . فقاطعتها إذ كانت تقول : «من الأكيد أني واثق بتوقيع السيد فوندوديج ، ولكن...» .

وهكذا اشتركت ، للمرة الأولى ، في حديث يتعلق بأعمالنا ، وحصلت السيدة فوندوديج على المهلة التي طلبتها . ولطالما اعتقدت ، فيما بعد ، أن غريزة أمي القروية لم تخدعها : فلقد كلفتني أسرتك القضاء على ثروتي وتغييبها في تجارتهم . وما تجارتهم ؟ مكتب في الدور الأسفل ، وهاتف ،

وآلة كاتبة... ووراء هذا الزخرف يختفي المال رزماً من ذوات المئة ألف . ولكني أستطرد في حديثي... ونحن الآن في العام ١٨٨٣ ، في بانيير دولوشون .

منذ ذلك الحين رأيت هذه الأسرة القوية تبسم لي . فأما جدتك فلم تكن تنقطع عن الكلام لأنها صماء . ولكن أمك ، منذ أن سنحت لي فرصة مبادلتها بعض الحديث بعد الطعام ، كانت تضجرني وتفسد عليّ الأفكار الحالمة التي كنت كونتها عنها . ولن تغضبي إذا ذكرتك أنها كانت باردة الحديث ، تعيش في عالم جد ضيق وتستخدم ألفاظاً جد محدودة ، فما تمضي الدقائق الثلاث الأولى جتى أقنط من متابعة الحديث .ومال انتباهي عن الأم وتركز على الابنة . ولم ألاحظ أول الأمر أن أي العقبات لم تقم أمام أحاديثنا ، وكيف كان لي أن أتصور أن آل فوندوديج كانوا يرون في زواجك بي تجارة رابحة ؟ إني لأذكر إحدى نزهاتنا في وادي الزنبق . كانت جدتك داخل عربة «الفيكتوريا» مع الراهبة ؛ أما نحن فكنا على الكرسي الاضافي . والله يعلم أن لوشون لم تكن تفتقر إلى عربات ، ولكن جدتك من آل فوندوديج ، ويجب أن تأتي بعربتها الخاصة!...

وكان الجوادان يمشيان مشيتهما البطيئة ، وسط سحابة من الذباب . وكان وجه «الأخت» نيراً وعيناها كالمغلقتين ، بينا جدتك تتروح بمروحة اشترتها في ممرات ايتيني ، رسم عليها مصارع يضرب ثوراً أسود . أما أنت فكنت تضعين قفازاً طويلاً برغم الحر ، وكان كل ما عليك صافي البياض ، حتى حذاؤك الطويل الساق . كنت ، كما قلت لي ، «قد نذرت نفسك للبياض» منذ موت أخويك ، ولم أكن أفهم معنى «نذر النفس للبياض» ، ولكني عرفت فيما بعد قدر اهتمام أسرتك لهذه النذور الغريبة . وكنت في حال نفسية جعلتني أرى لهذا كثيراً من السحر . كيف السبيل إلى إفهامك كل

ما ابتغيته في نفسي ؟ لقد شعرت فجأة أني لم أعد أنفر الناس ، لم أعد كريهاً . وكان تاريخاً هاماً في حياتي ذلك المساء الذي قلت لي فيه : «شيء مدهش ، أن يكون لغلام مثل هذه الأهداب الطويلة!» .

وكنت أعنى بإخفاء آرائي التقدمية . أذكر من تلك النزهة أنا نزلنا ، أنت وأنا ، لنخفف عن العربة في طريق صاعدة فأخذت جدتك والراهبة سبحتيهما ، وكان السائق الشيخ يجيب من أعلى مقعده على أدعية «السلام الملائكي» ، وقد روض على هذا منذ سنين . وكنت أنت تنظرين إلي في ابتسام ، ولكني ظللت على حالي رابط الجأش . ولم يكن يشق عليّ أن أرافقكم يوم الأحد إلى الصلاة ؛ فما كان يمازج هذا الاحتفال في نظري أية فكرة ميتافيزيكية . كانت لدي عبادة طبقة يزهوني أن أراني مقبولاً فيها ، ولوناً من دين الأجداد تستخدمه البورجوازية ومجموعة من الطقوس عاطلة إلا من دلالتها الاجتماعية .

ولما كنت أحياناً تختلسين النظر إليّ ، فما تزال ذكرى هذه الصلوات مرتبطة لدي بهذا الاكتشاف الرائع الذي كنت أنعم به : وهو قدرتي على إثارة اهتمام الآخرين ، على إرضائهم ، على استجلاب عاطفتهم ، فكان الحب الذي أستشعره يختلط بذلك الذي ألهمه ، أو الذي كنت أخال أني ألهمه . ولم يكن لعواطفي الخاصة ظل من الشأن لديّ ، لأن كل اهتمامي كان منصرفاً إلى ثقتي بحبك أنت لي . كنت أعكس نفسي في مرآة كائن آخر ، ولم يكن في صورتي الجديدة هذه شيء من الكراهية . وإني لأذكر كيف كانت نظراتك إليّ تذيب الجليد في كياني كله ، أذكر هذه العواطف المنبجسة ، وهذه الينابيع التي أطلقت من سدودها . فأبسط حركات الحنان ، واليد التي تمسكين بها يديّ ، الوردة التي تحفظينها في كتاب ، كل هذا كان جديداً لديّ ، وكله كان يسرني .

وما حرم من نعمة هذه الجدة إلا أمي . كنت أراها كارهة للحلم الذي

كنت أراه جنوناً ، والذي كان يتجسم في ذاتي على مهل ، فيحفظني منها ألا أراها مفتونة به ، فهي لا تنفك تكرر : «ألا ترى كيف يحاول هؤلاء الناس اجتذابك ؟ » غير ملتفتة إلى أنها قد تهدم بهذا فرحتي الكبرى بأني استطعت أخيراً إرضاء فتاة . كان على الأرض فتاة تعجب بي ولعلها تأمل أن تتزوجني ؛ ولقد كنت مؤمناً بهذا على رغم أمي وإنكارها ، إذ كنتم في عيني من الكبر والسلطة بحيث لا يمكن أن يكون لكم من وراء زواجنا بعض الجدوى ، فكان يغيظني من أمي أن تشك في سعادتي .

على أن هذا لم يكن يمنعها أن تستقي المعلومات عنكم في كل مكان ، بفضل صلاتها بالمصارف الرئيسية . ولقد انتصرت ، يوم أن اضطرت إلى الاعتراف بأن آل فوندوديج ، برغم بعض الأزمات العارضة ، كانوا يتمتعون بأرحب الثقة . كانت تقول لي : «إنهم يربحون ربحاً جنونياً ، ولكنهم يحيون حياة باذخة . فمالهم كله يضيع في «الاسطبلات» وفي ثياب الخدم . إنهم يفضلون أن يذروا الرماد في العيون على أن يقتصدوا بعض المال...» .

وأتمت معلومات المصارف اطمئناني على سعادتي ؛ فبين يديّ كان الدليل على تجردكم ؛ وكان أهلك يبتسمون لي رضا عني ؛ فكأنما أصبح طبيعياً أن يعجب بي كل الناس . كانوا يدعونني وحيداً معك عند المساء ، في ممرات «الكازينو» . هذه اللحظات الأولى ، من حياتنا التي خصص لنا فيها حظ ضئيل من السعادة ، ما أغرب ألا نلقى فيها نذيراً يقول لنا : «مهما تعمر ، فلن تنعم بسعادة في الكون إلا في هذه الساعات النذرة . فتملها حتى الثمالة ، فما لك وراءها من شيء . وهذا الينبوع الأول الذي لقيته هو الينبوع الأخير أيضاً ؛ فانفح عطشك ، روِّه حتى ينقع ؛ فما أنت وارد أبداً من بعد! » .

بل لقد كنت أقنع نفسي ، على العكس ، بأن تلك إنما كانت بداية

حياة طويلة من العشق ، ولهذا لم أكن كثير الكلف بتلك الأمسيات التي قضيناها ، ساكنين ، تحت أوراق الشجر الغافية .

على أنه كانت هناك بعض إمارات ، ولكني كنت أسيء تأويلها . أتذكرين تلك الليلة ، على أحد المقاعد ، ليلة أن شهقت بالدموع ، فجأة دون سبب ظاهر ؟ إني لأذكر رائحة وجنتيك المبللتين ، ورائحة هذا الحزن المجهول . وكنت أؤمن بعبرات الحب السعيد ، وكان شبابي لا يحسن تأويل هذه الشهقات وهذه القصص ، وكنت تقولين لي : «إنها رعشة عابرة ، أثارها كوني إلى جانبك...» .

ولم تكذبي ، أيتها الكاذبة . فلقد بكيت حقاً لأنك كنت بجانبي ـ بجانبي لا بجانب آخر ، لا بجانب ذاك الذي اعترفت لي أخيراً باسمه ، بعد أشهر ، في هذه الغرفة حيث أكتب ، وحيث أنا مريض على شفا الموت ، وسط أسرة بالمرصاد ، ترتقب ساعة اقتسام التركة .

وأنا ، على ذلك المقعد ، بين أشجار سوبير بانيير المتشابكة ، كنت أسند وجهي بين كتفك وجيدك ، وأتنشّى عبير تلك الفتاة الغرة الباكية . وكانت هذه الليلة الرطبة الدافئة ، الغنية برائحة الكلأ النديّ والنعناع ، قد اكتسبت أيضاً من عبيرك . وفي الساحة التي نطل عليها ، كانت أوراق الزيزفون حول فناء الموسيقا منورة بالمصابيح . وكان شيخ انجليزي من النازلين في الفندق يصطاد بشبكته الطويلة فراشات الليل التي يجتذبها النور . وقلت لي : «أعرني منديلك» . فمسحت عينيك وأخفيت هذا المنديل بين قميصي وصدري .

وفي هذا ما يكفي للقول بأني غدوت إذ ذاك كائنا آخر . وحتى وجهي مسحه نور ، تدلني على ذلك نظرات النساء . وما خطرت لي بعد ذلك المساء الدامع ، ومضة من شك ؛ وكيف وقد عوضته بليال كثيرة كنت فيها

أبداً فرحة ، تستندين إليّ أو تعتمدين على ذراعي ، فإذا أسرعت في خطوي بهرك اللحاق بي ؟ وكنت الخطب العفيف ، تمسين من ذاته ناحية ما تزال بكراً ، فما سوّلت لي نفسي مرة واحدة أن أستثمر ثقة أهلك التي كنت أبعد الناس عن التفكير في أنها ثقة محسوبة .

أجل ، لقد كنت رجلاً آخرا حتى لقد حدث ذات يوم (وأجرؤ الآن ، وقد مضى أربعون عاماً ، أن أعترف لك هذا الاعتراف الذي لن يذيقك طعم الانتصار إذا ما أتممت قراءة الرسالة) ، حدث ذات يوم ، على طريق وادي الزنبق ، أن كنا ننزل من عربة «الفكتوريا» ، وكانت المياه تنساب ، وعلى سفوح الجبال يتراكم الليل ، ولكن عند الذرى بقايا نور... فشعرت بغتة إذ ذاك شعوراً حاداً ، بل يقيناً شبه عضوي ، بأن هناك عالماً آخر ، واقعاً لا نعرف منه إلا ظله...

ولكنها كانت لحظة واحدة ، لم تتكرر ، طوال حياتي البائسة ، إلا في فترات جد نادرة . ولكن انفرادها نفسه يعظم من شأنها في عيني . ومن أجل هذا اضطررت فيما بعد ، خلال الصراع الديني الطويل الذي مزق شملنا ، أن استبعد هذه الذكرى... فلأعترف لك بذلك ، ولكن لم يحن بعد أوان هذا الحديث .

ولا جدوى في تذكيرك بخطبتنا . لقد عقدت ذات مساء ، دون أن أريد ذلك ، إذ فسرت ـ فيما أحسب ـ كلمة قلتها أنا في معنى مختلف كل الاختلاف عن المعنى الذي كنت أريده ، فإذا أنا مرتبط بك على حين فجأة . لا جدوى من تذكر كل هذا . ولكن هناك أمراً شائناً يأبى فكري إلا الوقوف عنده .

كنت قد أعلنتني في الحال بأحد مطالبك ، إذ كنت ، «رغبة في استمرار تفاهمنا» ، ترفضين أن تشاركي أمي حياتها في البيت ، وحتى أن

تساكنيها في المنزل الواحد ؛ وكنت وأهلك مجمعين على عدم التساهل حول هذا الموضوع .

وما تزال حاضرة في ذاكرتي بعد كل هذه الأعوام ، صورة تلك الغرفة الخانقة في الفندق ، وتلك النافذة المفتوحة على ممرات إيتيني! كان الغبار الذهبي ، وقرعات الأسواط ، والأجراس ، ونغم موسيقا تيرولية تصعد إلينا من خلال الشباك المغلقة . وكانت أمي مصدوعة مستلقية على الأريكة . ترتدي «تنورة» وصدرة (فما عرفَتْ يوماً شيئاً اسمه مفضل أو مئزر أو مبذل) . وكانت تقول لي إنها ستترك لنا قاعات الدور الأسفل وتكتفي بغرفة في الدور الثالث ، فاهتبلت هذه الفرصة وقلت :

ـ إصغ إليّ ، يا أماه . إيزا تعتقد أنه سيكون أفضل...

وجعلت أتحدث ، وأنظر خلسة إلى هذا الوجه الهرم ، ثم أشيح نظري عنه . وكانت أمي تدعك بأصابعها العقداء أطراف الصورة . فلو أنها ثارت لوجدت ما أغضب منه ، ولكن صمتها لم يكن يقدم لغضبي أيّ عون .

كانت تصطنع عدم التألم ، بل عدم الدهشة . وأخيراً تكلمت ، تبحث عن الألفاظ التي تستطيع أن تقنعني بأنها كانت تتوقع هذه الفرقة .

ـ سأسكن أكثر العام في أورين ؛ إنها أصلح مزارعنا للسكن ؛ وسأترك لكما كاليز . وسأبني بيتاً صغيراً في أورين . تكفيني ثلاث حجرات . ومن المؤسف أن نضطر إلى تكاليف هذا البناء مهما تكن زهيدة ، فلقد أموت العام المقبل . على أنك تستطيع أن تستخدمه فيما بعد لصيد الحمام ، وستطيب لك الاقامة هناك في أكتوبر . أنت لا تحب الصيد ، ولكن قد يأتيك أولاد يولعون به .

ليذهب إنكاري الجميل أبعد مذهب ، فهيهات إنه لن يبلغ مدى هذا الحب! حب تطرده من مقره فلا يلبث أن يعود إلى قوته في مكان آخر . حب كان يكتفي بما أبقيه له فيدبر به شأنه .

ولكنك سألتني عند المساء :
ـ مالها أمك اليوم ؟ .

على أنها ، في اليوم التالي ، عادت إلى مألوف مظهرها . ووصل من بوردو أبوك وابنته الكبرى وصهره . فلا ريب أنهم أخبروا بالأمر . كانوا يصعدون فيّ أنظارهم ، وأحسب أني سمعتهم يتساءلون : «أتراه قابلاً للهضم ؟ أما أمه فلا تطاق...» ولن أنسى ما حييت الدهشة التي ابتعثتها فيّ أختك ماري ـ لويز ، التي كنتم تدعونها مارينيت التي كانت تكبرك بعام وتبدو أصغر منك ، نحيفة ذات جيد أقلع ، وقذال ذي شعر أثيث ، وعيني طفل . ولقد نفرت من البارون فيليبو ، الشيخ الذي أباحها له أبوها . ولكنني ، منذ موته ، كثيراً ما خطر لي أن هذا الستيني كان أشقى من عرفت من الناس . أي عذاب تحمل هذا المعتوه لتنسى زوجته الشابة أنه عجوز! كان المشد يضيق عليه حتى ليخنقه ، والياقة المنشاة عريضة عالية حتى لتحجب أسفل الوجه ؛ وصبغة الشارب والعارضين لامعة تبرز عيوب الجلد المضني . وكان لا يكاد يصغي إلى ما يقال له ، باحثاً أبداً عن مرآة ، فإذا ما وجدها ، فاذكري إذن ضحكنا حين نفاجئ نظرة هذا المسكين إلى صورته ، هذه المحنة الدائمة التي كان يأخذ بها نفسه . وكان فكاه يمنعانه من الابتسام ، وقد التصقت شفتاه في عزيمة لا تخور أبداً . ولقد لاحظنا أيضاً هذه الحركة وهو يرتدي ثيابه ، فيحاول ألا يزعج الغديرة المضحكة التي تصعد من قذاله فتتوزع على صلعته ، كأنها دلتا نهر شحيح .

أما أبوك الذي كان معاصره ، فكان على رغم لحيته البيضاء ، وصلعته وكرشه ، ما يزال يرضي النساء وما يزال عجيب القدرة على فهم الأعمال التجارية ، فما وقف في وجهه إلا أمي ، وقد شدت من عزمها فيما يبدو

الضربة التي كنت نلتها بها قبل حين ، فكانت تناقش كل مادة من العقد كما لو كانت تبحث في بيع أو في إجازة . وكنت ألومها وأتظاهر بالسخط على مطالبها ، ولكني كنت سعيداً في سري لأن مصالحي في خير حرز . فإذا كانت ثروتي اليوم مفرقة تمام التفريق عن ثروتك ، وكنتم لا تملكون عليّ أية سلطة ، فذلك بفضل أمي التي اقتضت أقسى أنظمة الزواج ، كما لو كنت فتاة عزمت على الاقتران بخليع .

وكان يطمئنني أن آل فوندوديج لم يكونوا يرفضون ما تطلب ، فأقول في نفسي إنهم حريصون عليّ لحرصك أنت عليّ .

وكانت أمي ترفض القبول بريع سنوي ، وتصر على أن تدفع بائنتك مالاً نقداً ، وهي تقول : «إنهم يضربون لي مثلاً بالبارون فيليبو ، الذي تزوج ابنتهم البكر دون درهم... وأنا موقنة أنهم لم يبيحوا هذه المسكينة لهذا العجوز إلا لغاية في نفوسهم وراءها فائدة! أما نحن فلنا شأن آخر... لقد كانوا يحسبون أن مصاهرتهم ستغريني... إنهم يجهلونني...» .

أما نحن «القمريين» فكنا نبدي عدم المبالاة بالنقاش . ولكني أتخيل أن اطمئنانك إلى عبقرية أبيك لم يكن أدنى من اطمئناني إلى عبقرية أمي . ولعلنا كنا ، نحن الاثنين ، لم ندرك بعد إلى أي مدى كنا نحب المال...

لا ، إني لظالم ؛ فما أحببته أنت قط إلا بسبب الأولاد . فربما قتلتني لتغنيهم ، ولكنك من أجلهم تنزعين من فمك اللقمة .

أما أنا فأحب المال . أعترف أنه يطمئنني . فما دمت أنا سيد المال فما لكم عليّ من سلطان . إنك تكررين أمامي : «في مثل سننا لا يحتاج المرء إلى المال» . ولكنك على خطأ . فلا حياة للعجوز إلا بما يملك . ، فإذا أفلس رذلوه وأنكروا وجوده . وليس لنا من خيار بين الثروة وملجأ العجزة . وحكايات الفلاحين الذين يدعون أباهم العجوز يموت جوعاً بعد أن جردوه من ثروته ، كم مرة رأيت مثلها ، مع بعض الفرق في الأسلوب والمظهر ، في

الأسر البورجوازية! أجل ، إني حقاً أخاف الفقر . ويتراءى لي أني لن أجمع الدهر القدر الكافي من الذهب : إنه يغريكم ، ولكنه يحميني .

لقد فاتت ساعة صلاة المساء ولم أسمع الناقوس... ولكنهم لم يقرعوه : فاليوم الجمعة الحزينة وسيصل رجال الأسرة هذا المساء في السيارة . وسأنزل إلى العشاء : فأنا أريد أن أراهم مجتمعين . أشعر أني بإزائهم جميعاً ، أقوى مني في المحادثات الفردية . ثم إني حريص على أن آكل حصتي العادية من اللحم في هذا اليوم ، يوم الصيام ، لا ازدراء له ، بل لأثبت لكم أن إرادتي ما تزال على بأسها وأني لن أتنازل عن موقفي في أية نقطة .

كل المراكز التي احتلها منذ خمس وأربعين سنة والتي لم تستطيعي إخراجي منها ، كلها تسقط ، واحدها إثر الآخر ، إذا أنا تخليت لكم عن واحد منها فقط . ففي وجه هذه الأسرة التي تأكل الفاصوليا ، والسمك بالزيت ، ستكون ضلع اللحم الذي آكله يوم الجمعة الحزينة علامة على أن ليس أمامكم أدنى أمل في تجريدي وأنا على قيد الحياة .

٤

لم أكن مخطئاً . فإن وجودي بينكم ، أمس عند المساء ، قد أفسد عليكم السهرة . كانت مائدة الأطفال وحدها مرحة لأن عشاءهم ، مساء الجمعة الحزينة ، «الشوكولاتة وفطائر الزبدة . ولست أميز واحدهم من أخيه ؛ فلقد أصبح لحفيدتي جانين طفل يمشي... وقد متعت الجميع بمشهد شهيتي الممتازة . وتحدثت أنت عن اعتلال صحتي وعن شيخوختي لتبرري ضلع اللحم في نظر الأطفال . ولكن ما أفزعني حقاً هو تفاؤل هوبير واطمئنانه إلى أن السوق المالية متجهة إلى صعود سريع كرجل يكون هذا الأمر لديه مسألة حياة أو موت . إنه ابني على أي حال . هذا الأربعيني ابني ، أعرف ذلك وإن كنت لا أشعر به : حقيقة لا أستطيع النظر إليها وجهاً لوجه . ولكن ، قد تسوء حاله ، هذا السمسار . إنه يقامر ويغامر... فإذا ما غدا شرف العائلة يوماً في خطر... شرف العائلة! هذا إله لن أضحي له القرابين . فلأحدد قراري منذ الآن : يجب ألا يغلبني الحنو ، خصوصاً وأن العم فوندوديج ما يزال حياً ، مستعداً للبذل إذا رفضت... ولكني أهذر وأشرد ، وأهيم في الحقول... أعني أني أحاول تناسي تلك الليلة التي هدمت فيها سعادتنا دون أن تعلمي...

ومن الغريب أنك ربما نسيتها . فتلك الساعات الدافئة في الظلام ، في

هذه الغرفة ، هي التي حددت قدرينا . كل كلمة كنت تقولينها كانت تباعد ما بينهما خطوة جديدة ، ثم لم تدر شيئاً من هذا . وذاكرتك التي تكتظ فيها ألف ذكرى تافهة لم تحفظ شيئاً من هذه النكبة . فكري أنك ، أنت التي تحترفين الايمان بالحياة الأخرى ، قد أفسدت حياتي الأخرى أنا تلك الليلة . فلقد كان حبنا الأول جذبني إلى جو الايمان والعبادة الذي يغمر حياتك . كنت أحبك ، وأحب عناصر كيانك الروحية . وكنت أخشع إذ تركعين في ثوبك المدرسي الطويل...

كنا نسكن هذه الغرفة التي أخط فيها هذه الأسطر . لم أتينا ، بعد العودة من سياحتنا بعد الزفاف ، إلى كاليز حيث كانت أمي ؟ (فلقد كنت رفضت أن تعطينا كاليز ، التي كانت تحبها لأنها هي التي بنتها) . لقد تذكرت فيما بعد ، إزكاء لحقدي ، الوقائع التي كنت جهلتها أول الأمر أو ألويت عنها ببصري . فأولى هذه الوقائع أن أسرتك تعللت بموت أحد الأعمام ، على الطريقة «البريتانية» ، لتلغي حفلات الزواج . فكان جلياً أنها خجلى لمصاهرتها أسرة في مثل هذه الوضاعة . وكان البارون فيليبو يروي في كل مكان أن أخت زوجته قد علقت في بانيير دو لوشون شاباً فاتناً ، زاهي المستقبل ضخم الثروة ، ولكنه من أصل خامل الذكر . ثم يقول : «أقصد أنها ليست أسرة ذات جاه» . ويعود فيتحدث عني كما لو كنت ابن سفاح . ولكنه على أي حال يقر في رضا أني لم أكن من أسرة تجلب الخجل ، وأن أمي العجوز كانت امرأة «لابأس بها» تحسن الاحتفاظ بمكانتها . وخلاصة القول أنه كان يرى فيك طفلة مدللة ، تتصرف بأهلها وفق هواها ، وكانت ثروتي من الشأن بحيث استطاع آل فوندوديج أن يوافقوا على هذا الزواج وأن يغضوا الطرف عما عداه .

ولقد نمى إليّ هذا الهذر فما دلني على شيء لم أكن في الواقع أعرفه . ولكن السعادة كانت ترغب بي عن مبالاته . ويجب أن أعترف أني أنا نفسي

غنمت بعض الغنم في هذا الزفاف الذي كاد أن يكون سرياً : فمن أين لي بفتيان شرف ، وأنا أحتقر تلك العصبة الساغبة التي كنت فيما مضى زعيمها ، وكبريائي تمنعني أن أمد يدي إلى أعدائي بالأمس ؟ ولقد كان في وسع هذا الزواج من أسرة نبيلة أن يبشر التقارب ، ولكن عرضي الصريح لمساوئي ، في هذه الرسالة ، لا يقتضيني إخفاء خصلتي هذه : الاستقلال والصلابة . فما أتواضع لمخلوق ، ولا أنا بخائن أفكاري . ولهذا أنبني ضميري بعض التأنيب على زواجي بك ؛ فلئن وعدت أهلك ألا أحيد بك عن عباداتك ، فأنا لم أتعهد لهم إلا بعدم الانضمام إلى الماسونية . وبعد ، فما كان لكم في الحق أي مطلب . ففي تلك السنوات كان الدين دين النساء فحسب . وكان الزوج ، في عالمك ، «يرافق زوجته إلى الصلاة» : ذلك كان الدستور المقبول . وأنا قد برهنت لكم ، في لوشون أني لا أرفضه .

وحين عدنا من البندقية في سبتمبر عام ٨٥ ، وجد أهلك أعذاراً تبيح لهم ألا يستقبلونا في قصرهم في سينون ، حيث كان أصدقاؤهم وأصدقاء آل فيليبو قد احتلوا كل الغرف . فوجدنا من المناسب أن نقيم فترة من الزمن عند أمي ، وذكرى قسوتنا تجاهها لا تزعجنا في شيء ، راضين بالحياة معها ما راق لنا ذلك .

وتجنبت أن تنتصر : فقالت لنا إن البيت بيتنا ، وإن في وسعنا أن نستقبل فيه من نشاء ، وإنها ستتوارى فما ترى . كانت تقول : «أنا أعرف كيف أختفي» . وتقول أيضاً : «أنا أبداً خارج المنزل» . وفي الواقع أنها كانت دائبة على العناية بالكروم وأقبية الخمور ، وبالدجاج والغسيل . وكانت بعد الطعام تصعد لحظة إلى غرفتها ، ثم تعتذر إذا لقيتنا في القاعة ، وتطرق الباب قبل أن تدخل ، حتى اضطررت أن أنبهها إلى أن هذا لا يصح . ولقد بلغ بها الأمر أن عرضت عليك إدارة المنزل ، ولكنك وفرت عليها هذه

الغمة . وما كان بك إلى هذا في الحق أي ميل . آه لو تدرين أي امتنان لك عمّر قلبها إذ خفضت لها الجناح!

ذلك بأنك لم تفضليني عنها الفصل الذي كانت تشفق منه ، بل لقد بدوت أكثر لطفاً معها مني قبل الزواج . وكانت قهقهاتنا العالية تدهشها : فهذا الزوج السعيد هو نفسه ابنها الذي كان منطوياً على ذاته مفرط الشراسة . ولعلها فكرت أنها لم تكن عرفت كيف يجذبني ، وأني كنت أعلى كثيراً منها ، فجئت أنت تصلحين ما صنعت من سوء .

وإني لأذكر إعجابها بك إذ تلطخين بالدهان الألواح والطبول ، أو تغنين ، أو تلعبين على البيان «أغنية دون كلام» لماندلسون ، تقفين بها أبداً عند مكان بعينه .

وكانت بعض صديقاتك الفتيات يأتين أحياناً لزيارتك ، فتقولين لهن : «سترين حماتي . إنها نموذج خاص ؛ ريفية حقة من طراز لم يعد يوجد اليوم» . وكنت ترين لها طابعاً طريفاً ، وتعجبك منها لهجتها العامية الاقليمية وهي تحدث بها الخدم . بل لقد بلغ الأمر أن أطلعتهن على الصورة التي تبدو فيها أمي ، هي في الخامسة عشرة ، حاملة بعد منديلها القروي . وكانت لديك أغنية عن الأسر الريفية ، القديمة ، التي هي «أنبل من كثير من النبلاء...» شد ما كانت في ذلك الحين متمسكة بالمراضعات! إن الأمومة وحدها هي التي ردتك إلى الطبيعة .

ما أبرح أبتعد عن حديث تلك الليلة... كانت من اشتداد الحر بحيث لم نستطع إبقاء النوافذ الخشبية مغلقة على رغم فزعك من الخفافيش . ولم يكن ليجدينا وثوقنا من أن تلك كانت أوراق إحدى أشجار الزيتون تلامس جدران المنزل ، فقد ظللنا أبداً نحسب أن هناك شخصاً يتنفس في صدر الغرفة . وكان يحدث أن تقاد الريح ، بين أوراق الشجر ، صوت المطر المنهمر ،

والقمر في مغيبه يضيء أرض الغرفة وأشباح ثيابنا المتفرقة ، وتنقلب صمتاً دمدمةُ المروج .

وكنت تقولين لي : «لننم . يجب أن ننام...» ولكن طيفاً كان يحوم فوق رأسينا المتعبين . وما كنا وحيدين أبداً ساعة العناق ، بل كان ينبعث رودولف ، هذا الكائن المجهول ، أوقظه في فؤادك كلما لفك ذراعاي .

فإذا ما فتحتهما شعرنا كلانا بوجوده . ولم أكن أريد الألم ؛ كنت أشفق منه ، تظاهرني في طلب السعادة غريزة حفظ البقاء ، فكنت أعرف أن عليّ ألا أسألك عنه ، وأن أدع هذا الرسم يتطاير كالفقاعة من على سطح حياتنا . وهذا الشيء الغافي تحت المياه الراكدة ، هذا الشر ، هذا السر العفن ، لم أفعل شيئاً لأنزعه عن حمأ روحينا . أما أنت أيتها التاعسة فقد كانت بك حاجة إلى أن تحرري بالكلام هذا الهوى الخائب الذي ظل على جوعه . فكان كافياً أن سؤالاً واحداً انفلت من لساني :

ـ إيزا ، من كان رودولف هذا ؟

ــ هناك أمور كان يجب أن أقولها لك... لا ، ليست بذات بال ، فاطمئن!...

وكنت تتكلمين خفيضة الصوت معجلته ، وقد ابتعد رأسك عن كتفي ، وحال المدى الزهيد الذي كان يفصل بين جسمينا الممددين هوة لا تجاز .

كان ابن نمسوية رجل صناعة من الشمال... وعرفته في ايكس حيث كنت تصحبين جدتك ، في العام الذي سبق لقاءنا في لوشون ، آتياً من كامبريدج . ولم تصفيه لي ، ولكني نسبت له من فوري كل المزايا التي كنت أعرف أني مفتقر إليها . وكان القمر يضيء على لحافنا يدي العقداء القصيرة الأظفار ، يد فلاح... ولم تأتيا في الحق أي سوء ، وإن كان فيما تقولين أقل احتراماً لك مما كنت . ولم تحفظ ذاكرتي شيئاً دقيقاً من اعترافاتك ؛ فما كان ذلك ليعنيني ؛ ولو أنك لم تكوني أحببته لهان علي الأمر ، ولتعزيت عن

هذه السقطة القصيرة التي تتردى إليها فجأة براءة طفلة . ولكني كنت أتساءل : « كيف أمكنها أن تحبني ولما يمض عام على هذا الحب الكبير ؟ » ويأخذني الفزع فأقول لنفسي : «لقد كان كل هذا خدعة . كذبتني وما أنقذتني : وكيف رجوت أن تحبني فتاة ؟ إني امرؤ لا يحب! » .

وكانت نجوم القمر ما تزال ترعش . واستيقظ شحرور . وكانت النسمة التي نسمعها بين الأوراق تنفخ الستور قبل أن نحسها على أجسامنا ، ثم تندى عيني ، فعلها أيام سعادتي ، تلك الأيام التي كانت ما تزال حية قبل عشر دقائق .

وسألتك :

ـ أرغب عنك ؟

وأذكر أنك ثرت إذ ذاك ؛ فما يزال في أذني حتى الآن هذا الصوت الخافض الذي كنت تردين به عليّ كلما كان في الأمر ما يمس كبرياءك . وزعمت أنه كان على العكس جد موله ، جد فخور بأن يتزوج فتاة من آل فوندوديج . ولكن أهله كانوا علموا أنك فقدت أخوين ، كلاهما احتضره في صباه السل . وكان هو أيضاً نحيل الجسم ، فرفض أهله الزواج كل الرفض .

وكنت أسألك في هدوء ، فما أنبأك شيء بما كنت تهدمينه ، وقلت لي :

ـ كل هذا ، يا حبيبي ، فعلته من أجلنا كلينا العناية الإلهية . فأنت تعرف أهلي وزهوهم ، وأعترف لك أن في هذا الزهو بعض السخف ، وأعترف أن سعادتنا لم تكن لتتم لو لم يخفق ذلك الزواج فيطامن من كبريائهم . فأنت لا تجهل شأن الصحة في مجتمعنا ، متى كان الزواج موضع بحث ؛ ولقد كانت أمي تتخيل أن قد عرفت بفسخ خطبتي كل المدينة ، وأن أحداً لن يروم الزواج بي بعد ؛ ووقر في ذهنها أني سأظل عانساً مدى العمر . فما كان أسوأ الحياة التي أجبرتني عليها خلال عدة أشهر . كأن لم يكن في

حزني الكفاية!... حتى لقد استطاعت أن تقنعنا أنا وأبي آخر الأمر أني « غير قابلة للزواج » .

وكنت أكظم كل لفظة قد تدعوك إلى الاسترابة ، بينا كنت تكررين أن كل هذا صنعته من أجلنا العناية الربانية .

وقلت لي :

ـ لقد أحببتك على الفور ، منذ رأيتك . وكنا قد صلينا كثيراً في لورد قبل الذهاب إلى لوشون ، ففهمت حين رأيتك أن صلاتنا قد قبلت .

ولم تكوني تدركين الحنق الذي تبعثه في نفسي مثل هذه الكلمات . إن خصومكم ليسرون عن الدين فكرة أعلى كثيراً مما تتصورون ومما يظنون هم أنفسهم . وإلا فلم يجرحهم أن تكون عبادتكم في مثل هذه الحطة ؟ أم ترون من بسيط الأمور أن تطلبوا حتى عرض الدنيا من هذا الرب الذي تسمونه أباً ؟... ولكن كل هذا لا شأن له . المهم هو أنه كان يظهر من حديثك أنك وأهلك قد ارتميتم بجماع أنفسكم على أول صيد مررتم به .

فما شعرت قبل تلك اللحظة بكل ما في زواجنا من تفاوت... لقد تم هذا الزواج لأن أمك كانت مجنونة فأعدتك من جنونها وأعدت أباك... ولقد أنبأتني أن آل فيليبو كان بلغ بهم الأمر أن هددوك بانكارها إذا تزوجتني ؛ ففي لوشون ، بينا كنا نسخر من هذا الأحمق ، كان هو قد حاول كل السبل ليقنع أهلك بأن يفسخوا العقد . وقلت لي :

ـ ولكني كنت حريصة عليك ، يا حبيبي ، فضاعت جهوده في الهواء .

وكررت لي عدة مرات أنك لست نادمة أبداً على شيء . وكنت أدعك تتكلمين ، وأحبس نفسي ، وأنت تؤكدين لي أنك ما كنت لتسعدي مع رودلف هذا ، فهو مفرط الجمال ، لا يحب بل يدع للآخرين أن يحبوه ، وأن أية امرأة أخرى كان في وسعها أن تنتزعه منك .

ولم تكوني تلاحظين أن صوتك كان يتغير حين تتلفظين باسمه فيبدو

هذا الصوت أقل حدة ، ويغتني ببعض الاضطراب والهديل ، كأنما لا تزال معلقة في صدرك زفرات قديمة ، يحررها وحده اسم رودولف .

لم يكن ليجعلك سعيدة ، لأنه كان جميلاً ، فاتناً ، محبوباً . كان هذا يعني أني ، أنا ، سأكون فرحتك الكبرى بفضل وجهي الكنود ، وهذه الشراسة التي تنفر القلوب... وكنت تقولين إنه كان من ذلك النوع الثقيل من الفتيان الذين كانوا في كامبريدج والذين يقلدون العادات الانجليزية : أكنت إذن تفضلين زوجاً يعجز عن انتقاء قماش ثوبه وعن عقدة ربطة عنقه ، زوجاً كان يكره الرياضة ، ولا يعرف من التبذل الماكر ، وهذا التفنن في اجتناب الأحاديث الجدية والمصارحات والنجوى ، وهذه الخبرة في العيش السعيد الأنيق ؟ لا ، ولكنك تزوجت هذا الشقي لأنك وجدته في طريقك ، في ذلك العام الذي اقتنعت فيه أمك ، وقد نالها الكبر ، أنك لم تعودي «قابلة للزواج» ، ـ ولأنك لم تكوني تريدين ولا كنت تستطيعين أن تظلي ستة أشهر أخرى فتاة بلا زوج ، ولأنه كان لديه من الغنى حجة كافية في أعين الناس...

كنت أحبس أنفاسي اللاهثة ، وأشد قبضتي ، وأعض على شفتي السفلى . وحين يحدث اليوم أن أكره نفسي حتى لا أعود أطيق قلبي ولا جسمي ، يشرد بي فكري إلى هذا الفتى الذي كان عام ١٨٨٥ زوجاً في الثالثة والعشرين ، ذراعاه مضمومان إلى صدره ، وهو يختنق في سخطِ حبه الطفل .

وكنت أرتجف فشعرت بذلك وتوقفت لتسألني :

ـ أبردت يا لويس ؟

فأجبت أنها كانت رعشة لا شأن لها . فقلت لي :

ـ حذار أن تغار... لأنت سخيف لو فعلت...

فلم أكذب إذ حلفت لك أنه لم يكن في نفسي أثارة غيرة . وأنّى كان لك أن تفهمي أن المأساة كانت أبعد مدى من كل ما في الأرض من غيرة ؟

ولكن صمتي ، برغم بعدك عن توجسي في الظلام ، وداعبت وجهي . ولعل هذه اليد لم تتعرف هذا الوجه القاسي المصطك الفكين ، برغم أنه لم تكن تبلله دمعة ، ففزعت ، وأردت إضاءة الشمعة فانحنيت عليّ نصف انحناءة ، والكبريت لا يحترق ، وأنا أختنق تحت جسمك البغيض .

قلت :

ـ ما لك ؟ لا تظل صامتاً هذا الصمت . إنك تخيفني .

فتظاهرت بالدهشة ، وأكدت لك أني لم أكن أشعر بشيء يمكن أن يزعجك . فقلت :

ـ ما أحمقك ، يا حبيبي! لقد أخفتني . هأنذي أطفئ النور ، وأنام .

ثم لم تتكلمي بعدها . وجعلت أنظر إلى هذا اليوم الجديد يولد ، هذا اليوم الأول في حياتي الجديدة ، والسنونو يغرد فوق القرميد . وفي الساحة رجل يمر جاراً حذاءه القروي . كل ما لا أزال أسمعه الآن ، بعد خمس وأربعين سنة ، كنت أسمعه : الديوك والأجراس ، وقطار البضائع على الجسر ؛ وكل ما كنت أستنشقه ما أزال الآن أستنشقه : هذا العطر الذي أحبه ، هذه الرائحة ـ رائحة الرماد ـ التي تأتي بها الريح كلما احترقت أرض ما جانب البحر . وفجأة اعتدلت جالساً وسألتك :

ـ إيزا ، ذلك المساء الذي بكيت فيه ، مساء كنا على المقعد في سوپربانيير ، أكنت من أجله تبكين!

ولم تجيبي ، فجذبتك من ذراعك ، فأفلته في نخير شبه حيواني ، واستدرت على خاصرتك . كنت تنامين في شعورك الطويلة ، وقد قرصتك نداوة الفجر فجذبت اللحاف على جسمك المكتوم الموشع ، كما ينام صغار الحيوان . وما كانت جدوى إيقاظك من هذا السبات الصبياني ؟ ألم أكن أعرف سلفاً ما كنت أود سماعه من شفتيك ؟ .

ونهضت في هدوء ، وذهبت حافي القدمين حتى المرآة فتأملت وجهي كأنما انقلبت شخصاً آخر ، أو كأنما عدت إلى شخصي القديم ، إلى الرجل الذي لم يحب ، والذي لم يتألم من أجله في العالم مخلوق . كنت أرثي لشبابي ، وانطلقت يدي القروية الغليظة على طول خدي الذي أظلمت فيه لحية قاسية صهباء اللون .

وارتديت ثيابي في صمت ، ونزلت إلى الحديقة ، فألفيت أمي في ممر الورود ، إذ كانت تستيقظ قبل الخدم لتجدد هواء المنزل . فقالت لي :

ـ أتطيب لك نداوة الجو ؟

وأشارت بيدها إلى الضبابة التي تحجب السهل ، وأضافت :

ـ سيكون هذا اليوم ثقيل الحرارة فسأغلق النوافذ كلها منذ الساعة الثامنة .

وقبلتها في حنان لا عهد لي به . فقالت في صوت خافت : «يا حبيبي!» وكان قلبي (أيدهشك أن أتحدث عن قلبي ؟) كان قلبي موشكاً أن ينفجر ، وبلغت شفتي ألفاظ حائرة... ولكني لم أعرف من أين أبدأ ، وتساءلت عما ستفهمه من كلامي ، فصمت ، والصمت ملاذ موطأ ألجأ إليه في كل حين .

ونزلت نحو رصيف الحديقة ، وكانت بعض الأشجار المثمرة الفتية تبدو خيالاً فوق الكروم ، وكتف الهضاب ترفع الضبابة وتمزقها ، فيولد من الغيوم ناقوس كنيسة ، ثم تخرج منها الكنيسة نفسها كجسم حي... إنك تتخيلين أني ما فهمت قط شيئاً من هذه الأمور ؛ ومع ذلك فقد كنت أشعر في تلك اللحظة أن مخلوقاً محطماً كالذي كنته يستطيع أن يبحث عن سبب إخفاقه ومعناه ، وأن هذا الاخفاق قد يكون ذا دلالة ، وأن الحوادث ، وبخاصة حوادث القلب ، ربما كانت نذارات يجب أن يتأول سرها... أجل لقد استطعت ، في ساعات من حياتي ، أن أتوجس هذه الأمور التي كان من شأنها أن تقربني منك!

على أن تلك ، في ذلك الصباح ، كانت ولا بد هزة ثوان قصيرة . فما أزال أراني الآن صاعداً في عودتي نحو المنزل ، والشمس ثقيلة الوطء مع أن الساعة لما تبلغ الثامنة ، وأنت في النافذة محنية الرأس ، ممسكة شعرك بإحدى يديك تسرحينه بالأخرى . وكنت لا ترينني ، فظللت برهة مرفوع الرأس نحوك ، فريسة حقد أحسب أني ما أزال ، بعد كل هذه السنين ، أحس بمرارته في حلقي .

وركضت إلى مكتبي ، ففتحت الجارور المغلق بالمفتاح ، وأخرجت منه منديلاً صغيراً متقبضاً ، هو ذلك المنديل الذي استخدمته في مسح دموعك ، في أمسية سوبربانيير ، والذي جعلته فوق صدري أنا الأحمق التعس . وأخذت هذا المنديل ، فربطت به حجرة ، فعلى بكلب حي أريد إغراقه ، ورميته في ذلك الغدير الذي يدعونه عندنا «الجوتيو» .

٥

إذ ذاك انفتح عهد الصمت الكبير ، الذي لم يكد ينقطع بعدها منذ أربعين عاماً . ولم يبد شيء في ظاهر هذا الانهيار ، بل استمرت الحالة كما كانت عهد سعادتي ؛ وظللنا على سابق اتحادنا الجسدي ، ولكن شبح رودولف لم يولد قط بعدها من عناقنا ولا لفظت قط بعدها اسمه الرهيب . وكان قد أقبل حين ناديته ، فحام من حول سريرنا وأتم عمله التمهيدي . ثم لم يبق بعد ذلك إلا الصمت ، وإلا انتظار تتابع الأسباب الكثيرة وتسلسل العواقب .

ولعلك كنت تشعرين بخطئك أن تكلمت . لم تري كل ما في ذلك من خطر ، ولكنك فكرت أن الصواب في طرد هذا الاسم من أحاديثنا . ولا أدري أأنتبهت إلى أننا ، في الليل ، لم نعد قط نتحدث كسابق العهد . كانت قد انتهت أحاديثنا الطويلة ، فما نقول إلا المدبر المحسوب ، وكان كلانا شديد الاحتراس .

وكنت أصحو في وسط الليل ، يوقظني عذابي ، مرتبطاً بك ارتباط الثعلب بالشرك ، أتخيل الأحاديث التي كنا تبادلناها لو أني هززتك في عنف ، وقذفت بك من على السرير . إذن لصحت : «لا ، لم أكذبك القول ؛ فما دمت أحبك...» ولأجبت : «نعم ، حبك شرٌ لا مفر منه ، ولأن من اليسير

في كل حين أن يلجأ المرء إلى الرعشة الجسدية التي لا تعني شيئاً ليقنع الآخر أنه يحبه . ما أنا بغول ، ولقد كان في وسع فتاة أحبتني أن تخلق مني ما يرضيها » . وكنت أحياناً أتنهد في الظلمات ، فلا تستيقظين .

على أن كل المناقشات أصبحت بلا جدوى منذ أن حبلت أول مرة : لقد بدت عليك علائم الحمل قبل القطاف ، فعدنا إلى المدينة ، وأسقطت جنينك ، واضطررت إلى لزوم الفراش بضعة أسابيع . وفي الربيع غدوت حبلى مرة ثانية ، فكان لا بد من مداراتك ، ومنذ ذلك بدأت سنوات الحبل ، والحوادث ، والولادة ، التي وفرت لي المعاذير للابتعاد عنك . واستغرقتني حياة خفية الاضطراب ، جد خفية ، لأني بدأت أكثر من المرافعات ، وانغمست «في شغلي» كما كانت تقول أمي ، وكان عليّ أن أنقذ المظاهر . كانت لي مواعيدي الخاصة ، وعاداتي لأن الحياة في مدينة ريفية تنمي لدى الفاسق غريزة المكر لدى القنص الطريد . واطمئني ، فسأعفيك مما تكرهين ، فلا تخشي البتة أن أصور لك هذا الجحيم الذي كنت أنزل إليه كل يوم تقريباً . لقد قذفت بي إليه ، أنت التي كنت اجتذبتني منه .

وهبيني كنت أقل احتراساً في مغامراتي ، فما كنت لتدركي شيئاً من الأمر . فلقد كشفت منذ ولادة هوبير عن طبيعتك الحقيقية : كنت أماً ، ولم تكوني شيئاً غير أم . وولى انتباهك عني ، فما كنت ترينني أبداً بعد ، وما كان لك عينان إلا لتنظري بهما الأطفال . لقد كنت أتممت ، إذ نكحتك ، ما كنت تنتظرينه مني .

ولم ينشأ بيننا أي نزاع طوال الفترة التي ظل فيها الأطفال ديداناً لا ألقي إليها بالاً ، فما كنا نلتقي إلا في تلك الحركات الآلية التي يمارسها الجسمان بالاعتياد ، والتي يكون فيها الرجل والمرأة من جسميهما على ألف ميل .

وما بدأت تنتبهين إلى وجودي إلا حين جعلت أنا أيضاً أدور حول هؤلاء الصغار ؛ ولا بدأت تكرهينني إلا حين زعمت أن لي أنا أيضاً حقوقاً عليهم . ولينشرح صدرك لهذا الاعتراف الذي أجرؤ عليه : لم تكن غريزة الأبوة هي التي تدفعني إلى ذلك ، لا ، ولكني حسدتك على هذا الهوى الذي ابتعثوه في نفسك ، فأردت أخذهم عقاباً لك ، وخلقت لنفسي دوافع نبيلة في رأسها ما يقتضي الواجب ، فما كنت أرتضي لفكر أبنائي أن تفسده امرأة مفرطة في عباداتها ، تلك هي المعاذير التي كنت أتعلل بها ، ولكنها كانت معاذير .

ألا انتهيت من هذه القصة ؟ لقد بدأتها من أجلك ، وهأنذا لا أرى معقولاً أن تطيقي الاستمرار في متابعتي ، وفي الحق أني من أجل نفسي أكتب . أنا محامٍ قديم ، أنظم ملف قضيتي ، وأصنف وثائق حياتي ، هذه الدعوة الخاسرة... ها هي ذي النواقيس تقرع ، وغداً عيد الفصح . سأنزل إجلالاً لهذا اليوم المقدس ، كما وعدتك . فقد كنت تقولين لي هذا الصباح : «الأولاد يشكون من أنهم لا يرونك» . وكانت معك جنفييف ؛ واقفة قرب سريري ، فخرجت لتظل وحدها معي ، إذ كان لديها ما تطلبه ، وكنت سمعتكما تتهامسان في الممر ، فتقولين لها : «من الأفضل أن تكلميه أنت أول مرة» . ولا ريب أنه أمر يتعلق بصهرها فيلي ، هذا المتعطل السكير . ولكني غدوت من القوة بحيث لا أستطيع أبداً أن أصرف الحديث كما أشاء ، وأمنع الأمر أن يكون موضع بحث ، فخرجت جنفييف مدحورة لم تستطع أن تقول كلمة . وأعرف ما تريد ، فلقد سمعت اليوم كل شيء ؛ إذ ليس عليّ ، حين تكون نافذة القاعة مفتوحة تحت نافذتي ، إلا أن أنحني قليلاً... إنكم ترومون أن أقرض فيلي رأس المال الذي يحتاج إليه ليشتري وظيفة سمسار ، وتزعمون أنها كغيرها تجارة رابحة... وكأني لم أر الخطر المقبل ، كأن ليس ينبغي الآن أن يحفظ الانسان ماله في الصندوق!... لو يدرون كل ما جنيته من ربح ، في الشهر الماضي ، وقد تنسمت هبوط السوق!...

ـ وحتى إذا مات ، فسيظل يلعب بكم كما يشاء!

وكانت جنفييف مصعوقة تحتج ، متخيلة أني كنت شديد الانزعاج لهذا اللقب الساخر . ولكن شباب فيلي هو وحده ما أكره . أنّى لها أن تتصور كل ما يمثله ، في عيني عجوز بغيض يائس . هذا الفتى النضر الذي ثمل منذ حداثته بما لم أذقه مرة واحدة خلال نصف قرن من حياتي ؟ إني أبغض الشبان ، أمقتهم ، وأمقت هذا على وجه خاص . لقد دخل بيتي يتلصص كما يدخل القط خلسة من النافذة ، إذا جذبته رائحة الطعام . لم تأته حفيدتي ببائنة كبيرة ، ولكنها كانت ، قبالة ذلك ، موضع «آمال كبيرة» . يا لآمال أبنائنا! إنهم لا يجنونها إلا إذا مشوا على أجسامنا .

وكانت جنفييف تتمخط وتمسح دموعها ، فقلت لها بلهجة ذات مغزى .

ـ ولكن لك زوجاً ، زوجاً غنياً طيب القلب ، فليس عليه إلا أن يدبر مركزاً لصهره . لِمَ أكون أكثر منكم إسراعاً في الكرم ؟ .

فبدلت من لهجتها لتحدثني عن ألفريد المسكين . أي احتقار في لهجتها هذه وأي اشمئزاز إذا سمعتها بدا لك ألفريد رجل وساوس لا ينفك يضيق دائرة أعماله ، بحيث لم يعد متجره ، هذا الذي كان في الماضي عظيم الشهرة ، يتسع لاثنين .

فهنأتها على أن قيض الله لها زوجاً من هذا النوع ؛ اذ يجب على المرء ان يطوي شراعه اذا دنا الاعصار ؛ وقلت لها إن المستقبل لمحدودي الأفق ، أمثال ألفريد ؛ وإن ضيق الجناح هو اليوم أول المزايا في العمل التجاري . وقد حسبتني أسخر ، مع أن ذلك رأيي الصادق ـ أنا الذي أحبس على مالي في الصندوق ولا أغامر به حتى في صندوق التوفير .

وكنا نصعد نحو المنزل ، وقد انعدمت جرأة جنفييف ولم أعد أتكئ على ذراعها . وكانت الأسرة جالسة في شكل دائرة ، تنظر إلينا قادمين وتتأول

ما تراه من علائم الشؤم . وكان جلياً أن عودتنا قطعت نقاشاً بين أسرة هوبير وأسرة جنفييف . آه ما أروعها معركة حول كنوزي لو ارتضيت النزول لهم عنها! وكان فيلي واقفاً وحده ، والريح تعبث بشعره الثائر ، وقميصه المفتوح قصير الأكمام . إني أمقت أبناء هذا الجيل ، وبناته الرياضيات ، وقد احمرت وجنتاه النضرتان حين أجبت على هذا السؤال الأبله : «إيه ، أتحدثنا ؟» بقولي في رقة : «تحدثنا عن تمساح عجوز...» .

وأؤكد لك مرة أخرى أني لست من أجل هذه السبة أكرهه . إنهم لا يعرفون ما الشيخوخة . إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا هذا العذاب : عذاب امرئ لم يمتع بشيء في حياته ولا يأمل شيئاً وراء موته ، عذاب هرم يعتقد أن ليس وراء هذا العالم شيء ، أن ليس من تفسير ، أنا لن نعرف الدهر كلمة السر... أما أنت فلم تتألمي ما تألمت ولن تتألمي ما أتألم . وأولادك لا ينتظرون موتك ، بل يحبونك على طريقتهم ، ويودونك . بل هم انحازوا إليك منذ البدء . ولقد كنت أحبهم : فأنا أذكر جنفييف ، هذه الأربعينية البدينة التي كانت منذ برهة تحاول أن تسلبني أربعمائة ورقة من ذوات الألف من أجل صهرها الكريه ، أذكرها طفلة على ركبتي ، فما أن ترينها بين يدي حتى تناديها... ولكني لن أصل العمر إلى آخر هذه النجوى إذا ظللت أخلط الحاضر بالماضي . فلأحاول أن أدخل على ذلك بعض النظام .

٦

لا يبدو لي أني أبغضتك منذ السنة الأولى التي أعقبت تلك الليلة المشؤومة . فلقد نشأ بغضي نشأة تدريجية ، مساوقة لتكامل شعوري بأنك لم تكوني تبالينني ، وبأن عينيك لم تكونا تريان في البيت إلا تلك المخلوقات الصغيرة ، النابحة النهمة . بل كنت لا تدركين أني ، وأنا بعد دون الثلاثين ، كنت قد غدوت محامياً مثقلاً بالدعاوى ، معدوداً بين الأساتذة الشباب في هذه المنطقة ، أشهر مناطق فرنسا القضائية بعد باريس . بل لقد رأى فيّ الناس ، منذ دعوى فيلناف (١٨٩٣) ، محامياً كبيراً في الجنائيات أيضاً (وقلما مهر محامٍ في الفرعين معاً) ، وأنت وحدك لم تشعري بالصدى العالمي الذي كان لمرافعتي . وكانت تلك أيضاً هي السنة التي انقلبت فيها خصامنا حرباً معلنة .

ولئن كانت قضية فيلناف الشهيرة هذه قد ثبتت أقدام مجدي ، فلقد شددت الخناق علي : إذ كان ما يزال في نفسي بعض الأمل ، فحملت إليّ البرهان على أني حذفت من حياتك .

كان فيلناف وزوجته ، ـ ألا ذكرت قصتهما على الأقل ؟ ـ ما يزالان بعد عشرين عاماً من زواجهما يتحابان محبة غدت مضرب المثل ، فقال الناس : «وحدة آل فيلناف!» وكانا يعيشان ، ومعهما ابن وحيد في الخامسة عشرة ،

في قصر أورنون عند أبواب المدينة ، لا يستقبلان إلا قليلاً من الضيوف ، ويكتفيان أحدهما بالآخر . وكانت أمك تقول ، في واحدة من هذه الجمل المجهزة التي ورثت سرها عنها حفيدتها جنفييف : «حب لا ترى مثله إلا في الكتب»... وأقسم أنك قد نسيت من هذه المأساة كل شيء ؛ فإذا رويتها لك فستهزئين بي ، فعلك حين كنت أستعيد ، على المائدة ، ذكريات امتحاناتي ومسابقاتي... ولكن لابأس! ففي ذات صباح ، كان الخادم ينظف حجرات الدور الأرضي ، فسمع في الدور الأول صوت طلقة من مسدس ، وصيحة مكتومة . فصعد مسرعاً فإذا غرفة سيديه موصدة ، ولكنه سمع أصواتاً مغضوضة ، وصدى نقل بعض الأثاث ، وخطوات عجلى في غرفة الزينة . وكان ما يزال يهز المزلاج فانفتح بعد لحظة ؛ فرأى فيلناف ممدداً على السرير ، في قميصه ، سابحاً في الدم ، بينا زوجه محلولة الشعر ، ترتدي مبذلها وتقف عند قدمي السرير وفي يدها مسدس . وقالت له : «لقد جرحت مسيو دو فيلناف ؛ فادع الطبيب والجراح ومفتش الشرطة . أسرع إني لن أتحرك من هنا» . ولم يستطع أحد أن يحصل منها على أكثر من هذا الاعتراف : «لقد جرحت زوجي» الذي أيده مسيو دو فيلناف حين أصبح قادراً على الكلام ، ورفض هو نفسه أن يدلي بأي تفصيل آخر .

وأبت المتهمة أن تنتخب محامياً لها ، فكلفت بالدفاع عنها بوصفي صهراً لأحد أصدقاء الأسرة ، ولكني في زياراتي اليومية لهذه العنيدة في سجنها لم أغنم منها شيئاً جديداً . وكانت تذيع حولها في المدينة أغرب الشائعات ؛ أما أنا فمنذ اليوم الأول لم أشك في براءتها ؛ لقد كانت تتهم نفسها وزوجها الذي يحبها كان يرتضي هذا الاتهام . آه ما أمهر غير المحبوبين بين الرجال في استجلاء الحب لدى الآخرين! كان حب هذه المرأة لزوجها يمتلكها جميعاً ، فهي لم تطلق عليه الرصاص . أتراها جعلت من جسمها درءاً له تجاه مراود صدقته ؟ لا ، فما دخل المنزل أحد منذ العشية ،

ولم يكن هناك أحد يكثر من التردد إلى البيت... أفّ! لا تنتظري مني أن أروي لك كل هذه القصة القديمة...

المهم هو أني ، حتى صباح اليوم الذي كان عليّ أن ألقي فيه دفاعي ، ظللت معتزماً أن أقف موقفاً سلبياً وأن أكتفي بالبرهان على أن مدام فيلناف كانت بعيدة كل البعد عن إتيان مثل هذه الجريمة التي تتهم نفسها بها . ولكن في اللحظة الأخيرة ، أتت شهادة ابنها الصغير إيف ، أو على الأصح (إذ أن هذه الشهادة كانت تافهة ولم تلق على الأمر أي ضوء جديد) أتت نظرتها الضارعة العاتِبة التي كانت تغمره بها إلى أن غادر منصة الشهود ، ثم الارتياح الذي بدا على وجهها حينذاك ، وذلك ما كشف أمامي الحجب ، فاتهمت الابن ، هذا المراهق المريض ، الذي ينفس على أبيه مكانه من قلب أمه ؛ وانغمرت ، عنيف المنطق ، في هذه المرافعة المرتجلة التي أصبحت اليوم شهيرة ، والتي يعترف الأستاذ ف... أنه وجد فيها بذور أساس نظريته ، والتي جددت في وقت واحد دراسة نفسية المراهق وعلاجها الطبي .

ولئن استعدت الآن هذه الذكرى ، يا إيزا العزيزة ، فما أرجو من ورائها أن أوقظ في نفسك ، بعد أربعين عاماً ، إعجاباً لم تشعري به يوم ظفري ، يوم نشرت صورتي صحف العالمين ، في الوقت الذي كنت فيه أقيس عزلتي الموحشة باهمالك ونسيانك ، كانت أمام عيني ، مدى أسابيع ، بين جدران السجن الأربعة ، هذه المرأة التي تضحي بنفسها لا من أجل ابنها هي بل لإنقاذ ابن زوجها ووارث اسمه . لقد قال لها ، هو الضحية : «اتهمي نفسك...» فبلغ من حبها له أن أقنعت العالم أنها المجرمة ، وأنها قاتلة الرجل الذي كانت تحبه وحده . حبها لزوجها ، لا حبها لابنها ، هو الذي دفعها إلى ذلك... (ودليلي ما حدث من بعد : إذ انفصلت عن ابنها وعاشت أبداً بعيدة عنه ، متعذرة بمختلف الأسباب) . لقد كان يمكن أن أكون . مثل فيلناف

رجلاً محبوباً . وقد رأيته هو أيضاً أثناء النظر في القضية : بم كان يمتاز مني ؟ كان جميلاً بلا ريب ، ولكن لا يبدو أنه كان كثير الذكاء ، وقد دل على ذلك موقفه مني بعد الدعوى . أما أنا فكنت عبقرية . ولو مررت حينذاك بامرأة أحبتني لما وقف صعودي عند حد ؛ ولكن المرء لا يستطيع وحده الاحتفاظ بايمانه بنفسه ؛ ونحن أبداً في حاجة إلى شاهد على قوتنا : شاهد يعد لنا الضربات الموفقة ، ويضع لنا درجات النجاح . ثم يتوجنا يوم الظفر ، ـ مثلي يوم كنت ، في سابق العهد ، مثقلاً بالكتب في حفلة توزيع الجوائز ، أبحث بعيني عن أمي بين الناس ، لتكلل رأسي ، على نغم موسيقا عسكرية ، بغار ذهبي .

ولقد بدأت أمي ، أيام قضية فيلناف تفقد قواها ؛ ولم أعرف ذلك إلا بصورة تدريجية ، وكانت أولى أمارات ضعفها العقلي أن جعلت تهتم بكلب صغير أسود ، كان يشتد عواؤه إذا ما اقتربت . فلم يكن لها من حديث ، لدى كل زيارة ، إلا عن هذا الكلب ، ولا كانت تصغي إلا إلى ما أقوله عنه .

وبعد ، فما كان في طوق أمي أن تعوضني من الحب الذي كان أنقذني في هذا المنعطف من حياتي . كانت نقيصتها أنها شديدة الحب للمال ، فأورثتنيها ، وخالط دمي هذا الحرص . ولو استطاعت لبذلت كل جهودها لابقائي في حرفة كانت ، كما تقول ، «ضخمة الكسب» . فعلى الرغم من أن الأدب كان يجتذبني ، وأني كنت أتلقى الدعوات المغرية للكتابة في الصحف وفي كل المجلات الكبرى وأن أحزاب الشمال عرضت أن ترشحني للنيابة في دائرة لاباستيد (وقد انتخب الذي قبل ذلك مكاني دون صعوبة) ، فقد قاومت مطامحي كلها لأني كنت لا أريد التنازل عن «الكسب الضخم»

وتلك كانت رغبتك أيضاً ، فقد أفهمتني أنك لن ترتضي أبداً ترك الريف ، ولو كنت امرأة تحبني لسعيت إلى مجدي ، ولعلمتني أن فن الحياة

يقوم على التضحية بالهوى الوضيع من أجل هوى أسمى . وأولئك السخفاء من الصحفيين ، الذين يتظاهرون بالاشمئزاز لأن محامياً يستفيد من كونه نائباً أو وزيراً في تسقط تافه المنافع ، يحسنون صنعاً لو شاءوا بسلوك أولئك الذين استطاعوا أن يقيموا بين أهوائهم تسلسلاً متزناً حكيماً ، والذين فضّلوا المجد السياسي على أكثر الدعاوى ربحاً . فالعاهة التي كنت أنقذتني منها ، لو أنك أحببتني ، هي أني لا أرى شيئاً فوق الربح الآني ، وأني عاجز عن ترك صيد الأجور التافهة إلى حيث ظل القوة ، إذ لا ظل بلا حقيقة ، بل الظل حقيقة... لم يكن لي إلا هذا العزاء : أن أكون «ضخم الكسب» كبقال الزاوية .

ذلك ما تبقى لي : المال الذي ربحته خلال هذه الأعوام البغيضة ، هذا المال الذي بلغ بكم الجنون أن ابتغيتم سلبه مني . وما أطيق حتى مجرد التفكير في تمتعكم به بعد موتي . لقد قلت لك في البداية إني كنت أعددت العدة لكيلا يبقى لكم منه شيء ، ثم لمحت إلى أني رجعت عن هذا الانتقام... ولكن في هذا تجاهلاً لحركة المد والجزر التي هي حركة الحقد في قلبي ، تبتعد حيناً فأرق ، ثم تعود فتغمرني هذه الموجة الوحلة...

فمنذ هذه الساعة ، منذ هذا اليوم ، يوم الفصح ، وبعد هذه الغزوة من أجل سلبي ما يفيد صاحبكم فيلي ، ومنذ رأيت الباب في عودتي حلقة هذه الأسرة الضارية جالسة كلها في دائرة أمام الباب تتربص بي – تلح على ذهني صورة تقاسم التركة ، هذا التقاسم الذي سيرمي بعضكم في وجه بعض ، لأنكم ستقتتلون كالكلاب حول أراضيي وحول أسهمي . وستكون لكم الأراضي ، أما الأسهم فلم يعد لها وجود ، وتلك التي تحدثت عنها في الصفحة الأولى من هذه الرسالة قد بعتها في الأسبوع الماضي بأعلى الأسعار ، ومنذ ذلك الحين ما تزال السوق في هبوط . كل المراكب تغرق إذا ما

تركتها ، وما أخطئ قط . أما الملايين من المال فستكون لكم أيضاً ، ستكون لكم إذا أردت . ولكني في بعض الأيام أقرر ألا تنالوا منها فلساً...

هأنذا أسمع قطيعكم الهامس يصعد السلم . إنكم تقفون ، وتتحدثون دونما خشية من تيقظي ؛ لأن المفروض أني أصم . ومن تحت الباب أرى ضوء شمعاتكم ، وأتعرف صوت فيلي الحاد ، كأنه ما يزال في المراهقة ؛ ثم أسمع فجأة ضحكات مكتومة ، هي نقنقة ابنتينا ، فتوبخينهما وتقولين لهما : «أؤكد لكما أنه غير نائم...» وتقتربين من بابي ، وتصيخين السمع ، ثم تنظرين من ثقب القفل فيفضحني مصباحي ، فتعودين نحو القطيع وتقولين لهم هامسة : «إنه ما يزال ساهراً ، يصغي...» .

ويبتعدون على أطراف أقدامهم ، وتطقطق درجات السلم ، ثم يغلق الباب بعد الباب . إنها ليلة الفصح ، والمنزل مليء بالأزواج وكان يمكن أن أكون الجذع الحي لكل هذه الأغصان الطرية . أكثر الآباء محبوبون ، أما أنا فلقد كنتِ عدوتي وانحاز أبنائي إلى العدو .

إلى هذه الحرب أصل الآن . لم أعد أملك قوة للكتابة ، ولكني أكره أن أضطجع وأن أتمدد ، حتى تسمح لي بذلك ؛ حال قلبي ، ففي سني يجذب النوم انتباه الموت ، فما ينبغي أن أكون في وضع الميت . ويبدو لي أن الموت ، ما ظللت واقفاً ، لن يملك القدرة على المجيء . أيكون ما أخشاه منه هو الألم الجسدي ، وغصة الشهقة الأخيرة ؟ لا ، ما أخشاه هو ان الموت انعدام ، هو أنه تستحيل ترجمته إلا باشارة ـ .

٧

ظلت عداوتنا مستترة ما بقي أولادنا الثلاثة في قماط الطفولة الأولى . كان الجو عندنا مثقلاً بالغيوم ؛ ولكن عدم اهتمامك ، وانكارك كل ما يتصل بي كانا يجعلانك لا تألمين لهذا الثقل ، بل لا تشعرين به . ثم إني كنت خارج المنزل باستمرار . كنت أفطر وحدي في الساعة الحادية عشرة لأبلغ قصر العدل قبل الظهر . ثم تستغرقني القضايا ، وأنت تذكرين كيف كنت أصرف نتفة الوقت التي كنت أستطيع قضاءها مع أسرتي . فلِمَ هذا الفسق البشع في بساطته ، المعرّى من كل ما يحيط به عادة من مبررات ، المردود إلى القبح الخالص ، لا ظل فيه لعاطفة ، ولا موضع فيه لحنان كاذب ؟ لقد كان يسيراً عليّ أن أتمتع بتلك المغامرات التي يعجب بها الناس ، فكل محام في مثل سني يمر به عدد من المغريات ، وكثير من النساء من كان يطيب لهن تناسي حرفتي وايقاظ العاطفة الكامنة فيّ... ولكني كنت قد فقدت الايمان بهؤلاء المخلوقات أو ـ على الأصح ـ بقدرتي على استهواء أي منهن . فكنت من النظرة الأولى استشف الدافع الذي يحرك أولئك اللواتي تناديني عيونهن ، فينفرني منهن ما وقر في نفسي من أنهن جميعاً يبحثن عن عمل أو عشيق . ولم لا أعترف بأني لم أكن تعيس الايمان بأني امرؤ لا يحب ، فحسب ، بل كنت أيضاً ذلك الغني الشحيح الذي يشفق أن يخدع

وأن يستثمر . أما أنت فكان لك مبلغ معين من المال في الشهر ، مبلغ كاف لا تتجاوزينه ، وتعرفين أنك لن تنالي فلساً زيادة عليه . وأما الأخريات!... لقد كنت من هؤلاء الحمقى الذين يعتقدون أن النساء إما محبات مجردات ، وإما جشعات لا يطلبن سوى المال ؛ كأن لم يكن الحب لدى النساء مساوقاً في الغالب لحاجتهن إلى العون ، والحماية ، والدلال... والآن ، في الثامنة والستين من عمري ، أرى في جلاء مفزع كل ما رددته من لهو ، لا فضيلة ولكن احتراساً وشحاً . كانت علاقاتي بالنساء لا تكاد تبدأ حتى تنفصم ؛ إما لأن فكري المستريب يسيء تأول أبرأ المطالب ، وإما لأني أتبغض إليهن بما تعرفينه لي من الولع بالمساومة في المطعم أو مع سائق العربة حول الأجر . فأنا أحب أن أكون على بينة مما يجب أن أدفع . أحب أن يذكر على كل شيء ثمنه المحدد . ولأعترف لك بهذه المخزاة : لعل ما كان يعجبني في الزنا أنه كان محدد الأجر . فأي صلة يمكن أن تقوم ، لدى رجل مثلي ، بين هوى القلب ولذة الجسد ؟ أما ميول القلب فما تصورت قط أنها يمكن أن تروى ، فكنت أخنقها أول ما تولد . وقد أصبحت أستاذاً في فن تحطيم كل عاطفة ، في اللحظة التي تقوم فيها الارادة بدور حاسم في الحب ، والتي نكون فيها ـ ونحن على حافة الهوى ـ أحراراً في الانزلاق أو التراجع . فكنت أنتقي أبسط الأمور ، أنتقي ما يمكن اقتناؤه بالثمن المحدد . وأنا أكره أن أغشى ، ولكني أدفع ما علي . ولئن افتضح بخلي لديكم فهذا لا يمنع أني لا أطيق أن أكون مديناً ، بل أدفع نقداً كل ما عليّ ، وعملائي يعرفون لي هذا ويحمدونه لي . هكذا فهمت أنا «الحب» : خذ وادفع... يا للبشاعة! .

لا ، إني لأزيد الهول ، وأوسخ نفسي بيدي : فلقد أحببت ، بل لعلي أحببت... كان ذلك عام ١٩٠٩ ، في غروب شبابي . وما جدوى السكوت عن هذه المغامرة ، وأنت قد علمت بها وعرفت كيف تذكرينها خيرتني بينها وبينك ؟

كنت قد أنقذت هذه المعلمة الصغيرة في التحقيق (إذ كانت متهمة بقتل ابنها) ، فمنحتني جسدها أول الأمر عرفاناً لجميلي ، ولكن فيما بعد... أجل ، أجل ، لقد عرفت الحب ذلك العام ؛ وما أفسد كل شيء إلا لحاجتي في التطلب . لم يكفني أن أدعها في البؤس والعيش الضنك ، بل كنت أريد أن تكون أبداً في متناول يدي ، ألا ترى أحداً غيري ، أن أستطيع أخذها وإهمالها ، أن أجدها حين تشاء ذلك نزواتي في ساعات فراغي النادرة . كانت ملكي ؛ إذ أن حبي الامتلاك ، والاستعمال ، وإساءة الاستعمال ، يمتد إلى البشر . إني في حاجة إلى عبيد . وفي تلك المرة الوحيدة ، حسبت أني لقيت الضحية المبتغاة ، وأنها كانت على قياس حاجتي ، فكنت أراقبها حتى في نظراتها... ولكني نسيت وعدي ألا أحدثك بهذه الأمور . لقد سافرت إلى باريس بعد أن نفدت طاقتها على الاحتمال...

ولطالما كررت لي : «لسنا الوحيدين الذين لا تستطيع التفاهم معهم . كل الناس يخشونك ويهربون منك . إنك ترى ذلك بعينيك!...» أجل . كنت أرى ذلك... ففي قصر العدل كنت أبداً وحدي ؛ وقد كنت آخر من انتخبوا لمجلس النقابة . وما كنت لأرضى أن أكون النقيب ، بعد كل الأغبياء الذين فضلوهم عليّ . وفي الحق لم أكن راغباً في ذلك . فعلى النقيب أن يمثل نقابته ، وأن يستقبل الناس ، وهذا منصب باهظ التكاليف تعلو خسارته على كسبه . أما أنت فكنت تريدين ذلك من أجل الأولاد ، وما رغبت قط شيئاً من أجلي . كنت تقولين : «إفعل ذلك إرضاء للأولاد...» .

وفي العام الذي أعقب زواجنا أصابت أباك نوبته الأولى ، فأغلق في وجهنا قصر سنيون فما لبثتِ أن تبنيتِ كاليز . وهكذا لم تقبلي مني حق القبول إلا أرضي . وفي أرضي امتدت جذورك دون أن يقدر لجذورنا التقاء . وفي هذا البيت وهذه الحديقة قضى أولادك كل إجازاتهم . وهنا أيضاً ماتت

صغيرتنا ماري ، فلم تكرهي الغرفة التي تعذبت فيها بل أسبغت عليها نعمة من القدسية . هنا حضنت البيوض ، وداويت المرضى ، وسهرت قرب الأسرة ، وجلبت الممرضات والمربيات . وبين أشجار التفاح هذه كانت الحبال المشدودة تحمل ثياب ماري وكل متاعها الأبيض . وفي هذه القاعة كان الأب أردوان يجمع الأولاد حول البيان ويدعوهم إلى إنشاد قصائد ليست كلها تسابيح ، تفادياً لغضبي .

وفي أماسي الصيف كنت أدخن لفافتي أمام المنزل . وأصغي إلى أصواتهم الصافية ، فأسمعهم ينشدون لحن لولي هذا : «تلك الحراش والصخور والعيون...» سعادة قريرة كنت أعرف أني مبعد عنها ، ومنطقة طهر وأحلام كانت حراماً عليّ . وحب هادئ ، وموجة ناعسة كانت تموت على خطوات من صخرتي .

فإذا دخلت القاعة خرست الأصوات وانقطع لدى اقترابي كل حديث ، وابتعدت جنفييف حاملة كتابها . كانوا جميعاً يخشونني إلا ماري ، فإذا ناديتها لبت النداء ، فحملتها بين ذراعي ، فلطت بهما راضية ، وسمعت خفقات قلبها الذي يشبه قلب العصفور . ثم ما أكاد أتركها حتى تطير إلى الحديقة... آه يا ماري! .

وما لبث الأولاد أن أقلقهم غيابي عن الصلاة ، وأكلي اللحم يوم الجمعة . ولكن النضال بيننا نحن الاثنين ، تحت أبصارهم ، لم يعرف إلا قليلاً من الفورات المزعجة ، كنت المغلوب في أكثرها . وكانت كل هزيمة تعقبها حرب خفية ، مسرحها كاليز ؛ لأني حين نكون في المدينة لم أكن أرى قط في البيت ، ولكن توافق إجازتي المحاكم والمدارس كان يجمعنا هنا في أغسطس وسبتمبر .

وأذكر ذلك اليوم الذي اصطدمنا فيه وجهاً لوجه (بمناسبة دعابة قلتها أمام جنفييف التي كانت تلقي درسها في التاريخ المقدس) : فقد ذكرت

حقي في الدفاع عن عقل أولادي ، فاحتججت بواجبك في حماية روحهم . وكنت قد انهزمت ، مرة أولى ، حين رضيت أن يعهد بهوبير إلى الآباء اليسوعيين وبالصغيرتين إلى «سيدات الساكريه كور» ، متأثراً في ذلك بالحرمة التي ظللت أبداً أرعاها لتقاليد آل فوندوديج . ولكني كنت في ظمأ إلى الانتقام ؛ وكان يهمني في ذلك اليوم أني وضعت اصبعي على الموضوع الوحيد الذي كان في وسعه أن يخرجك عن طورك ، على ما كان يضطرك إلى الالتفات إليّ ، ويكسبني انتباهك وإن كان انتباه عداء . لقد وجدت بذلك ، آخر الأمر ، موضعاً للتلاقي ، وحلبة أجبرك فيها على القتال . فمن قبل لم يكن لدى كفري بالدين إلا قالباً فارغاً صببت فيه مذلتي ، أنا الفلاح المغتني الذي يحتقره رفاقه البورجوازيون ، فأصبحت يومها أملأه بخيبة حبي وبغليّ الذي لا حد له .

وقد عاد الجدال فالتهب أثناء الطعام ، إذ سألتك عن الفرحة التي يمكن أن يستشعرها الكائن الأزلي حين يراك تأكلين السمك الأحمر بدلاً من لحم البقر المسلوق ، فغادرت المائدة . وأذكر الآن نظرة أولادنا حينذاك . فلحقت بك إلى غرفتك . كانت عيناك جافتين ، وكلمتني في كثير من الهدوء ففهمت ذلك اليوم أن إهمالك وجودي لم يبلغ المدى الذي كنت أظنه بالغه . فقد قلت لي إنك وضعت يدك على رسائل لي يمكن بفضلها أن يحكم لك بالتفريق ، ثم أضفت : «لقد بقيت معك من أجل الأولاد . ولكن إذا رأيت في وجودك شراً على روحهم فلن أتردد» .

أجل ، لم تكوني تترددين في تركي أنا وثروتي ؛ إذ كنت برغم حرصك تقبلين كل التضحيات كيما يظل سليماً ، في نفوس هؤلاء الصغار ، مستودع العقائد ، هذا المجموع من العادات والقوانين ، هذا الجنون .

وكنت لا أملك بعد رسالة السباب التي وجهتها إليّ بعد موت ماري ،

فكنت الغالبة ؛ يضاف إلى هذا أن مركزي كان يتعرض لخطر كبير لو أقمت عليّ الدعوى ؛ ففي ذلك العهد ، في الريف كان المجتمع لا يقبل التسامح في هذا الموضوع ؛ وكان قد شاع عني أني ماسوني ، وكانت أفكاري تضعني على هامش المجتمع ، ولولا مكانة أسرتك لأضرت بي أبلغ الضرر . وأهم ما في الأمر أنه كان عليّ في حال الانفصال أن أردّ إليك أسهم السويس التي تؤلف بائنتك أنا الذي تعودت أن أحسب هذه الثروة ملكاً لي ، فكنت أرتجف إذا فكرت أن عليّ التخلي عنها (بالاضافة إلى الدخل الذي كان يقدمه لنا أبوك...) .

وهكذا خضعت ، وأذعنت لكل ما تريدين ، ولكني قررت أن أخصص أوقات فراغي لاكتساب أولادي . كان ذلك في أول أغسطس ١٨٩٦ ، ولكن هذه الأصياف القديمة ، الكئيبة اللاهبة تختلط في فكري . فالذكريات التي أعيدها عليك هنا تمتد خلال حوالي خمس سنوات (١٨٩٥ ـ ١٩٠٠) .

ولم أكن أفكر أن من الصعب استردادي السلطة على أولادي متكلاً على مهابة أب الأسرة وعلى ذكائي ، معتقداً أن اجتذاب ولد في العاشرة وطفلتين لن يكون أشق من لعبة . وإني لأذكر دهشتهم وقلقهم حين عرضت عليهم القيام معي بنزهة كبيرة . كنت جالسة في فناء المنزل ، تحت الزيزفونة الفضية ، فسألوك الرأي بأعينهم ، فقلت :

ـ يا أبنائي الأعزاء ، ليس عليكم أن تستأذنوني .

ورحلنا . ولكن كيف يجب التحدث إلى الأطفال ؟ أنا الذي تعودت أن أقف في وجه المدعي العام ، أو في وجه محامي الدفاع حين أمثل الطرف المدني ، أنا الذي يخشاه الرئيس في محكمة الجنايات ، أنا يفزعني الأطفال ، الأطفال وأبناء الشعب أيضاً ، وحتى هؤلاء الفلاحون الذين ولدت فيهم . أمامهم تزل قدمي وأتلجلج .

كان الصغار لطافاً معي ، ولكن حذرين . إذ كنت قد احتللت من قبل هذه الأفئدة الثلاثة ، وبيدك كانت مفاتيحها ، فلا مجال لدخولها دون إذنك . وكنت من الوفاء للواجب بحيث لم تضع أبداً من قدري في أعينهم ، ولكنك لم تخفيهم أن عليهم أن يصلّوا كثيراً من أجل «أبيهم المسكين» . فكان لي مكاني ، الثابت برغم كل أعمالي ، في نظرتهم إلى العالم : كنت «الأب المسكين» الذي يجب أن يُصلى من أجله كثيراً والذي ينبغي ردّه إلى الدين . فكان كل ما أقوله أو ألمح به مما له صلة بالدين يعزز الصورة الساذجة التي يتخيلونها عني .

وكانوا يحيون في عالم سحري ، تتخلله أعياد يُحتفل بها في ورع . وكنت تنالين منهم ما تشائين بتحديثهم عن «المناولة الأولى» التي قاموا بها أو التي يتهيئون لها . فإذا ما أنشدوا في المساء أمام باب كاليز لم أكن أسمع باستمرار ألحان لولي وحدها ، بل مزيجاً من التراتيل . وكنت أرى من بعيد زمرتكم المختلطة ، وحين يضيء القمر أميز منها ثلاثة وجوه صغيرة ، مرفوعة إلى السماء . فإذا اقتربت قطعت الغناء خطاي على الحصباء .

وفي كل يوم أحد ، كانت توقظني ضجة الذاهبين إلى الصلاة . وكنت أبداً في خشية من أن تفوتك . وكانت الخيول تصهل ، والطاهية تتأخر فينادونها ، وأحد الأطفال ينسى كتاب صلواته فأعود لأخذه وأسمع صوتاً حاداً يسأل : «كم أحد مضى منذ العنصرة ؟» .

وحين يعودون كانوا يأتون فيقبلونني ، وأنا بعد في السرير . ولا ريب أن ماري الصغيرة كانت تتلو من أجلي كل ما تعلمته من صلوات ، إذ كانت تتأملني في انتباه ، رجاة أن تجد بعض التحسن في حالتي الروحية .

وكانت هي وحدها لا تضايقني . فبينا كان أخوها وأختها قد تربعا في العقائد التي كنت تعيشين بمقتضاها ، وفي هذا التطلب البورجوازي للعيش الرغد ، الذي جعلها فيما بعد كل فضائل المروءة وكل الجنة المسيحية

السامية ، كان في نفس ماري ، على العكس ، إيمان مؤثر وحدب على الخدم والعمال والفقراء . كان يقال عنها : « إنها لتعطي كل ما تملك ، فما تستطيع يدها أن تكنز المال... وهذا جميل جداً ، ولكنه يقتضي المراقبة... » وكان يقال أيضاً : «ما من أحد يرفض لها رغبة ، حتى أبوها » . وكانت في المساء تأتي من تلقاء ذاتها فتجلس على ركبتيّ . ولقد نامت مرة على كتفي ، وخصل شعرها تدغدغ وجهي ، وقد آلمني عدم الحركة وكانت بي رغبة في التدخين ، ومع ذلك لم أتحرك ، وحين أتت خادمتها في الساعة التاسعة لتأخذها صعدت بها حتى غرفتها ، وأنتم تنظرون إليّ جميعاً في ذهول المشدوه ، كأني كنت ذلك الوحش الضاري الذي يلحس أقدام ضحاياه الصغيرة . وبعد ذلك بأيام قليلة ، في صباح ١٤ أغسطس ، قالت لي ماري (وأنت تعرفين كيف يفعل الأطفال ذلك) :

ـ عدني أن تفعل ما سأطلبه منك... عدني أولاً ، ثم أقول لك...

وذكرتني أنك كنت ستنشدين في اليوم التالي ، في صلاة الساعة الحادية عشرة ، قائلة إن من الكياسة أن أذهب فأسمع نشيدك .

وكانت تكرر وهي تعانقني ، وقد اعتبرت قبلتي لها موافقة :

ـ لقد وعدت! لقد وعدت!

وذاع الخبر في البيت كله ، فرأيتني هدفاً لكل الأنظار ، إذ كان حادثاً بعيد الأثر أن أذهب إلى الصلاة في الغد ، أنا الذي لا أطأ أبداً بقدمي أرض الكنيسة .

وجلست إلى المائدة ، مساء ، في حال من التهيج لم أستطع إخفاءها طويلاً . وسألك هوبير سؤالاً حول قضية دريفوس ، وأذكر أني رددت في عنف على ما أجبته به ، وتركت المائدة ، ثم لم أخرج بعدها ذلك المساء . وأعددت حقيبتي ، وفي فجر ١٥ أغسطس ركبت قطار الساعة السادسة وقضيت نهاراً ثقيلاً في بوردو الخانقة المقفرة .

ولقد كان غريباً أن رأيتموني بعدها في كاليز . فلِمَ كنت أبداً أقضي إجازتي معكم بدلاً من أن أسافر ؟ في وسعي أن أتخيل لذلك أعذاراً مقنعة ، ولكن الواقع هو أني لم أكن أريد أن أتكلف مصروفاً مزدوجاً . وما خطر لي قط أن في الإمكان أن أسافر وأن أبذل المال الوفير دون إغلاق البيت . فلو سافرت لما نعمت بلذة في رحلاتي وأنا أعلم أني مخلف ورائي المائدة المشتركة . وكيف أذهب فآكل خارج كاليز وجرايتي فيها مهيئة ؟ تلك كانت روح الاقتصاد التي أورثتني إياها أمي والتي كنت أحسبها فضيلة .

عدت إذن ، ولكن في حال من الحقد لم تستطع ماري نفسها حيالها شيئاً . وبدأت في نضالي ضدك أسلوباً جديداً ، لا أجابه فيه معتقداتك ، بل أسعى جهدي في أبسط المناسبات كيما أجعلك في تناقض مع إيمانك . وأنت تعرفين ، يا إيزا المسكينة ، مهما كنت صادقة المسيحية ، أن المجال هنا كان رحباً أمامي . فلقد نسيت أن الاحسان مرادف للمحبة ، إذا كنت عرفت ذلك يوماً ما . فكانت هذه الكلمة تعني لديك عدداً من الواجبات نحو الفقراء ، كنت تقومين بها في دقة ، تهيأ لحياتك الأخرى . وأعترف أنك تبدلت كثيراً في هذا المجال : فأنت الآن ، مثلاً ، تعنين باللواتي أصابهن السرطان . هذا صحيح ، ولكنك في ذلك الحين كنت تقفين عند إعانة الفقراء ، ثم لا تتسامحين البتة في تطلب ما يجب لك على المخلوقات التي تعيش في خدمتك . فكنت لا تنسين أبداً أن واجب ربة البيت هو أن تحصل على أكثر ما يمكن من الخدمة بأقل ما يمكن من المال . وتلك العجوز المسكينة التي كانت تمر في الصباح مع عربتها المحملة بقولا ، والتي كنت توسعين عليها الصدقة لو مدت إليك يدها ، لم تكن تبيعك بعض بقولها إلا وقد بذلت جهدك لتنقصي دراهم قليلة من ربحها الهزيل .

وكنتِ إذا لمّح لك الخدم والعمال برغبتهم في أن تزيدي أجورهم ذهلت أول الأمر ، ثم غضبت غضبة كان عنفها يزيدك قوة ، ويكفل لك الكلمة

الأخيرة . فكنت تقولين لهم إن النعم التي يتمتعون بها لا تحصى : «لكم المسكن ، ولكم برميل خمر ، ونصف خنزير تطعمونه من عندي ، وحديقة تأتون منها بالبقول» ، حتى يغدو أولئك المساكين في بهر من كل هذا الغنى . وكنت تؤكدين أن فراشتك تستطيع أن تضع في صندوق التوفير كل الأربعين فرنكاً التي كانت تتقاضاها منك شهرياً : «لها كل أثوابي القديمة ، وكل مباذلي ، كل أحذيتي ، فما حاجتها إلى المال ؟ لو شاءت لأرسلت به كله هدايا إلى عائلتها...» .

على أنك كنت مخلصة العناية بهم إذا مرضوا ، لا تهملينهم أبداً ، وأعترف أنك على وجه العموم كنت أبداً محترمة ، بل محبوبة في الغالب ، لدى هؤلاء الناس الذين يحتقرون السيد الضعيف . وكانت أفكارك ، حول كل هذه المسائل ، أفكار بيئتك وعصرك ؛ ولكنك لم تصارحي قط نفسك أن الانجيل يرذل هذه الأفكار ؛ فكنت أقول : «عجيبة! كنت أحسب أن المسيح قال...» فيرتج عليك ، وتضطربين وتغضبين أمام الصغار ، ثم لا تلبثين أن تقعي في الفخ ، إذ تتمتمين : «لا يجب أن نتمسك بحرفية الكلام...» ، فإذا أنا سريع إلى إرهاقك بأمثلة تثبت أن القداسة الحقة تقوم على اتباع الانجيل في حرفيته . فإذا زلت قدمك وقلت إنك لست بقديسة ، تلوت عليك الآية : «كونوا كاملين كما أن أباكم السماويّ كامل» .

اعترفي ، يا إيزا المسكينة ، إني قدمت لك الخير على طريقتي ، وأني ذو الفضل في كونك أصبحت اليوم تعنين بالمصابين بالسرطان! ففي ذلك الحين كان حبك لأولادك يستغرقك جميعاً . كانوا يلتهمون ما لديك من طيبة وتضحية ، ويمنعونك أن ترى غيرهم من الناس فما ردوك عني وحدي بل عن كل من عداهم من البشر . وحتى الله لم تكوني تستطيعين تحدثيه إلا عن صحتهم ومستقبلهم . وكان المجال هنا رحبا أمامي . فكنت أسألك : ألا يجب عليك ، من وجهة النظر المسيحية ، أن تطلبي لهم جميعاً الصليب والفقر

والمرض ، فتقطعين الحديث بقولك : «لن أجيبك . أنك تتحدث عما لا تعرف...» .

ولكن كان من سوء حظك وجود مربي الأطفال ، الأب أردوان ، وهو راهب في الثالثة والعشرين من عمره ، كنت أسأله رأيه في إلحاح وأربكه إلى حد بعيد ، إذ لم أكن أدعوه إلى التدخل إلا إذا وثقت من أن الحق في جانبي ، وكان في مثل هذه المناقشات عاجز عن إخفاء فكرته . وقد اتسع المجال أمامي ألف مرة ، خلال تطور قضية دريفوس ، لكي أضعك وجهاً لوجه أمام هذا الأب المسكين . كنت تقولين : «إنهم يفسدون الجيش من أجل يهودي حقير...» فكانت هذه الكلمة وحدها تثير استيائي المصطنع . ثم لا أهدأ إلا وقد أجبرت الأب أردوان على الاعتراف بأن المسيحي الحق لا يرتضي الحكم على بريء ، ولو اقتضت ذلك سلامة الوطن .

على أني لم أكن أحاول إقناعكم ، أنت والأطفال ، فما كنتم تعرفون «القضية» إلا من أقوال الصحف المسيحية . وكنتم تؤلفون كتلة لا مجال للدخول فيها . فحتى حين كان يبدو أن الحق معي ، كنتم لا تشكون أبداً في أنها لعبة ماكرة . وكنتم إذا اقتربت قطعتم النقاش ، فعلكم اليوم . ولكنكم في بعض الأحيان لم تكونوا تعرفون أني مختبئ وراء كتلة من الشجيرات ، فكنت أتدخل بغتة قبل أن تستطيعوا التراجع وأجبركم على خوض المعركة . وكنت تقولين عن الأب أردوان :

- إنه شاب قديس ، ولكنه طفل بريء لا يؤمن بالشر . وزوجي يلعب به كما يلعب القط بالفأر . وهو من أجل هذا يطيق وجوده ، رغم كراهيته للثياب السود .

أما الواقع فهو أني كنت وافقت في البدء على وجود مرب ديني ، لأنه لم يكن هناك مرب مدني يرتضي مئة وخمسين فرنكاً أجراً له خلال كل إجازة الصيف . وفي الأيام الأولى بدا لي هذا الشاب الطويل ، الأسود الضعيف

البصر ، المتعتع في حياته ، مخلوقاً تافهاً لا شأن له ، فما كنت أهتم به أكثر من اهتمامي بقطعة من أثاث البيت . كان يعلم الأولاد ، ويخرج بهم إلى النزهة ، ويأكل قليلاً ، ولا ينبس بكلمة . وكان أحياناً إذا خلا المنزل جلس إلى البيان ، ولئن كنت لا أفهم شيئاً في الموسيقا فقد كان ، كما تقولين عنه ، «تستطاب أنغامه» .

وأنت بلا ريب لم تنس حادثاً لعله لم يخطر لك قط أنه خلق بين الأب أردوان وبيني تياراً خفياً من التعاطف . ففي ذات يوم أتبأنا الصغار بقدوم القس فهربت ـ على عادتي ـ جهة الكروم . ولكن هوبير لم يلبث أن لحقني ، مرسلاً من قبلك ، إذ كان لدى القس أمر مستعجل يريد أن يحدثني به . فعدت إلى المنزل أجدف ، إذ كنت شديد الخشية لهذا العجوز القصير . فلما وصلت قال لي إنه جاء يبرئ ذمته ، إذ كان قدم إلينا الأب أردوان على أنه رجل دين ممتاز أجل رفعه إلى درجة «الشماس» لأسباب صحية ؛ ولكنه اكتشف أخيراً ، خلل عزلته الكهنوتية ، أن هذا التأجيل يرجع في أسبابه إلى تدبير تأديبي : إذ كان الأب أردوان على صدق ورعه ، شديد الولوع بالموسيقا ، وقد أغراه أحد زملائه فغاب ليلة ليحضر ، في «الجران تياتر» ، حفلة موسيقية خيرية ، وقد عرفا وأبلغ أمرهما إلى الكنيسة برغم أنهما كانا في ثياب مدنية . وزاد هذه الفضيحة فحشا أن ممثلة تلك الليلة ، بقدميها العاريتين وغلالتها اليونانية التي يمسكها تحت الذراعين حزام فضي (ويقال إن هذا كل شيء ، فلم يكن يبدو حتى طرف أكتافها) فأثار مرأى ذلك صرخة استياء في القاعة . في مقصورة «الأونيون» هتف شيخ : «لقد أفرطوا... أين نحن ؟ » ذلك ما رآه الأب أردوان وزميله! وقد طرد أحد الآثمين لساعته ؛ أما الأب أردوان فعفى عنه ، إذ كان تلميذاً ممتازاً ، ولكن رؤساءه أخروا ترقيته عامين .

وقد أجبنا كلانا بأن الأب أردوان كان يتمتع بكامل ثقتنا ؛ ولكن هذا لم يمنع القس منذ ذلك الحين ، أن يعامله في كثير من الجفاء قائلاً إنه خدعه . إنك تذكرين هذا الحادث ، ولكن ما لم تعرفيه قط ، هو أني في ذلك المساء كنت أدخن أمام باب المنزل في ضوء القمر ، فرأيت الآثم يتجه نحوي بجسمه الهزيل الأسود . واقترب مني في اضطراب وسألني أن أغفر له دخوله منزلي دون أن ينبئني بذنبه . فلما أكدت له أن فراره جعله أدنى إلى قلبي ، اشتد موقفه واعترض وهاجم نفسه قائلاً إنه ليس في طوقي أن أدرك مدى اثمه : فلقد أخطأ تجاه الطاعة ، وتجاه موهبته ، وتجاه الأخلاق ، فكانت فضيحة لا يستكثر حياته كلها للتكفير عنها... وما أزال حتى الآن أذكر هذه القامة الطويلة المحنية ، وظلها الذي يقطعه في ضوء القمر حاجز الفناء .

ومهما كنت سيء الظن بمثل هؤلاء الناس ، فما بدا لي قط أن في كل هذا الخجل وهذا الألم شيئاً من الرياء . وكان يعتذر من صمته حيالنا بأنه لولا ذلك لاضطر إلى البقاء شهرين عالة على أمه الأرملة المعوزة ، التي كانت تعمل بأجر يومي في ليبورون فلما أجبته أنه في رأيي لم يكن في حاجة إلى إطلاعنا على حادثة يرجع الأمر فيها إلى نظام الكنيسة ، أمسك بيدي وقال لي هذه الكلمات العجيبة ، والتي كنت أسمعها للمرة الأولى في حياتي والتي سببت لي نوعاً من البهر :

ـ إنك طيب جداً .

وأنت تعرفين ضحكتي ، هذه الضحكة التي كانت تؤذي أعصابك حتى في بدء حياتنا المشتركة ، هذه الضحكة المنكمشة الحافية حتى لكانت لها في شبابي القوة على أن تقتل من حولي كل مرح . لقد كانت تهزني ، ذلك المساء ، أمام هذا الراهب الطويل المبهوت . وأخيراً استطعت أن أقول له :

ـ إنك لا تدرك ، يا حضرة الأب ، إلى أي مدى يضحك ما تقوله . سل من يعرفونني عن طيبتي ، سل عائلتي وزملائي : إن الخبث هو سر وجودي .

فأجاب في ارتباك إن الخبيث الحقيقي لا يحدث الناس عن خبثه . فقلت له :

ـ أراهن على أنك لن تجد في حياتي ما تسميه عملاً طيباً .

فتلا علي قول المسيح هذا ، مشيراً بذلك إلى حرفتي : « كنت سجيناً فأتيتم تزورونني... » .

فقلت :

ـ إني أجد في هذا نفعي ، يا حضرة الأب ، وما أعمل إلا لفائدتي الشخصية . بل لقد كنت في سابق العهد أرشي حراس السجن ليلفتوا إلى اسمي في الوقت الملائم سمع المساجين... هكذا ترى...

ـ ولست أذكر جوابه . كنا نمشي تحت الزيزفون ، وستكون دهشتك عظيمة إذا قلت لك إني كنت أجد بعض الراحة في رفقة هذا الرجل ذي الثوب الأسود! على أن هذا كان صحيحاً .

فقد كان يحدث أن أستيقظ مع الشمس فأخرج لاستنشاق نسمة الفجر الرطبة ؛ فكنت أنظر إلى الراهب ذاهباً إلى صلاته سريع الخطا ، جد مستغرق في خواطره حتى ليمر أحياناً على بضعة أمتار مني فلا يراني . كان ذلك عهد أن كنت أرهقك بسخريتي ، وأبذل وسعي لأجعلك في تناقض مع مبادئك... على أني لم أكن صادق القول : فكنت كلما أمسكتك في الجرم المشهود ، من بخل و قسوة ، أتظاهر بالاعتقاد بأن ليس فيكم جميعاً أثارة من روح المسيح ، برغم أني لم أكن أجهل أن رجلاً تحت سقفي كان يعيش وفق هذا الروح ، على غير علم منكم جميعاً .

٨

على أن هناك مناسبة لم يكن اشمئزازي منك فيها اشمئزازاً مصنوعاً . ففي العام ٩٦ أو ٩٧ ـ ولعلك تذكرين التاريخ الصحيح ـ مات صهرنا البارون فيليبو . وحين استيقظت أختك مارينيت في الصباح ، نادته فلم يجب . وفتحت النوافذ فرأت عيني العجوز جاحظتين ، وفكه الأسفل مائلاً ، ولبثت فترة قبل أن تفهم أنها كانت خلال ساعات نائمة إلى جانب جثة .

وما أظن أن واحداً منكم شعر بما في وصية هذا الشقي من حقارة : إذ ترك لامرأته كل ثروته الضخمة شريطة ألا تتزوج بعلاً آخر ، فإذا تزوجت عاد الشطر الأكبر منها إلى أبناء أخيه .

كانت أمك تردد :

ـ سيكون من الضروري أن نراقبها باستمرار . ومن حسن الحظ أننا أسرة متعاضدة . فلا يجب أن تترك وحدها ، هذه الصغيرة .

في ذلك العهد كانت مارينيت في حوالي الثلاثين ، ولكنك تذكرين أنها كانت أشبه بفتاة . وكانت قد ارتضت أن تتزوج هذا الشيخ ، واحتملته دون تمرد ، فما شككتم في أنها ستخضع في يسر لفروض الترمل ، إذ لم تحسبوا أي حساب لهزة التحرر ، هذا الخروج المباغت من النفق إلى وضح النور .

لا ، يا إيزا ، لا تخشي أن أسيء هنا استعمال حريتي في الكلام . لقد

كان من الطبيعي أن نتمنى بقاء تلك الملايين في الأسرة وأن يفيد منها أبناؤنا . وكان رأيكم أنه لا ينبغي لمارينيت أن تضيع ما جنته من عبوديتها خلال عشر سنوات لزوجها الشيخ . كنتم أسرة صالحة ، تعمل ما يفيدها ، فبدت لكم العزوبة أمراً جد طبيعي . وهل ذكرت حينذاك أنك كنت من عهد قريب زوجة شابة ؟ لا ، كان ذلك عهداً فات ، وكنت أماً ، أما ما خلا هذا فما عندك له شأن ، ولا عند الآخرين . لقد كانت أسرتك أسرة لا خيال لها ، فما كنتم تضعون أنفسكم موضع العجماوات ولا موضع الناس .

واتفقتم على أن تقضي مارينيت في كاليز الصيف الأول الذي أعقب إرمالها ، فرضيت فرحة ، لا لأن صلتكما كانت وثيقة ، بل لأنها كانت تحب أولادنا ، وبخاصة ماري الصغيرة . أما أنا ، وكنت لا أعرفها إلا قليلاً ، فقد جذبتني فتنتها أول الأمر ؛ فعلى أنها كانت تكبرك بعام ، كانت تبدو أصغر منك كثيراً ، وكأنما كنت ما تزالين مثقلة بالصغار الذين حملت بهم ، وكأنما خرجت بكراً من سرير ذلك الشيخ . وكان وجهها وجه طفلة ؛ وكانت تجمر شعرها عالياً ، كعادة ذلك العصر ، ويتناثر على قذالها بعش شعرها الأقتم الشقرة . وكانت عيناها المدورتان تسبغان عليها أبداً مظهر الدهش . وكنت أداعبها بأن أحيط بكلتا يدي قامتها التي كنت أقول عنها إنها «كقامة الزنبور» ، ولكن اتساع النحر والوركين لا يعجب به اليوم أحد ، إذ كانت نساء ذلك العصر أشبه بزهور صناعية .

يدهشني أن تكون مارينيت فرحة إلى هذا الحد ، إذ كانت تسلي الأولاد كثيراً ، وتلاعبهم في المستودع لعبة «الاستخفاء» وتمثل في المساء ألواحاً حية . وكنت تقولين :

ـ إنها رعناء طائشة ، لا تدري الوضع الذي هي فيه .

وكان كرماً منك أن وافقت على أن تلبس الثياب البيض في أيام الأسبوع ، ولكنك كنت لا ترين من اللائق أن تذهب إلى الصلاة دون

حجاب ، وألا يكون لمعطفها حاشية سوداء ، دون أن تعذرها لديك في هذا وطأة الحر .

وكانت التسلية الوحيدة التي أساغتها مع زوجها هي ركوب الخيل ، فحتى يومه الأخير لم يكد البارون فيليبو ، بطل سباق الخيل ، يقطع مرة نزهته المبكرة على حصانه . وقد أتت مارينيت بفرسها إلى كاليز ، ولما لم يكن هناك من يرافقها فقد كانت تمتطيها وحدها ، فكان هذا يبدو لك أمراً مزدوج العار : فما كان ينبغي لمن مات زوجها منذ ثلاثة أشهر فقط أن تقوم بأية رياضة ، أما نزهتها وحدها دون رفيق فتجاوز لكل الحدود .

وكنت ترددين : «سأقول لها رأي الأسرة فيما تفعل» ، ثم تقولين لها ذلك ، ولكنها كانت لا ترعوي ولا تأخذ بنصيحة . وأخيراً لانت وطلبت إليّ أن أرافقها ، وتعهدت بأن تأتيني بحصان وديع ، على أن تتكفل هي بالطبع بكل تكاليفه .

وكنا نخرج منذ الفجر ، خشية الذباب ، ولأنه كان علينا أن نقطع كيلومترين على مهل قبل أن نبلغ أول غابات الصنوبر . وكان الجوادان ينتظراننا أمام البيت ، وتمد مارينيت لسانها هزءاً بنوافذ غرفتك المغلقة ، وهي تعلق ببذلتها وردة ندية بالماء ، كانت تقول عنها إنها «ليست أبداً بضاعة أرملة» . ويقرع جرس الصلاة الأولى قرعات صغيرة ، ويحيينا الأب أردوان في حياء ، ثم يختفي في الضباب العائم فوق الكروم .

وكنا نظل نتحدث حتى نبلغ الغابة . وقد لاحظت أن لي بعض المهابة في عيني مارينيت ، لا لمكانتي في قصر العدل بل للأفكار التهديمية التي كنت بطلها في البيت . فما كانت مبادئك لترضيها ، وهي شديدة الشبه بمبادئ زوجها . فالدين والأفكار ، لدى المرأة ، كل ذلك أشخاص ، كل ذلك يتجسد أمام عينيها في جسد محبوب أو مكروه .

وكان في وسعي أن أستثمر مكانتي لدى هذه الصغيرة الثائرة . ولكن

هذا ما كان يحدث : كان يسيراً عليّ أن أبلغ طبقتها الصوتية ما أظهرت غضبها عليكم ، ولكن يستحيل عليّ أن أتابعها في ما كانت تبديه من احتقار للملايين التي تضيعها إذا تزوجت . وقد كنت أفيد أجزل الفائدة لو أني أخذت إخذها وتظاهرت لها بالقلب النبيل ، ولكن كان يستحيل عليّ الرياء ، بل كنت لا أستطيع أن أتظاهر بموافقتها حين كانت لا ترى خسارة في ضياع هذا الميراث . ولأكن صريحاً : إني لم أكن لأستطيع الامتناع من افتراض إمكان موتها الذي يجعل منا وارثيها (وكنت بالطبع لا أفكر في الأولاد بل في نفسي) .

كان عبثاً أن أهيئ الألفاظ ، وأن أكرر درسي . إنه أمر أقوى من إرادتي أن أقول لها : «سبعة ملايين يا مارينيت . من يتخلى عن سبعة ملايين ؟ ليس على وجه الأرض رجل يستحق تضحية جزء من هذه الثروة!» وكانت تزعم أن تضع السعادة فوق كل شيء ، فأكدت لها أن أي إنسان لن يستطيع أن يكون سعيداً إذا أضاع مثل هذا الكنز . فكانت تصيح :

ـ ما جدوى بغضك لهم ؟ إنك من طينتهم .

ثم تنطلق جبناً وأتبعها من بعيد ، وهي غضبى وأنا خاسر محتقر . هذه اللوثة ، لوثة الولوع بالمال ، أي المتع لم تحرمني ؟ لقد كنت حرياً أن أجد في مارينيت أختاً صغيرة أو صديقة... ثم تريدون أن أضحي لكم ما ضحيت من أجله كل شيء ؟ لا ، لا ، لقد كلفني مالي أغلى الأثمان ؛ فلن أنزل لكم عن فلس منه قبل الزفرة الأخيرة .

ومع ذلك ، فأنتم لا تيئسون . وإنني أتساءل عن أولمب زوجة هوبير التي احتملت عبء زيارتها لي يوم الأحد ، أكانت موفدة من قبلكم أم هي أتت بمحض إرادتها . يا لها من مسكينة! (لِمَ لقبها فيلي بأولمب ؟ لقد نسينا اسمها الأصلي!...) إني أميل إلى الظن بأنها لم تحدثكم بشيء مما فعلت . إنكم لم تتبنوها ، فليست بواحدة من الأسرة . فهذه المرأة التي لا

يعنيها كل ما لا يؤلف عالمها الضيق ، وكل ما لا يمسها مباشرة ، لا تعرف أياً من قوانينكم الخاصة . إنها تجهل أني عدوكم . وليس هذا من لدنها طيبة ولا عطفاً طبيعياً ، ولكنها كذلك خُلقت : لا تفكر في الآخرين ولا تهتم حتى بمقتهم . فإذا لفظ أمامها اسمي احتجت قائلة : «إنه أبداً لطيف معي» . فهي لا تشعر بحدتي ، ولما كان يحدث أن أدافع عنها تجاهكم جميعاً ، رغبة في المعاكسة فحسب ، فهي مقتنعة أن لها تأثيراً علي .

ولقد فهمت من خلال حديثها المشوش ، أن هوبير تفادى الهوة في اللحظة المناسبة ، ولكنه غامر بكل ملكه الشخصي وبائنة امرأته لإنقاذ مركزه . قالت :

ـ هو يقول إنه لا بد مستعيد ثروته ، ولكنه في حاجة إلى سلف... وهو يدعو هذا تسليفاً على التركة...

فكنت أهز برأسي وأوافق ، وأتظاهر أني أبعد ما أكون عن فهم ما تقصد . شد ما أبدو ساذجاً في مثل هذه اللحظات!

وليت أولمب المسكينة تعرف كل ما ضحيت للمال حين كنت لا أزال أملك بقية من الشباب! لقد كنا ، أنا وأختك ، في تلك الأصابيح من سنتي الخامسة والثلاثين ، نعود روداً على حصانينا على الطريق الدافئة بين الكروم المسمدة . وكنت أحدث هذه المرأة الفتية الساحرة عن الملايين التي لا ينبغي لها أن تضيعها . فإذا ما انطلقت من أسر هذه الملايين المهددة هزئت بي في تلطف المزدري ، فازداد أسري ضيقاً كلما حاولت الدفاع عن نفسي . كنت أقول لها :

ـ إنما أتكلم من أجل منفعتك يا مارينيت . أتحسبين أني امرؤ همه التفكير في مستقبل أولاده ؟ صحيح أن إيزا لا تريد أن تهدر هذه الثروة أمام أعينهم ، أما أنا...

فكانت تضحك ، وتصك أسنانها وهي تهمس :

ـ حق أنك امرؤ خبيث!

فكنت أحتج بأني لا أريد إلا سعادتها ، فتهز رأسها في اشمئزاز ، لقد كانت تشتهي الأمومة أكثر مما يعنيها الزواج .

على أني حين كنت ، بعد الغداء برغم الحر ، أخرج من المنزل المظلم البارد ، حيث يغفو أفراد الأسرة موزعين على أرائك الجلد ومقاعد القش ، وأسدف الباب الزجاجي متسللاً نحو الأفق الملتهب لم أكن في حاجة إلى الالتفات ، بل كنت برغم احتقارها لي أعرف أنها آتية أيضاً ، وأسمع وقع خطاها على الحصباء . وكانت سيئة المشية يلتوي كعباها العاليان على الأرض الصلبة.. ثم تتكئ على حاجز الفناء ، وتلهو بأن تبقي على الحجر الملتهب ذراعها العاري أطول مدة ممكنة .

وكان السهل ، أما أعيننا ، ينبسط تحت الشمس في مثل صمته حين يغفو في ضياء القمر ؛ والأراضي البور تؤلف عند الأفق قوساً كبيراً أسود تثقل عليه السماء اللامعة ، وأمامنا فراغ لن يخرج إليه إنسان ولا حيوان قبل الساعة الرابعة ، فما يطن فيه إلا ذباب ، ليس أقل سكوناً من ذلك العمود الدخاني الوحيد في السهل الذي لا تهزه نسمة .

كنت أعرف أن هذه المرأة ، المنتصبة إلى جانبي ، لا تستطيع أن تحبني ، وأن ليس فيّ ما لا تكره . ولكننا كنا نتنفس وحدنا ، في هذا الملك الفسيح ، وسط خمود مطبق . وهذه المخلوقة الفتية المعذبة ، التي كانت عائلتها تضيّق الرقابة عليها ، كانت تبحث عن نظرتي في غير وعي منها كبعض النبات يتجه من تلقاء ذاته نحو الشمس . ومع ذلك ، فلو لفظت أي كلمة غير بريئة لما أجابت عليها بغير السخرية ؛ وكنت أشعر أنها لاوية عني وجهها في اشمئزاز لدى أبسط محاولة ، فكنا نظل ، أحدنا إلى جانب الآخر ، على حافة هذه الخابية الضخمة التي كان القطف المقبل يتخمر فيها ، وفي ظل الأوراق الضاربة إلى الزرقة .

أما أنت يا إيزا ، فما كان رأيك في هذه الغدوات المبكرة ، وفي هذه الأحاديث ساعة يغفو باقي العالم ؟ إنني أعرفه ؛ فلقد سمعتك تقولينه ذات يوم . نعم ، من خلال نوافذ القاعة المغلقة سمعتك تقولين لأمك ، التي كانت إذ ذاك في كاليز (وقد أتت بلا ريب لتشدد الرقابة على مارينيت) :

ـ إن له عليها تأثيراً سيئاً ، فيما يختص بالأفكار... أما فيما عدا ذلك فهو يشغلها ، وليس وراء هذا ضرر .

فأجابت أمك :

ـ نعم ، إنه يشغلها ، وذلك هو المهم .

لقد كان يفرحكم أن أشغل مارينيت . وكنتما تردّدان : «... ولكن ، بعد الصيف ، يجب الاهتداء إلى شيء آخر» . آه يا إيزا ، مهما ازدريتني فلقد كنت أشد ازدراء لك من أجل أقوال كهذه . ولا ريب أنك لم تكوني تتصورين وراء ذلك أي خطر ، فالنساء لا يذكرن أبداً ما انقطعن عن الشعور به . وصحيح أن أي شيء ، بعد الغداء ، على حافة السهل ، لم يكن يمكن أن يحصل ، فعلى أن الأرض كانت قفرة ، كنا كلانا كالواقف في مقدمة مسرح ؛ ولو أن فلاحاً لم يُقِلْ ذات يوم لبَصُرَ بهذا الرجل وهذه المرأة ، الساكنين سكون أشجار الزيزفون ، الواقفين حيال الأرض المتأججة واللذين كانا لا يأتيان حركة مهما تفهت إلا تلامساً .

ولكن نزهاتنا الليلية لم تكن أقل براءة . وإني لأذكر أمسية من أغسطس ، كان العشاء في بدئها عاصفاً بسبب دريفوس . وكانت مارينيت ، التي تمثل معي «حزب إعادة النظر في القضية» تفوقني مهارة في إخراج الأب أردوان عن صمته واضطراره إلى الأخذ بأحد الرأيين . وكنت قد تحدثت في كثير من الإطراء عن مقال كتبه درومون ، فسألت مارينيت بصوتها الصبياني :

ـ يا حضرة الأب ، هل يجوز كره اليهود ؟

وكانت فرحتنا الكبرى ، ذلك المساء ، أنه لم يلجأ إلى التملص والغموض ، بل تحدث عن عظمة الشعب المختار ، وعن دوره الكبير كشاهد على الانسانية ، وعن توقع انضمامه إلى حظيرة الكنيسة وكون هذا الانضمام نذارة بقيام الساعة . وكان هوبير قد ردّ بأن من الواجب أن نكره الذين صلبوا الرب ، فأجاب الأب بأن كلاً منا يحق له أن يكره واحداً فحسب ممن صلبوا المسيح : «نحن أنفسنا ، لا أياً آخر...»

وأزعجك هذا الجواب فرددت عليه أن تطبيق مثل هذه النظريات الطوباوية يعني التخلي عن فرنسا للأجانب . ولم ينقذ الأب إلا حديثك عن جان دارك ، التي أصلحت بينكم . وكان على الفناء طفل يهتف :

ـ آه ، ما أجمل ضوء القمر!

فخرجت إلى الفناء وأنا واثق أن مارينيت لا بد لاحقة بي . ولم ألبث أن سمعت صوتها اللاهث يقول : «انتظرني...» وجاءتني وقد لفت عنقها بشال في لون الثعبان .

كان القمر بدراً يصعد من الشرق . وكانت هذه المرأة الشابة تملي بصرها بظلال الأشجار الطويلة المائلة على العشب ، ومنازل الفلاحين تتلقى النور بصدورها المغلقة ، والكلاب تعوي ؛ فسألتني أيكون القمر هو الذي يجعل للأشجار هذا السكون ، وقالت لي إن كل ما في مثل هذه الليلة إنما خلق لتعذيب من قضي عليهم بالعزلة ، فهو زينة مقفرة! وكم من وجوه تتلاصق ، في هذه الساعة ، وأكتاف تلتقي في عناق! وكنت أرى على أهدابها دمعة جلية ، وما كان في هدأة الكون حياً إلا أنفاسها... أي شيء بقي منك حتى هذا المساء يا مارينيت ، وقد مت عام ١٩٠٠ ؟ أي شيء بقي من جسمك وقد دفن منذ ثلاثين سنة ؟ إني لأذكر شذاك الليلي . أما الإيمان بانبعاث الجسد فلربما وجب أن يسبقه الظفر على

الجسد . أما من انساقوا إلى نزواته فعقابهم ألا يعودوا قادرين حتى على تصور انبعاثه .

لقد أمسكت بيدها كما أمسك بيد طفل بائس ، وكالطفل أسندت رأسها إلى منكبي . وتلقيتها لمجرد أني إلى جانبها ، كما يتلقى التراب دراقةً تسقط فوقه . إن أكثر بني البشر لا يد لهم في اصطفاء أحدهم الآخر ، كالأشجار تنبت جنباً إلى جنب فتختلط أغصانها لمجرد أنها تنمو .

ولكني كنت دنيئاً ، في تلك اللحظة . لقد فكرت فيك ، يا إيزا ، وحلمت بالانتقام ، باستخدام مارينيت لتعذيبك . ولئن لم تجل هذه الفكرة في ذهني إلا لحظة ، فهي قد جالت فيه ، وخطرت لي هذه الجريمة . ومشينا خطوات مضطربة خارج منطقة ضياء القمر ، نحو غيضة الرمان والآس . ولكن القدر شاء أن أسمع حينئذ وقع خطوات في ممر الكروم ـ هذا الممر الذي كان يسلكه الأب أردوان كل صباح في غدوه إلى الصلاة . وكان هو نفسه بلا ريب... وانصرف فكري إلى تلك الكلمة التي وجهها إليّ ذات مساء : «إنك طيب جداً...» فليته قرأ ما اضطرب له قلبي في تلك اللحظة! أيكون الخجل الذي شعرت به هو الذي أنقذني ؟

وأعدت مارينيت إلى النور ، وأجلستها على مقعد ، ومسحت عينيها بمنديلي ، وقلت لها ما كنت أقوله لماري لو أنها وقعت فأخذت بيدها في ممر الزيزفون ، وتظاهرت بأني لم ألمح ما لعله مازج تراخيها ودموعها من رغاب .

٩

وفي اليوم التالي لم تخرج مارينيت إلى نزهتها الصباحية على فرسها ، وذهبت أنا إلى بوردو (حيث كنت أقضي يومين كل أسبوع برغم عطلة قصر العدل ، كيلا أقطع استشاراتي) .

وحين صعدت في القطار لأعود إلى كاليز كان قطار الجنوب السريع في المحطة ، وكانت دهشتي عظيمة حين رأيت مارينيت وراء زجاج عربة كتب عليها «بياريتز» ، دون حجاب الحداد ، ومرتدية سترة رمادية . ثم تذكرت أن صديقة لها كانت تلح عليها منذ أمد بعيد أن تذهب إلى زيارتها في سان جان دولوز . وكانت تنظر في جريدة مصورة فلم تر إشاراتي . وفي المساء حين أنبأتكم بذلك ، كنت أنت قليلة الالتفات إلى هذا الأمر الذي لم ترى فيه إلا نزوة قصيرة الأمد . وقلت لي إن مارينيت كانت تلقت بعد لحظات من سفري رسالة برقية من صديقتها ، وبدت عليك الدهشة من ألا أكون عالماً بذلك . أتراك حسبتنا التقينا سراً في بوردو ؟ وبعد ، فقد كانت ماري الصغيرة ممدة في سريرها مرتفعة الحرارة ، تعاني منذ أيام إسهالاً يقلقك . ويجب أن أقر لك بهذه الفضيلة : فما يمرض أحد أولادك حتى تهملي كل ما خلاه .

بودي لو أمر سريعاً على ما أعقب ذلك ، فما أستطيع أن أقف فكري

عنده دون جهد كبير ، برغم انقضاء أكثر من ثلاثين عاماً . وأنا أعرف ما اتهمتني به . لقد جرؤت على أن تقولي لي في وجهي إني رفضت عقد مجمع من الأطباء . ولا ريب أن الأستاذ أرنوزان ، لو كنا أتينا به ، لعرف أنها كانت حمى تيفودية لا زكاماً كما زعموا . ولكن استرجعي ذكرياتك : لقد قلت لي ، مرة واحدة : «ألا ترى أن نستدعي أرنوزان ؟» فأجبتك : «إن الدكتور أوبرو يؤكد أنه يعالج الآن أكثر من عشرين مصاباً بهذا النوع نفسه من الزكام في القرية...» فلم تلحي علي . وتزعمين أنك توسلت إلي ، في اليوم التالي أيضاً ، أن أبرق إلى أرنوزان ، ولو أنك فعلت ذلك لذكرته ، وإن يكن حقاً أني أكثرت من اجترار هذه الذكريات ، خلال أيام وليال ، بحيث أمسيت أضل فيها الطريق . ولنقبل جدلاً أني بخيل... فهذا البخل لم يكن ليصل بي إلى حد التقتير-والأمر يتصل بمرض ماري . ويزيد من بعد هذا عن الواقع أن الأستاذ أرنوزان كان يعمل لوجه الله والانسانية . فإذا أنا لم أدعه ، فذلك أنا كنا مقتنعين بأن الأمر لا يعدو أن يكون «نزلة زكامية بسيطة أصابت الأمعاء» . وكان أوبرو هذا يطعم ماري كيلا تهن قواها ؛ فهو الذي قتلها ، لا أنا . لا ، لقد كنا على اتفاق ، ولم تلحي علي كي أستدعي أرنوزان ، يا كاذبة ، لست بالمسؤول عن موت ماري ، ومن الفظاعة أن تتهموني بذلك . ولكنك تؤمنين به ، وقد ظللت أبداً تؤمنين به!

ولشد ما ثقل علينا ذلك الصيف ، وهذيانه ، وضراوة الصراصير فيه!... كنا لا نستطيع الحصول على الثلج . وكنت في الآصال التي لا تنتهي ، أمسح وجهها الصغير العارق الذي كان يجتذب الذباب . وجاء أرنوزان بعد فوات الفرصة وبدّل نوع طعامها وقد أصبح موتها محققاً كل التحقق . ولعلها كانت تهذي وهي تكرر : «من أجل أبي! من أجل أبي!...» وأنت تذكرين نبرتها إذ كانت تصيح : «رباه ، ما أنا إلا طفلة...» ثم تستمسك وتقول : «لا ، ما

أزال أطيق الألم » . وكان الأب أردوان يسقيها من ماء الورد . وكان رأسانا يتقاربان فوق هذا الجسم المضنى ، ويدانا تتلامسان . فلما ماتت حسبتني فاقد العاطفة .

أتريدين أن تعرفي حالي النفسية إذ ذاك ؟ أنت المسيحية ، من الغريب أنك لم تستطيعي مفارقة الجثمان . كانوا يتوسلون إليك أن تأكلي ، ويعيدون عليك إنك في حاجة إلى كل قواك . وكان ينبغي أن يجروك بالقوة إلى خارج الغرفة . كنت تجلسين بإزاء السرير ، وتلمسين الجبين والخدين الباردين لمسة راعشة ، وتضعين شفتيك على شعرها الذي لم يفقد الحياة بعد ؛ وتركعين أحياناً لا لتصلي بل لتسندي جبينك إلى اليدين الصغيرتين ، المتصلبتين الصقعتين .

وكان الأب أردوان ينهضك ، ويحدثك هؤلاء الأطفال الذين ينبغي أن نشبههم لندخل ملكوت السماء ، ويقول لك : « إنها هناك ، تراك وتنتظرك » ، فتهزين رأسك لأن هذه الألفاظ لم تكن تبلغ حتى عقلك ، ولأن إيمانك لم يكن يجديك في شيء ، فما تفكرين إلا في هذا الجسم الذي ولده جسمك ، والذي كان وشيكاً أن يدفن وأن يتعفن . أما أنا ، أنا الكافر ، فكنت أستشعر حيال ما بقي من ماري كل ما تعنيه كلمة « جثة » : كان يحتويني شعور عات بأنها في رحلة ، بأنها غائبة فليست بيننا ، وأن ما بقي منها ليس إياها . لقد غادرتنا ، فلا تبحثوا عنها . « أتبحثون عن ماري ؟ إنها لم تعد هنا... » .

ولقد اتهمتني فيما بعد بسرعة النسيان . ومع ذلك أنا أعرف ما انفطر من نفسي حين قبلتها ، مرة أخيرة ، في تابوتها . ولكنها لم تكن هي ذاتها . ثم احتقرتني لأني لم أكن أرافقك إلى المقبرة ، كل يوم تقريباً . وكنت ترددين : « إنه لا يذهب قط إلى هناك ، ومع ذلك فلقد كانت ماري هي الوحيدة التي يبدو أنه أحبها بعض الحب... إنه بلا قلب » .

ولقد عادت مارينيت لتحضر الدفن ، ولكنها غادرتنا بعد ثلاثة أيام . وكان الألم يعميك فلا ترين الخطر الذي يتهددكم في هذه الناحية . بل لقد بدا عليك أن قد أثلجك رحيل أختك . وبعد شهرين بلغنا نبأ اقترانها بذلك الكاتب الصحفي الذي التقت به في بياريتز ، وقد فاتت الفرصة لتوقي الضربة ، فغاظك هذا أشد الغيظ ، وكأن حقداً دفيناً في نفسك انفجر بغتة على مارينيت ، فرفضت أن تتعرفي إلى «هذا المخلوق» ، وهو رجل عادي ككل الناس ، جريمته الوحيدة أنه حرم أبناءنا من ثروة لن يفيد منها ، ما دام أبناء أخي فيليبو سينالون منها الشطر الأكبر .

ولكنك لا تناقشين الأمور . فما ساورك التردد لحظة ، وما عرفت شخصاً كان في ظلمه أكثر منك راحة ضمير . وليس لدي ريب في أنك لم تكوني تعترفين للكاهن بغير اليسير من زلاتك ، أنت التي عشت حياتك مخالفة لكل الطوبيات! وليس أهون عليك من اصطناع المعاذير الكاذبة لنبذ من تكرهين . ألم تكوني تقولين عن زوج أختك ، وأنت لم تكوني رأيته قط ولا عرفت عنه شيئاً : «لقد كانت في بياريتز ، ضحية مخاتل ، يقضي وقته في الفنادق...» .

وليس بكاف أن أقول إنك حين ماتت هذه المسكينة أثناء الوضع لم تظهري عليها أي حزن . وددت لو أحكم عليك بمثل القسوة التي حكمت بها عليّ حين توفيت ماري! وكنت تقولين : إن الحوادث قد دلت على صحة رأيك ، فما كان لتلك الحال أن تنتهي على غير هذه الصورة . لقد دفعت بنفسها إلى التهلكة ، وما أتيت أنت ما تلامين عليه ، بل قمت بكل واجبك . ولقد كانت هذه التاعسة تعرف أن منزل أهلها مفتوح لها أبداً ، وأنهم كانوا ينتظرونها ، فينبغي الاعتراف بأنك لم تكوني شريكتها . لقد كلفك الحزم كثيراً من الجهد ، «ولكن هناك مناسبات يجب أن يعرف الانسان فيها كيف يدوس على قلبه» .

لا ، لن أثقل عليك ، وأقر بأنك كنت جد طيبة في معاملة ابن مارينيت ، لوك الصغير ، بعد أن توفيت أمك وكانت من قبل تعنى به . فكنت تتكلفين به مدى الاجازة ، وتذهبين إلى رؤيته مرة كل شتاء في المدرسة الثانوية قرب بايون . وكنت تقولين : «إني أقوم بواجبي ، ما دام أبوه لا يقوم به...» .

وما حدثتك قط كيف عرفت أبا لوك ، في بوردو عام ١٩١٤ . كنت أحاول الحصول على صندوق في مصرف ، وقد استولى على كل الصناديق الباريسيون الهاربون . وأخيراً أنبأني مدير الكريدي ليونيه أن أحد عملائه راحل إلى باريس وقد يوافق على أن يتنازل لي عن صندوقه . فلما سماه لي عرفت أنه أبو لوك . لا ، لم يكن قط ذلك الوحش الذي تخيلته . ولقد بحثت عبثاً ، في هذا الرجل البالغ ثمانية وثلاثين عاماً ، النحيل الشرس ، الذي يتأكل فرقاً من مجالس انتقاء الجنود ، عن ذلك الرجل الآخر الذي لمحته قبل ذلك بأربعة عشر عاماً ، يوم دفن مارينيت ، والذي تحدثت معه في بعض الشؤون التجارية . وكان صريحاً معي في حديثه فذكر لي أنه يعيش ـ دون زواج ـ مع امرأة لا يريد أن يعرف بأمرها لوك ، وأنه لم يهمله لجدّته السيدة فوندوديج إلا من أجل نفعه... يا إيزا المسكينة ، لو علمتم أنت والأولاد ما عرضت على هذا الرجل ذلك اليوم! في وسعي الآن أن أخبرك بذلك : لقد اقترحت أن يظل الصندوق باسمه على أن يوكّلني بفتحه وأن أضع فيه كل ثروتي المنقولة مع ورقة تشهد بأنها ملك لوك ، فلا يمس الصندوق أبوه ما حييت ، فإذا مت امتلكه وأنتم على غير علم بشيء...

وكان جلياً أني أسلم نفسي إلى هذا الرجل ، أنا وما أملك . فهل تصورتِ مقدار حقدي عليكم إذ ذاك ؟ ولكنه لم يرض ، لم يجرؤ ؛ وحدثني عن شرفه...

كيف ساورتني هذه الجنة ؟ في ذلك العهد كان الأولاد قد شارفوا الثلاثين ، وقد تزوجوا وغدوا نهائياً في صفك ، يقفون ضدي في كل حين .

ويعلم الله أنك لم تكوني معهم على وفاق ، وبخاصة مع جنفييف ، التي كنت تلومينها على تركك أبداً وحيدة ، وعلى إهمالها استشارتك في كل الأمور . ولكن الجبهة ضدي كانت تتمكن ؛ وبعد فقد كان أكثر اصطدامنا خفياً ، إلا في أحوال خاصة ، كالمعارك الرهيبة التي جرت حين زواج الأولاد ، إذ لم أكن أريد إعطاء بائنةٍ بل تخصيص ريع ، وكنت أرفض إطلاع الأسر التي يعنيها الأمر على حال ثروتي . ولم أتزحزح إذ كنت الأقوى ، يعضدني الحقد ، الحقد ومعه الحب ، حبي للصغير لوك وتسامحت الأسرتان في هذا الأمر لأنهما لم تكونا تشكان في ضخامة الكنز...

ولكن صمتي كان يزعجكم : كنتم تريدون أن تعرفوا ، وكانت جنفييف تحاول أحياناً أن تأخذني بالرقة ، هي الثقيلة التي كنت أسمعها مقبلة من بعيد بحذائها الضخم! وكثيراً ما قلت لها : «حين أموت ، ستباركونني» ، لا لشيء إلا لأنعم برؤية عينيها تلتمعان رغبة . وكانت تعيد على مسمعك هذه الألفاظ الساحرة فتعتري الأسرة كلها رعدة ، بينا كنت أتحرى عن وسيلة لا تبقي لكم إلا ما يستحيل إخفاؤه . فما كنت أفكر إلا في لوك . الصغير ، حتى لقد خطر لي أن أرهن الأرض...

وبرغم كل شيء فقد حدث أن أخذت برأيكم مرة ، وذلك في السنة التي أعقبت وفاة ماري : كنت مريضاً ، وكانت بعض الأعراض تذكر بأعراض المرض الذي أودى بابنتنا الصغيرة . وأنا أكره أن أمرض ، وأمقت الأطباء والأدوية ولكنك لم تهدئي حتى قبلت أن ألتزم السرير وأن أستدعي أرنوزان .

وواضح أنك كنت تعنين بي في إخلاص ، بل في قلق ، وكنت أحياناً إذ تسألينني عما أشعر به أخال في صوتك بعض اللوعة . وكنت تجسين جبيني فعلك حين يمرض الصغار . وأردت أن تنامي في غرفتي ، وكنت إذا تحركت

في الليل نهضت فساعدتني على الشرب . فكنت أقول لنفسي : « إنها ضنينة بي! من كان يظن ذلك ؟ أم لعله الحرص على ما أكسب ؟ » لا ، إنك لا تحبين المال من أجل المال... أيكون ذلك إذن لأن مكانة أبنائي الاجتماعية تنحط بموتي ؟ لقد كان ذلك أدنى إلى الاحتمال ؛ ولكنه لم يكن الحق .

فبعد أن فحصني أرنوزان ، تحدثت معه في فناء المنزل ، في نبرات كثيراً ما شفت عن نفسك : «قل لكل الناس ، يا دكتور ، إن ماري ماتت بالتيفود . فلقد شاع في البلد ، بسبب أخوي المسكينين ، أن السل هو الذي ذهب بها . والناس أشرار لا يريدون أن يكفوا عنا . وأشد ما أخشى أن يسيء هذا إلى هوبير وجنفييف . ولو أن زوجي أصابه مرض خطير لصدق الناس كل هذه الأقاويل . لقد جعلني أخشى مدى أيام عدة على ابنيّ العزيزين . وأنت تعرف أن إحدى رئتيه كانت مصابة قبل زواجه ؛ وقد عرف الناس هذا الأمر ، فما يخفى شيء والناس يحبون الحديث. فحتى لو مات من مرض سار لما صدق ذلك كل الناس ، كان لم يصدقه هو في حكاية ماري ، وسيكون ابناي المسكينان ضحية ذلك . ولهذا كان يخنقني أبداً منه أن أراه سيء العناية بنفسه إلى هذا الحد . لقد كان يرفض أن يلتزم السرير كأن الأمر أمره وحده! إنه لا يفكر أبداً في الآخرين ، حتى ولو كانوا أولاده... لا ، لا يا دكتور إن رجلاً مثلك لا يستطيع الاقتناع بوجود رجل مثله . أنت تشبه الأب أردوان ، لأنك لا تؤمن بالشر» .

وكنت أضحك وحدي ، في سريري . فسألتني سبب ذلك حين عدت إلي ، فأجبتك بهذه الكلمات التي أصبحت جارية الاستعمال فيما بيننا : «لا شيء » . ـ علام تضحك ؟ ـ على لا شيء . ـ فيم تفكر ؟ ـ في لا شيء .

١٠

أعود إلى هذا الكراس بعد نوبة أسلمتني إلى رحمتكم نحواً من شهر . فما أن ينزع المرض سلاحي حتى تضيق حلقة الأسرة حول سريري ، وتجتمع لتراقبني .

وفي يوم الأحد الماضي جاء فيلي ليؤنسني في وحدتي ؛ وكان الجو حاراً ، فكنت لا أكاد أجيب ، وفقدت وعيي... كم من الزمن ؟ لا أدري . وقد أيقظني صوته ، وكنت أراه في الظل منتصب الأذنين وعيناه تلمعان كعيني ذئب فتي وعلى معصمه فوق الساعة سلسلة من ذهب ، وقميصه المفتوح يكشف عن صدر طفل . وأغفيت مرة أخرى ، فأيقظني وقع حذائه ، ولكني جعلت أرقبه من خلال أهدابي ، فإذا هو يجس سترتي بيده ، في موضع الجيب الداخلي الذي يحتوي محفظتي ، وبرغم وجيب قلبي الشديد ألزمت نفسي السكون التام ، ولكن لعله خاف ، فما لبث أن عاد إلى مكانه .

وتظاهرت بأني أستيقظ ؛ وسألته أغفوت طويلاً ، فأجاب :

ـ بضع دقائق فقط ، يا جدي .

واستشعرت أمامه هذه الرعدة التي تأخذ الشيوخ المنعزلين حين يراقبهم شاب . أأكون مجنوناً ؟ يخيل إلي أن هذا الشاب أهل لأن يقتلني : ألم يقل هوبير يوماً إن فيلي لا يرتد أمام أي أمر ؟ .

انظري ، يا إيزا ، مدى تعاستي . سيكون قد فات أوان إظهار الشفقة عليّ حين تقرئين هذا ؛ ولكني يطيب لي أن أرجىء شعورك ببعض هذه الشفقة . لست أؤمن بجهنمك الأبدية ، ولكني أعرف كيف يكون الانسان ملعوناً على الأرض ، مقضياً عليه بالهلاك ، مخطئاً كيفما اتجه ، رجلاً لا يعرف أن يعيش ، بالمعنى المطلق لهذه الكلمة يا إيزا ، إني أتعذب . ريح الجنوب تلهب الجو ، وأنا عطشان ، وما لدي إلا الماء الدافئ في غرفة الزينة . لدى الملايين ، ولكن ليس عندي كوب ماء بارد .

ولئن أطقت وجود فيلي ، برغم جزعي الشديد منه ، فلعل ذلك لأنه يذكرني ولداً آخر ، لو عاش حتى اليوم لجاوز الثلاثين ، هو لوك الصغير ، ابن أختك . إني لم أجحد قط فضيلتك ، ولقد هيأ لوك هذا الصغير مجال إبرازها ، فما كنت تحبينه إذ لم يكن فيه شيء من آل فوندوديج ، وهو الغلام الأسود العينين الضيق الجبهة . وكان كسولاً في مدرسة بايون الثانوية حيث كان تلميذاً داخلياً ، ولكنك كنت تقولين إن هذا أمر لا يعنيك ، وحسبه منك أنك تتكفله مدى الإجازة .

لا ، لم تكن الكتب ما يشغله . ففي هذا البلد القليل الطير ، كانت لديه الوسيلة ليجد كل يوم ما يقنص . والأرنب ، الأرنب الوحيد كل عام ، الكامن في الفياض ، كان ينتهي أبداً بأن يحمله إلينا ؛ وما أزال أذكر حركته المرحة في ممر الكروم العريض ، وقبضته الممسكة بأذني الحيوان ذي الخطم الدامي . وكنت أسمعه يخرج مع الفجر ، فأفتح نافذتي ، فيناديني صوته الرقيق في الضباب : «أنا ذاهب أرفع شباكي» .

وكان ينظر إليّ وجهاً إلى وجه ، ويحتمل نظرتي ، ولا يخافني ، بل لا تخطر له قط هذه الفكرة .

فإذا عدت بغتة بعد أيام من غياب ، ودون أن أخطركم بعودتي ، شممت في المنزل رائحة الدخان ، أو فجأتكم والقاعة بلا سجاد وفيها آثار

حفلة مبتورة (إذ ما كنت أدير عقبي حتى يدعو هوبير وجنفييف أصدقاءهما ، وينظمان الحفلات برغم منعي الصريح لها ؛ وكنت شريكتهما في عصيانهما ، تقولين : «يجب أن نكرم الناس إكرامهم لنا...») ، في هذه الأحوال كان لوك هو الذي ترسلونه إليّ أبداً لينزع سلاحي . وكان يضحكه ما أثيره بينكم من فزع ، فيقول : «دخلت القاعة وهم يرقصون ، وصحت : خالي جاء ، إنه يسلك الطريق القصير... لو رأيتهم جميعاً كيف يهربون! وخالتي إيزا وجنفييف تحملان شطائر الطعام إلى الخزانة . ما كان أطرفها فوضى!» .

هذا الغلام الصغير كان بين الناس الوحيد الذي لم ير فيّ ما يفزع . وكنت أحياناً أنزل معه حتى النهر حين يصطاد بالصنارة ، فإذا في طوق هذا المخلوق الدائم الركض والقفز أن يبقى ساعات يقظاً في سكون ، وكأنما حال إلى صفصافة ، فذراعه يقوم بحركات لها بطء حركات الأغصان ولها صمتها . وكانت جنفييف محقة في قولها إنه لن يكون «رجل أدب» ، فما كان يعنيه قط أن يخرج ليرى ضوء القمر على الفناء ، ولا كانت تجتذبه الطبيعة لأنه كان الطبيعة نفسها ، كان ممتزجاً بها ، قوة من قواها ، ونبعاً دفاقاً بين الينابيع .

وكنت أفكر في كل عناصر الأسى التي تملأ حياته الهشة : في أمه التي ماتت ، وأبيه الذي لا ينبغي الكلام عنه في منزلنا . وسجنه في المدرسة ، ووحدته . لقد كان حسبي بعض هذا لأفيض حقداً ومرارة . أما هو فكان نبعة فرح ، وكان كل الناس يحبونه ؛ ولكم بدا لي غريباً هذا الحب ، أنا الذي يكرهه كل الناس! الكل يحبونه ، وحتى أنا . ويبتسم للكل ، وحتى لي . ولكن حظي من ابتسامته لم يكن أكثر من حظ الآخرين .

هذا كائن غريزة كله ، كان يزيد دهشتي منه ، كلما كبر ، هذا الطهر ، هذا الجهل للشر ، هذا الحياد . صحيح أن أولادنا كانوا أطفالاً صالحين .

ولقد عاش هوبير طفولة مثالية ، كما تقولين ، وأقر بأن تربيتك ، من هذه الناحية ، قد آتت ثمارها . ولكن الطهر ، عند لوك ، لم يكن يبدو مكتسباً ولا داعياً ، بل كان صفاء الماء في الحصباء ، وكان يلتمع فوقه التماع الندى على العشب . فإذا أنا أطلت الحديث عنه فلأنه خلّف فيّ أعمق الأصداء . فمبادئك التي لا تنفكين ترددينها ، وتلميحاتك ومظاهر الاشمئزاز على وجهك ، وشفتاك المشدودتان ، كل هذا لم يكن ليدلني على معنى الشر كما أوضحه لي ، على غير علم مني ، هذا الطفل . وما أدركت ذلك إلا بعد وقت طويل . فلو أن الانسانية كانت كما تتخيلين ، تحمل في جنبها جرحاً أزلياً ، لما استطاعت عين بشرية أن تميزه لدى لوك : لقد خرج من بين يدي الخزاف سليماً كامل الفتنة . أما أنا ، فإلى جانبه كنت أشعر بشوهتي .

أأقول إني أحببته حبي لابني ؟ لا ، فإنما أحببته لأني لم أكن ألتقي فيه بنفسي . فأنا أعرف جيداً ما ورثه عني هوبير وجنفييف : قسوتها وتقديمها عرض الدنيا ، وقدرتها على احتقار الآخرين (فجنفييف مثلاً تعامل زوجها ألفريد في استعلاء يحمل طابعي) . أما لدى لوك فكنت واثقاً أني لن أصطدم بنفسي .

وقلما فكرت فيه خلال العام الدراسي . وكان يذهب إلى أبيه خلال عيدي الفصح ورأس السنة ؛ ثم تعود به إلينا إجازة الصيف ؛ وفي أكتوبر يغادر البلد مع الطيور الأخرى .

أكان تقياً ؟ لقد كنت تقولين عنه : «إننا نرى تأثير «الآباء» حتى على وحش صغير مثل لوك ؛ فما يفوته أبداً تناول القربان يوم الأحد... صحيح أنه عجول في صلاته ، ولكن الله لا يكلف نفساً إلا وُسعَها» .

أما هو فما كان يحدثني قط بهذه الأمور ، ولا يشير إليها إشارة . كل أحاديثه تتناول المحسوس الواقعي ؛ فإذا حدث أن سقطت في العشب سبحته

الصغيرة السوداء ، وهو يسحب من جيبه سكيناً أو صفارة ليناديي القنابر ، مال فالتقطها في خفة . ولكن لعله كان صباح الأحد يبدو أكثر هدوءاً منه في الأيام الأخرى وأقل انطلاقاً ، كأنما أثقله جوهر مجهول .

على أن بين كل الروابط التي كانت تصلني به ، واحدة قد تدهشين لها : فلقد حدث غير مرة ، في تلك الآحاد ، أن تعرفت في هذا الغزال الذي امتنع عن الوثبان أخاً لابنتنا ماري ، تلك الصغيرة التي غفت قبل ذلك بالثنتي عشرة سنة ، المختلفة عنه أشد الاختلاف ، والتي كانت لا تحتمل أن تداس أمامها حشرة ، وكان هواها أن تفرش بالورس تجاويف الأشجار ثم تضع فيها تمثالاً للعذراء! ففي ابن مارينيت ، هذا الذي كنت تدعينه «الوحش الصغير» ، كنت أرى ابنتي ماري تبعث من أجلي ، أرى النبع الذي كان انبجس فيها ثم غار معها في بطن الأرض يتفجر ثانية بين قدمي .

وفي الأيام الأولى من الحرب كان لوك يداني الخامسة عشرة . وكان هوبير مجنداً في «المصالح المساعدة» ، تزعجك مجالس انتقاء الجنود التي كان يتقبل حكمها بروح فلسفية ؛ وغدا صدره الضيق ، الذي ظل مدى سنوات كابوساً يثقل عليك ، موضع رجائك كله . فحين ابتعث في نفسه رتوب الحياة في المكاتب ، وبعض الفضائح ، رغبة قوية في أن يتجند ، وأخفقت محاولاته في هذا السبيل ، بلغ بك الأمر أن غدوت ترددين الحديث صراحة عن «مرضه الوراثي» الذي كنت من قبل شديدة الحرص على كتمان أمره .

يا إيزا المسكينة ، لا تفزعي فلن أرميك بالحجر . إني لم أكن قط موضع اهتمامك ، ولا راقبتني مرة ، ولكنك في ذلك الحين كنت أكثر إهمالاً لي منك في باقي الأحيان ، فلم توجسي قط هذه الغصة الصاعدة في نفسي ، تضيق بها كلما توالت حملات الشتاء ؛ كان أبو لوك مجنداً في إحدى الوزارات ، فكان الصغير عندنا لا في إجازة الصيف فحسب بل في رأس السنة

والفصح أيضاً . وكانت الحرب تلهب حماسته ، فهو أبداً في جزع
تنتهي ولما يبلغ الثامنة عشرة . وهو الذي كان في السابق لا يفتح
انقلب يلتهم المؤلفات الخاصة بالجندية ويدرس الخرائط ، وينمي
وفق الأصول ، فما بلغ السادسة عشرة حتى كان رجلاً قوياً ، لا يرق لل
ولا للأموات . وكانت القصص السوداء التي يتلوها معي عن الحر
الخنادق ، توحي إليه صورة رياضية قاسية غالية ، لن يحق له القيام
كل الأحيان ، فيجب أن يتعجل . ولشد ما كان يخشى أن يصل متأخر
حصل مقدماً على موافقة أبيه ، فكنت بقدر ما يزداد اقتراباً يوم أول
١٩١٨ ، أتتبع في جزع سياسة كليمانصو العجوز وأراقبها ، كأهل الم
الذين كانوا يرتقبون سقوط روبسبير ويأملون أن يسقط الطاغية
يصل ابنهم إلى المحكمة .

فلما أصبح لوك في معسكر سوج خلال مرحلة تعليمه وتدريبه
تبعثين إليه بالأصواف وبكاذب المجاملات ، ولكن كانت لك ألفاظ
في نفسي غريزة القتل ، يا إيزا المسكينة ، حين تقولين : «هذا ال
المسكين ، صحيح أن أمره سيحزننا... ولكنه هو ، على الأقل ، لن
أحداً وراءه...» وأعترف أنه لم يكن في هذه الألفاظ ما يجرح الناس .

وذات يوم ، أدركت أنه لم يعد ثمة رجاء أن تنتهي الحرب قبل
لوك . وحين تصدعت الجبهة في شومان دي دام ، جاء يودعنا قبل الـ
المحدد له بخمسة عشر يوماً . وسأكون جريئاً فأردد هنا ذكرى فظيعة
تزال توقظني في الليل وتجعلني أصرخ . ففي ذلك اليوم ذهبت إلى
لآتي منه بزنار من جلد ، كنت أوصيت بصنعه على مثال انتقيته بنفس
فوثبت إلى مرقاة وحاولت أن أجذب إليّ رأس ديموستين الجص الذي
مكتبتي فلم يتزحزح ، إذ كان مملوءاً بعملة ذهبية أخفيتها فيه منذ

الحرب ، فأغرقت يدي في هذا الذهب الذي كنت أحرص عليه مني على أي شيء آخر في العالم ، فحشوت به الزنار الجلد . وحين نزلت عن المرقاة كان هذا الثعبان الخدري ، الذي يشم بالذهب ، يلتف على عنقي ويثقل قذالي .

ومددت به في حركة جبانة إلى لوك ، فلم يفهم أول الأمر ما أقدم إليه ، ثم سألني :

ـ ما تريد ، يا خالي ، أن أصنع بهذا ؟

ـ قد يفيدك في المعسكرات ، وإذا أسرت ، وفي أحوال أخرى كثيرة... كل شيء مع هذا ممكن .

فقال وهو يضحك :

ـ لا ، حسبي درعي... كيف خطر لك أني مثقل نفسي بكل هذا المال ؟ لو فعلت لاضطررت إلى تركه في الظل لدى أول هجمة...

ـ ولكن يا بني ، في بدء الحرب ، كل من كان لديهم ذهب حملوا منه .

ـ لأنهم ، يا خالي ، لم يكونوا يعرفون ما ينتظرهم .

وكان منتصباً في وسط الغرفة ، وقد رمى على الأريكة الحزام المملوء بالذهب ، فما كان أهزل مظهره هو الفتي القوي في ثوبه العسكري الفضفاض! كان عنقه النحيل يطفو على «الياقة» الفاغرة . وكان شعره المحلوق يذهب عنه بكل ميزة خاصة . وكان متهيئاً للموت ، مزيناً له كالآخرين ، مختلطاً بهم ، ضائعاً بينهم ، مجهولاً خفياً . وقر بصره لحظة على الحزام . ثم رفعه نحوي في سخرية واحتقار . ولكنه عانقني برغم ذلك . ونزلنا معاً حتى باب الشارع ، فالتفت إليّ ليهتف بي : «إحمل كل هذا إلى بنك فرنسا» . وغام كل شيء أمام عيني ، وسمعتك تقولين له ضاحكة :

ـ أما هذا فلا تأمله منه . هذا كثير عليه .

ولما أغلقت الباب ، قلت لي وقد رأيتني جامداً في الدهليز :

ـ لقد كنت تعرف أنه لن يقبل ذهبك . اعترف بذلك . إنه كرم لا خسارة فيه .

فذكرت أن الحزام كان ما يزال على الأريكة ، وأن خادماً قد يكتشفه هناك ، فصعدت في سرعة ، وحملته مرة أخرى على كتفي لأفرغ محتواه في رأس ديموستين .

وتوفيت أمي بعد أيام ، فلم أكد أنتبه إلى موتها . كانت قد فقدت وعيها منذ سنين ولم تكن تسكن معنا . والآن فقط أفكر فيها كل يوم ، في أم طفولتي وشبابي ؛ أما صورة ما آلت إليه فقد أمحت . وأنا الذي أكره المقابر ، أذهب أحياناً إلى قبرها . ولم أعد أحمل إليه ورودا منذ عرفت أنها تسرق ، فالفقراء يختلسون ورود الأغنياء لحساب موتاهم . وكان ينبغي أن أحيط القبر بسياج حديدي ، ولكنه كثير التكاليف في هذه الأيام... أما لوك فليس له قبر . لقد اختفى ، فهو فتى مفقود لا يدرى مقره . وما أزال أحرص في محفظتي على البطاقة الوحيدة التي استطاع إرسالها إلي : «كل شيء على ما يرام . استلمت رسالتك . لك محبتي» . لقد كتب فيها : «لك محبتي» ، فلا يقل إني لم أفز من ابني المسكين بهذه الكلمة .

١١

هذه الليلة أيقظتني غصة ، فاضطررت إلى النهوض ، وجررت نفسي حتى مقعدي ، وفي ضجة الريح العاصفة قرأت هذه الصفحات الأخيرة ، فأذهلني ما تضمنه من خبايا نفسي . وقبل أن أبدأ الكتابة اتكأت على النافذة ، وقد هدأت الريح ، وكاليز تغفو خامدة الأنفاس تحت كل النجوم . وفجأة ، حوالي الساعة الثالثة بعد نصف الليل ، عادت تلك الزعازع ، وتلك الرعود في السماء ، وتلك القطرات الثقيلة القارسة . كانت شديدة الوقع على القرميد بحيث خشيت أن تنقلب برداً ، وحسبت قلبي يقف عن الوجيب .

منذ أيام قليلة جاوزت الكروم مرحلة الأزهار ، والقطاف المقبلة تغطي الهضبة ، ولكنها في وضعها تلك الحيوانات الصغيرة يربطها الصياد ويدعها في الظلمات ليجتذب الوحوش الكواسر : فحول الكروم العارية يدور السحاب المزمجر .

مالي الآن وللقطاف ؟ فما عدت أستطيع أن أجني شيئاً في هذا العالم . كل ما أستطيعه هو أن أزداد معرفة بنفسي . أصغي إليّ ، يا إيزا . ستكتشفين بعد موتي ، بين أوراقي ، وصيتي الأخيرة ، وقد كتبت في الأشهر التي أعقبت موت ماري حين كنت مريضاً وكنت شديد الجزع على الأولاد . وستجدين فيها جملة هذا نصها التقريبي : « إذا أنا قبلت ساعة

موتي خدمات كاهن ، فأنا أحتج منذ الآن ، وأنا كامل الوعي ، على ما قد يحدث من إساءة استثمار ضعفي الذهني والجسدي للفوز مني بما ينكره عقلي » .

فمن واجبي الآن أن أصارحك بهذا الاعتراف : إن الميل إلى المسيحية إنما يشغلني ، على عكس ما قلت هناك ، حين أنظر إلى ذاتي ، كما أفعل منذ شهرين ، في انتباه يغلب اشمئزازي ، أي حين أراني في أتم الوعي . فما أجرؤ أن أنكر أن في نفسي طريقاً يمكن أن تتأدى بي إلى ربك . ولو استطعت الرضى عن نفسي لكنت أشد أيداً في نضال هذا الميل اللجوج . ولو استطعت احتقار نفسي دون فكرة مبطنة لظفرت عليه إلى الأبد . ولكن قسوتي ، وعرى قلبي المقيت ، وهذا المزاج الذي يجعلني أبداً ألهم الحقد وأخلق من حولي الفلاة ، كل هذا لا يملك الظفر على الأمل... صدقيني ، يا إيزا : لعل ربك لم يجيء ، إن يكن جاء ، من أجلكم أنتم الصالحين ، بل من أجلنا نحن . إنك كنت تجهلينني فلم تعرفي من أنا . فهل جعلتني الصفحات التي قرأتها أقل في عينيك بشاعة ؟ إنك ترين أن فيّ ملمساً خفياً ، كانت تضرب عليه ماري بمجرد اكتنانها بين ذراعي ، ولوك الصغير أيضاً ، يوم الأحد ، حين يعود من الصلاة فيجلس على المقعد أمام البيت ويملي نظره المروج .

لا ، لا تحسبي أني أرفع كثيراً من شأن نفسي . إني أعرف قلبي ، هذا القلب ، هذه العقدة من الأفاعي ، يختنق بثقلها مشبعاً بسمها ، وما يزال يخفق تحت هذا الضجيج . عقدة الأفاعي هذه يستحيل حلها ، ويجب قطعها بضربة من سكين ، بضربة من سيف : « لم آت لأحمل السلام بل السيف » .

غداً ، قد أنكر ما أفضي به إليك هنا ، كما أنكرت الليلة إرادتي الأخيرة التي سجلتها منذ ثلاثين عاماً . لقد بدوت كارهاً أشد الكره كل ما تقولين به ، وما أزال على كرهي لمن يعتزون إلى المسيحية ؛ ولكن أليس كثيرون

منهم يقصرون من هذا الأمل ، ويشوهون صورة هذا «الوجه» ؟ ستقولين لي : بأي حق تحكم عليهم ؛ وأنت الشرير القبيح ؟ ولكن أليس في قباحتي ، يا إيزا ، شيء أكثر شبهاً من فضيلتهم برمز الصليب الذي تعبدين ؟ لا ريب أن ما أكتبه يبدو لعينيك تجديف ممسوس ، فيجب أن تبرهني لي على ذلك . لِمَ لا تكلمينني ؟ لِمَ لم تكلميني قط فعسى لفظة منك تصدع قلبي ؟ هذه الليلة ، يبدو لي أن الفرصة لم تفت بعد لكي نبدأ حياتنا من جديد . ترى أيحسن بي أن أسبق موتي وأسلمك هذه الصفحات ؟ ثم أستحلفك باسم ربك أن تقرئيها حتى النهاية ؟ ثم أرقب ساعة تنتهين ، فأراك تدخلين غرفتي تغسل الدموع وجهك وأفتح لك ذراعي أسألك المغفرة ، ثم يركع أحدنا على قدمي الآخر .

يبدو أن العاصفة انتهت ، فالنجوم ترعش قبيل الفجر . ولقد حسبت المطر يهطل من جديد ، لا ، إنها أوراق الشجر تقطر . أتراني مختنقاً إذا تمددت على سريري ؟ إني لم أعد أستطيع الكتابة ، ولقد أضع قلمي فيسقط رأسي على المسند الصلب...

ملأ السماء فجأة صفير حيوان ، ثم ضجة مدوية رافقها بريق . وفي الصمت الجازع الذي أعقب ذلك انفجرت قنابل على الهضاب يقذفها الكرامون لتبتعد سحائب البرد أو تنحل ماء . وانطلقت سهام نارية من الزاوية المظلمة التي يرتعد فيها بارساك وسوتيرن في انتظار الكارثة . وكان جرس سان فنسان ، الذي يطرد البرد ، يدق باستمرار كمن يغني في الليل جزعاً ، وبغتة سمعت على القرميد ضجة كأنما ألقيت قبضة حصباء... إنه البرد! ولو جاء قبل اليوم لوثبت إلى النافذة! كنت أسمع اصطفاق مصاريع النوافذ ؛ وناديت رجلاً يسرع في اجتياز الساحة : «أالضرر كبير ؟» فأجابك : «من حسن الحظ أن البرد ممزوج بالمطر ، ولكنه غزير» . وركض في الدهليز عاري القدمين طفل مذعور . وحسبت تبعاً لعادتي : «مئة ألف فرنك خسارة...» ولكني لم

أتحرك . ولو حدث هذا في سابق العهد لما أمسكني شيء عن النزول : ألم يجدوني ليلة في وسط الكروم ، في مبذلي ، وبيدي شمعتي المطفأة ، والبرد أتلقاه على رأسي ؟ كانت غريزة الفلاح العميقة تدفعني إلى أمام ، كما لو أردت أن أتمدد لأحمي بجسدي الكرم المرجوم . أما هذه الليلة فهأنذا أمسيت غريباً عما كان ، في أعمق المعاني ، ملكي . لقد فكت أخيراً قيودي . ما فكها يا إيزا ؟ من فكها ؟ لقد قطعت قلوسي وهأنذا أحيد عن طريقي السابق . أية قوة تجرني ؟ أهي قوة عمياء ؟ أم هي حب ؟ بلى ، لعلها حب...

القسم الثاني

١٢

باريس ، شارع بريا .

كيف فكرت في وضع هذا الكراس بين أمتعتي ؟ ومالي الآن وهذا الاعتراف الطويل وقد قطعت بأهلي كل الصلات ؟ وتلك التي من أجلها ، حتى الأعماق ، كنت أكشف هنا عن نفسي ، يجب أن تموت في عيني . فما جدوى العودة إلى هذا ؟ لا ريب أني كنت أجد فيه ، على غير علم مني ، خلاصاً وسلوى . ما أقوى النور الذي تلقيه على الأسطر الأخيرة ، المكتوبة ليلة البرد! ألم أكن على شفا الجنون ؟ لا ، لا ، لا تكن هنا حديث الجنون ، بل ما يجب أن أذكر حتى اسمه . إنهم خليقون أن يستخدموا ذلك ضدي إذا وقعت في أيديهم هذه الصفحات . على أنها منذ اليوم لا تساق إلى أي منهم ، ويجب أن أمزقها متى شعرت بتفاقم مرضي... هذا إذا لم أورثها لابني المجهول الذي جئت أطلبه في باريس . لقد كنت أتحرق رغبة في أن أخبر بوجوده إيزا ، في الصفحات التي ألمعت فيها إلى غرامياتي عام ١٩٠٩ ، حين كدت أعترف لها بأن صديقتي سافرت حاملاً لتختبئ في باريس...

ولقد حسبتني كريماً لأني كنت أرسل إلى الأم والابن ستة آلاف فرنك سنويا قبل الحرب ؛ وما فكرت قط في أن أزيد شيئاً على هذا المبلغ . فهي

خطيئتي إذن أنْ وجدت هنا شخصين أذلهما وأوهنهما العمل التاعس . ولقد تعللت بسكناهما في هذا الحي لأسكن ، في منزل في شارع بريا ، غرفة ضيقة لا أكاد أجد فيها ، بين السرير والخزانة ، مكاناً أجلس فيه لأكتب . ويا لها ضجة! لقد كان حي مونبارناس ، أيام شبابي ، هادئاً ساكناً ؛ أما الآن فكأنما يسكنه مجانين لا يعرفون النوم . وكانت أسرتي أقل منهم ضجة ، أمام المنزل في كاليز ، ليلة أن رأيت بعيني وسمعت بأذني... ولكن ما جدوى الرجوع إلى هذا ، وإن كانت نفسي لتثلج بتثبيت هذه الذكرى المؤلمة خلال القليل الذي بقي لي من العمر... وبعد ، فلم أمزق هذه الصفحات ؟ إن لابني ، لوارثي ، حقاً في أن يعرفني ؛ وهذا الاعتراف قد يعوضه بعض التعويض عن إهمالي إياه منذ ولادته .

وأسفا! لقد لقيته مرتين فكانتا كافيتين . إنه لن يفهم منه شيئاً ، هذا العامل المرؤوس ، هذا المتوحش الذي يغامر في سباق الخيل .

لقد كنت خلال سفرتي ، في الليل ، من بوردو إلى باريس ، أتخيل العتاب الذي سيوجهه إليّ ، وأهيئ دفاعي ، فما أشد انسياقنا إلى خيالات القصص والمسرح! إني لم أشك لحظة في أني مواجه ابناً حسيراً سامي الروح ؛ وكنت أضفي عليه طوراً نبل لوك وحيناً جمال فيلي . تنبأت بكل شيء ، إلا أن يكون شبيهي . ترى ، أفي الناس آباء يسرهم أن تقول لهم : « إن ابنك يشبهك ؟ » .

لقد عرفت الحقد الذي أحمله لنفسي وأنا أرى شبحي هذا أمامي . وما أحببت في لوك إلا ابناً لا يشبهني . أما روبير فلا يختلف عني إلا في نقطة واحدة ؛ وهي أنه لم ينجح مرة في امتحان ، حتى استغنى عن متابعة دراسته بعد إخفاقه المتكرر ، وأمه التي بذلت له دم قلبها تحتقره من أجل هذا ولا تهمل التعريض به في كل حين ؛ أما هو فيخفض رأسه ، ولا يعزيه شيء عن كل هذا المال المهدور . وهو هنا ابني حقاً . ولكن ثروتي التي أحملها إليه

تجاوز خياله المسكين ، فهو لا يدرك شأنها ولا يؤمن بها . بل إنه وأمه لفي خوف ، يقولان : ليس هذا بقانوني... وقد نمسك...» .

وهذه المرأة الضخمة الشاحبة ، ذات الشعر الحائل اللون ، والتي أرى فيها شبحاً لما كنت أحببت ، تشزرني بعينيها التي ما تزال حلوة وهي تقول : «لو كنت مررت بك في الطريق لما عرفتك...» وأنا ، أكنت أعرفها ؟ لقد كنت أخشى منها الحقد والقصاص ، كنت أخشى منها كل شيء ، إلا هذا الاهمال الكئيب . إنها مغيظة أرهقها العمل اليومي ثماني ساعات على الآلة الكاتبة ، فهي تجانب المشكلات ، وما تزال تفرق من العدالة التي كانت لها بها قديماً صلات سيئة . على أني شرحت لها اللعبة خير شرح : ليستأجر روبير صندوقاً باسمه في مؤسسة للدّين ، فأنقل إليه ثروتي ، ويعطيني وكالة بفتحه ، ويتعهد ألا يمسه حتى أموت . وأنا بالطبع أقتضيه أن يوقع على اعتراف بأن كل ما في الصندوق ملكي ، فما يسعني أن أضع نفسي تحت رحمة هذا المجنون . ولكن كلا الأم والابن يعترضان بأن المستند قد يكتشف بعد موتي ، ولا يريد هذان الأحمقان أن يدعا إلي تدبير الأمر .

وقد حاولت أن أقنعهما بإمكان الاطمئنان إلى وكيل دعاوي ريفي ، مثل بورّو الذي يدين لي بكل شيء والذي أعامله منذ أربعين سنة . وفي خزانته ظرف كتبت عليه : « يحرق يوم موتي » ، وهو سيحرق بلا ريب بكل ما يحويه ، وأستطيع أن أضع فيه إقرار روبير وأنا مطمئن إلى أن بورّو سيحرق هذا الظرف المختوم لأن فيه أوراقاً يعنيه أن يراها أن تختفي .

ولكن روبير وأمه يخشيان أن أموت فلا يحرق بورّو شيئاً ويظل يستثمرهما إلى الأبد . ولهذا فكرت في أمر آخر ، وهو أن أضع بين يديهما ما يكفي لأن يسوق المدعو بورّو إلى الأشغال الشاقة إذا حاول التلاعب . فيحرق بورّو الوثيقة أمامهما ، وحينئذ فقط يعيدان إليه الأسلحة التي أجهزهما بها . فماذا يطلبان وراء ذلك ؟ .

إنهما لا يفقهان شيئاً ، هذه الحمقاء وهذا الأبله . عنيدان ، أحمل إليهما الملايين ، وبدلاً من أن يجثوا أمامي كما كنت أتوقع ، يناقشان ويماحكان... وهب أن هناك بعض الخطر! أليست مغامرة تستحق العناء ؟ إنهما لا يريدان أن يوقعا على المستند ، ويقولان : «تكفينا مشقة التصريح بالأرباح... وستزعجنا المتاعب...» .

آه ، وددت لو أني لا أبغض الآخرين ، إذن لخبطت الباب في وجه هذين! إنهما يخشيان «الآخرين» أيضاً ، ويقولان : «سيكتشفون السر ، وسيرافقوننا إلى القضاء...» بل إن روبير وأمه ليتخيلان أن أسرتي قد أخبرت الشرطة ، وإني مراقب ، فما يوافقان على رؤيتي إلا في الليل أو في أحياء منعزلة ، كأني في صحتي الواهية أستطيع أن أسهر أو أن أقضي حياتي في السيارات! وما أظن «الآخرين» يشفقون من شيء ، فليست هذه سفرتي الأولى وحدي ، وليس ثمة شيء يحملهم على الظن بأني ، تلك الليلة في كاليز ، كنت أشهد سراً مجلسهم الحربي . وهم على أي حال لم يكتشفوا مقري بعد . ولن يمنعني شيء ، هذه المرة ، أن أبلغ وطري . فمتى أذعن روبير لرغبتي استطعت أن أنام في هدوء . ولن يقع هذا الجبان في هفوة .

واليوم هو الثالث عشر من يوليو . في وسط الريح تصدح الموسيقا ، وفي ناصية شارع بريا يرقص الناس . يا هدوء كاليزا! إني لأذكر الليلة الأخيرة التي قضيتها هناك : كنت قد تناولت ، برغم منع الطبيب ، قرصاً من «الفيرونال» ونمت بعده أعمق نوم ؛ ثم استيقظت فجأة ونظرت في ساعتي . كانت الواحدة بعد نصف الليل . وراعني أن أسمع عدة أصوات ، إذ كانت نافذتي مفتوحة . ولم يكن أحد في الباحة ولا في القاعة ، فذهبت إلى غرفة الزينة التي تطل على الشمال ، جهة الفناء . هناك كانت الأسرة قد أطالت سهرتها ، على غير عادة ؛ ففي هذه الساعة المتأخرة لم تكن تخشى أحداً ، إذ لا يشرف على هذه الناحية إلا نوافذ غرفة الزينة والدهليز .

وكانت الليلة هادئة دافئة . وفي فترات الصمت كنت أسمع تنفس إيزا القصير ، وصوت اشتعال عود كبريت . ولم تكن نسمة تهز شجيرات الدرداء السود . ولم أجرؤ على الانحناء ، ولكنني كنت أميز أعدائي كلا بصوته وضحكته . ولم يكونوا يتناقشون ، بل كنت أسمع فكرة تقولها إيزا أو جنفييف ، ثم يتبعها صمت طويل . وفجأة قال هوبير جملة ، فالتهب فيلي وأخذوا يتكلمون كلهم معاً :

ـ أواثقة أنت يا أم أن صندوق غرفته الحديدي لا يضم إلا أوراقاً غير ذات قيمة ؟ إن البخيل كثيراً ما يخطئ . تذكري الذهب الذي كان يريد إعطاءه للصغير لوك... أين كان يخفيه ؟ .

ـ لا ، فهو يعلم أني أعرف أن كلمة سر الصندوق هي «ماري» . وهو لا يفتحه إلا ليراجع وثيقة تأمين أو قسيمة ضريبة .

ـ ولكنها ، يا أم ، قد تدل على المبالغ التي يخفيها .

ـ كل ما هناك أوراق تتعلق بالأملاك غير المنقولة . لقد تحققت من ذلك .

ـ إن هذا جلي الدلالة . ألا ترون ذلك ؟ لقد اتخذ كل الاحتياطات .

فدمدم فيلي وهو يتثاءب :

ـ لا . ولكن تباً له من تمساح! هو حظي الذي أوقعني على تمساح كهذا .

فقالت جنفييف :

ـ وإذا أردتم رأيي ، فلن تجدوا شيئاً كذلك في مصرف «الليونيه»... ما تقولين يا جانين ؟ .

ـ لكأنه ، يا أم يحبك بعض الحب . ألم يكن لطيفاً معكما بعض الأحيان ، أنت وخالي ، حين كنتما طفلين ؟ لا ؟ إنكما لم تعرفا من أين يؤخذ ، لم تكونا لبقين ، وكان يجب أن تحاولا حياطته وغزو قلبه . أنا واثقة أني كنت أستطيع ذلك ، لولا شدة بغضه لفيلي .

فقاطع هوبير ابنة أخته في مرارة :

ـ من المؤكد أن وقاحة زوجك قد كلفتنا كثيراً...

وسمعت فيلي يضحك . وانحنيت قليلاً ، فرأيت على ضوء إحدى القداحات يديه الجميلتين وذقنه الطرية وفمه الغليظ . وقال :

ـ كلام فارغ! إنه لم ينتظرني ليشمئز منكم .

ـ لا ، قبلك كان أقل بغضاً لنا .

فرد عليه فيلي :

ـ أذكر ما ترويه أمك عن موقفه يوم ماتت ابنته الصغيرة... كان لا يبدو عليه أي اهتمام... وما وضع يوماً قدمه في المقبرة...

ـ لا يا فيلي ، إنك تذهب بعيداً . فإن يكن أحب أحداً في هذا العالم فهو ماري .

ولولا احتجاج إيزا هذا ، في صوتها الواهن المضطرب ، لما استطعت أن أتماسك . وجلست على كرسي خفيض ، وجسمي محني إلى أمام ، ورأسي على مسند النافذة . وقالت جنفييف :

ـ لو أن ماري كانت موجودة ، إذن لما حدث كل هذا ، وكان لا بد أن يميزها .

ـ كفى هذراً! لقد كان ينفر منها كما نفر من الآخرين . إنه وحش ، لا يعرف العواطف البشرية .

فاحتجت إيزا مرة أخرى :

ـ أرجوك يا فيلي ألا تتحدث بهذا الأسلوب عن زوجي أمامي وأمام أولاده . إن عليك له واجب الاحترام .

ـ الاحترام ؟ الاحترام ؟

وخيل لي أنه يهمهم : «إذا كنتم تظنون أني يسرني الانتساب إلى مثل هذه العائلة...» فقالت له حماته في جفاء :

ـ لم يجبرك أحد على ذلك .

ـ ولكنكم زينتم لعيني الآمال... آه! ها هي ذي جانين تبكي . ماذا ؟ ماذا قلت من شاذ ؟

وكان يدمدم : «آه ما شاء الله!» في صوت متعب . ثم لم أسمع شيئاً بعد ، إلا جانين تمتخط . وتمتم صوت لم أعرف صاحبه : «ما أكثر النجوم!» بينا كانت ساعة سان فنسان تعلن الثانية . وقالت إيزا :

ـ يا أولادي ، حان وقت النوم :

فاعترض هوبير بأنه لا يمكن الافتراق قبل الاتفاق على شيء ما ، وأن الأوان أوان العمل . ووافقه فيلي ، قائلاً إنه لا يحسب أني سأعمر طويلاً ، فإذا مت فلن يفوزوا بشيء لأني أكون اتخذت كل التدابير...

ـ ولكن ، يا أولادي ، ماذا تنتظرون مني ؟ لقد جربت كل السبل ، فما أستطيع شيئاً بعد .

فقال هوبير وهو يخفض صوته :

ـ بلى ، تستطيعين أن ...

بم كان يرطن ؟ لقد فاتني ما كنت في أشد الحاجة إلى معرفته ولكني فهمت من لهجة إيزا أنها صدمت وغيظت :

ـ لا ، لا أحب هذا كثيراً .

ـ لا يعنينا ، يا أم ، أن نعرف ما تفضلين ، بل أن ننقذ ميراثنا .

وأتبعت هذا دمدمات غامضة ، قطعتها إيزا بقولها :

ـ هذا كثير يا بني .

ـ ولكنك لن تستطيعي ، يا جدتي ، أن تظلي شريكته أمداً أطول . إنه لا يحرمنا الإرث إلا بإذنك . ففي صمتك موافقة له .

ـ جانين ، يا حبيبتي ، كيف تجرئين .

ويح إيزا كم ليلة قضت تعنى بهذه الصغيرة العاوية ، وقد نقلتها إلى غرفتها ليستطيع أبوها وأمها النوم ولأن أي ممرضة لم تكن تحتملها!... لقد

كانت جانين تتكلم في جفاء ، في لهجة تكفي وحدها ـ لو وجهت إليّ ـ لاخراجي عن طوري . وأضافت :

ـ يؤلمني أن أقول لك هذه الأمور ، يا جدتي ، ولكنه واجبي .

واجبها! هكذا كانت تسمي نداء جسدها ، وفزعها من أن يرذلها هذا السكير المتعطل الذي كنت أسمع ضحكته البلهاء .

ووافقت جنفييف على رأي ابنتها ، مؤكدة أن الضعف يمكن أن يغدو اشتراكاً في الاثم . فتنهدت إيزا وقالت :

ـ لعل أيسر السبل ، يا أولادي ، أن يكتب إليه .

فاعترض هوبير :

ـ لا ، إياك والرسائل! فما يهلكنا مثلها شيء . أرجو ، يا أم ، ألا تكوني قد كتبت إليه ؟

فاعترفت بأنها كانت كتبت إليّ مرتين أو ثلاث مرات .

فترددت إيزا في اعترافها . أما أنا فكنت أضحك... أجل ، لقد كتبت إلي رسائل أحفظها في حرز ، منها اثنتان تحويان سباباً خطيرة ، وثالثة فيها بعض الرقة ، كفيلة بأن تجعلها تخسر كل دعاوى طلب التفريق التي قد يقنعها بأن ترفعها علي هؤلاء الأولاد المناكيد... ونالهم القلق جميعاً ، كما يعوي كلب فيأخذ بالدمدمة كل سربه .

ـ ألم تكتبي إليه ، يا جدتي ، أية رسالة خطرة ؟

ـ لا ، لا أظن... على أن بورو ، وكيل الدعاوى في سان فنسان ، الذي يملك زوجي عليه سلطة لا أدري وسيلتها ، قال لي مرة وهو يتباكى (فهو تارتوف سافل) : «لقد أخطأت إذ كتبت إليه...» .

ـ وماذا كتبت إليه ؟ أرجو ألا يكون سباباً...

ـ مرة ملامة فيها بعض الغلو ، بعد موت ماري . وأخرى ، في العام ١٩٠٩ ، حول علاقة له بامرأة ، كانت أكثر جداً من غيرها .

وكان هوبير يدمدم بقوله : «هذا خطر جداً خطر...» ، فحسبت أنها مطمئنة بقولها إنها أصلحت الأمور فيما بعد ، برسالة أظهرت فيها أسفها وأقرت بخطئها . فصاح :

ـ آه ، ما شاء الله! هذه ثالثة الأثافي...

ـ ليس بعد اليوم ما يخشاه من دعوى تفريق...

ـ ولكن ما يثبت لكم ، على أي حال ، أن نواياه سوداء إلى هذا الحد ؟

ـ لسنا عمياً ولله الحمد!... ألا يكفي إسراره عملياته المالية ، وتلميحاته ، وهذه الكلمة التي فرطت من بورّو أمام شاهد : «سيفقدون عقلهم ، يوم موت العجوز...» .

وأخذوا يتناقشون كأن إيزا المسكينة لم تكن حاضرة ، فنهضت من مقعدها تتنهد ، وقالت إنها أخطأت بالبقاء خارجاً ، أثناء الليل ، وهي المصابة بالرئية . فلم يتكلف الأولاد عناء إجابتها ، وسمعتهم يقولون لها : «ليلة سعيدة» دون أن يقفوا عن حديثهم . ولم يعنوا أنفسهم بالذهاب إليها فاضطرت هي إلى أن تدور عليهم لتقبلهم . فعدت إلى سريري احترازاً ، وكانت خطاها الثقيلة تدب على السلم ، وبلغت بابي فسمعت نفسها المرهق ، ووضعت شمعتها على الأرض وفتحت الباب ، فوقفت جدَّ قريب من سريري ، وانحنت عليّ ، تريد بلا ريب أن تتحقق من أني نائم . يا طول ما ظلت محنية ، حتى لأشفقت أن يفتضح الأمر! وكانت تتنفس أنفاساً متقطعة صغيرة . وأخيراً أغلقت بابي ، فلما أن ارتجت بابها عدت من جديد إلى مركز الاصغاء في غرفة الزينة .

وكان الأولاد ما يزالون هناك ، وقد خفضوا صوتهم في الحديث ، فكان يفوتني الكثير منه . وسمعت جانين تقول :

ـ يجب ألا ننسى أنه لم يكن ابن بيئته . فيلي ، حبيبي ، إنك تسعل . ضع معطفك .

فقالت جنفييف :

ـ الحق أنه يبغضنا أكثر مما يبغض امرأته . شيء لا يتصوره العقل ، لم يره أحد حتى في الكتب . وليس لنا أن ننتقد أمنا ، ولكني أرى أنها لا تحقد عليه الحقد الكافي .

ـ أمر طبيعي! (كان ذلك صوت فيلي) إنها لن تخسر بائنتها على أي حال . ولا ريب أن أسهم شركة السويس تلك ، التي قدمها لها فوندوديج العجوز منذ ١٨٨٤ ، قد قفزت أسعارها كثيراً...

ـ أسهم السويس ؟ لقد بيعت...

وتعرفت لجلجة ألفريد زوج جنفييف ، هذا المسكين الذي لم يكن فاه بكلمة بعد . فقاطعته جنفييف بلهجتها الشرسة الزاجرة التي تختصه بها :

ـ أمجنون أنت ؟ أسهم السويس بيعت ؟

وحينئذ روى ألفريد أنه ، في شهر مايو ، دخل على حماته في اللحظة التي كانت فيها توقع على بعض الأوراق ، وإنها قالت : «يبدو أن هذا أوان بيعها ، فهي في أعلى أسعارها الآن ، ولن تلبث أن تهبط» .

فصاحت جنفييف :

ـ ولِمَ لَمْ تخبرنا ؟ تباً لك من أحمق! لقد جعلها تبيع أسهم السويس ، وأنت تروي لنا هذا كما تتحدث عن أتفه الأشياء ؟...

ـ ولكن ، يا جنفييف ، لقد كنت أحسبها تطلعكم على كل شيء . وما دامت قد تزوجت وفق نظام البائنة[1] ...

---

(١) نظام البائنة في فرنسا نوع من عقود الزواج المدني غرضه المحافظة على بائنة الزوجة وإرجاعها إليها ، فلا يجوز للزوج بيعها ولا التصرف بها .

ـ نعم ولكن ألم يستولي على أرباح البيع ؟ ما رأيك يا هوبير ؟ وهذا السخيف الذي لم يخبرنا...

فتدخلت جانين لترجوهم أن يخفضوا صوتهم كيلا يوقظوا ابنتها الصغيرة ، فمضت دقائق لم أتبين خلالها كلمة . ثم ارتفع ثانية صوت هوبير وهو يقول :

ـ أفكر فيما كنتم تقولون منذ حين . وأظن أننا من هذه الناحية لن نستطيع الافادة من أمي . ويجب على الأقل أن نعدها للأمر تدريجياً...

ـ لعلها تفضل هذا على التفريق . فمنذ غدا ضرورة أن ينتهي التفريق إلى الطلاق ، لم يعد ضميرها يرضاه... ولا ريب أن ما كان يقترحه فيلي يصدم للوهلة الأولى ، ولكنا لن نكون حكاماً ، ولن يكون القرار بيدنا آخر الأمر . فكل عملنا ينحصر في إثارة القضية ، ولن تحدث إلا إذا وافقت السلطات المختصة على ضرورتها .

فقالت أولمب :

ـ أما أنا فأكرر لكم أنها ستكون طعنة في الهواء .

ولا ريب أن امرأة هوبير لم تكن لترفع صوتها على هذه الصورة لو لم تكن حقاً مغضبة . وقد أكدت أني رجل متزن سليم الرأي ، وأضافت : «أعترف أني أوافق في الغالب على رأيه ، ولولا أنكم تفسدون أبداً ما بدأت لأدَرْتُه بين أصابعي كالخاتم...» .

ولم أسمع القحة التي ينتظر أن يكون أجاب بها فيلي ، ولكنهم كانوا يضحكون جميعاً ، شأنهم في كل مرة تفتح فيها أولمب شفتيها وتبينت شذرات من جمل :

ـ هو منذ خمس سنوات لا يرافع ، لا يستطيع أن يرافع .

ـ بسبب قلبه ؟

ـ حالياً ، نعم . ولكنه حين ترك المحكمة لم يكن مريضاً إلى هذا الحد . والحقيقة أنه كان في نزاع مع زملائه ، وأن مشادات وقعت في بهو المحكمة ، وقد جمعت عنها بعض الشهادات...

وعبثاً أصخت سمعي ، فلقد قرب فيلي وهوبير مقعديهما الواحد من الآخر ، ولم أسمع إلا همساً غامضاً ، ثم قولة أولمب هذه :

ـ ما شاء الله! إنه الرجل الوحيد الذي أستطيع التحدث معه عن مطالعاتي ، ومبادلته الأفكار العامة ، وتريدون...

وتبينت ، من إجابة فيلي ، كلمة «مهبولة» . فقال أحد أصهار هوبير ، وهو رجل نادر الكلام في صوته خنة :

ـ أرجوك أن تكون مهذباً مع حماتي .

فاحتج فيلي بأنه كان يمزح . ألم يكونا كلاهما ضحية ؟ فلما أكد له صهر هوبير بصوت راعش أنه لا يعد نفسه ضحية وأنه تزوج امرأته زواج حب ، هتف الجميع في صوت واحد : «وأنا أيضاً ، وأنا أيضاً ، وأنا أيضاً» فقالت جنفييف لزوجها ساخرة :

ـ لك الله! وأنت أيضاً ؟ أتزعم أنك تزوجتني دون أن تعرف ثروة أبي ؟ تذكر أمسية خطبتنا ، حين قلت لي : «لن يضيرنا أن يحدثنا بثروته أو أن يكتمها عنا ، ما دمنا نعرف أنها ضخمة!»

وضحك الجميع ضحكة عالية ، ثم رفع هوبير ثانية صوته ، وتكلم وحده بعض الوقت ، ولكني لم أسمع إلا الجملة الأخيرة :

ـ إنها مسألة أخلاق ، مسألة عدالة قبل كل شيء . ونحن إنما ندافع عن ميراث العائلة وحقوقها المقدسة .

وفي الصمت العميق الذي يسبق الفجر كانت أحاديثهم تبلغني أكثر وضوحاً :

ـ أنطلب ملاحقته ؟ إن له في الشرطة صداقات كثيرة لدي الدليل

عليها ، وسيخطرونه بالأمر... (وبعد فترة) كل الناس يعرفون قسوته وضراوته ، ويجب القول إن أمانته كانت موضع الشك في مرتين أو ثلاث مرات . إما التفكير السليم ، وإما الاتزان...

ـ على أي حال لا يمكن لأحدٍ أن ينكر ما في عواطفه نحونا من مخالفة للذوق والانسانية والطبيعة .

فقال ألفريد لابنته :

ـ إن عواطفه ، يا جانين العزيزة ، لن تكفي لاصدار الحكم عليه .

وفهمت ما يريدون . وهيمن في قلبي هدوء رحب ، واطمئنان إلى هذه الحقيقة : هم الوحوش ، وأنا الضحية . وسرني أن تكون إيزا غائبة ؛ فلقد احتجت خلال وجودها بعض الاحتجاج ، ولو ظلت بينهم لما جرؤوا أن يلمحوا أمامها إلى هذه المشروعات التي سمعتها عرضاً ، التي لا تخيفني على أي حال . ما أشد بلاهتهم! يحسبون أن في وسعهم أن يحجروا علي أو يحبسوني! هيهات! في غمضة عين أستطيع أن أرمي هوبير في أعقد المشكلات . إنه لا يدري أن زمامه بيدي . أما فيلي فلدي ملف باسمه ، لم يخطر لي قط أن أستخدمه ، ولن أستخدمه : يكفيني أن أكشر عن أنيابي .

وللمرة الأولى في حياتي اطمأنت نفسي إلى أني أقلهم شراً . فما كانت بي رغبة الانتقام منهم ، أو على الأصح ، لم أكن أطلب انتقاماً في غير حرمانهم من هذا الميراث الذي يذوون من حوله جزعاً ويندون غصة .

وهتف فيلي :

ـ نجمة مذنبة!... فات الوقت ولم أدع بشيء .

فقالت جانين :

ـ أبداً يفوتنا الوقت!

فرد زوجها ، بمرحه الصبياني الذي ظل محتفظاً به :

ـ حين ترين واحدة أخرى ، صيحي : «ملايين!» .

ـ يا له من أبله ، فيلي هذا!

ونهضوا جميعاً . وأزاحت المقاعد حصباء الحديقة . وسمعت صوت رتاج المدخل ، وضحكات تحبسها جانين في الدهليز . وأغلقت أبواب الغرف واحداً بعد واحد ، بينا كنت أحزم أمري ، مفكراً في أني منذ شهرين لم أكن أصبت بنوبة ، وأن ليس ما يمنعني السفر إلى باريس . ولقد كنت عادة أسافر دون أيذان ، ولكني لم أرد أن يكون سفري هذه المرة شبيهاً بالفرار . وظللت حتى الصباح أستعيد خططي القديمة ، وأجددها .

١٣

ولم أكن أستشعر ، حين استيقظت ظهراً ، أي تعب . وجاءني بورو بعد الغداء ، وقد دعوته بالهاتف ، فتمشينا حوالي ثلاثة أرباع الساعة تحت أشجار الزيزفون ، وإيزا وجنفييف وجانين يرقبننا من بعيد فأبتهج لغمهن . ويؤسفني أن الرجال كانوا في بوردو ؛ وهم يقولون عن هذا الوكيل العجوز : «بورو هو روحه الملعونة» ، بينا يخضع هذا المسكين لسلطاني أشد مما يخضع عبد ، ولقد كان ذلك اليوم يتخبط بين يدي كيلا أسلم وريثي المنتظر أسلحة ضده ، فكنت أقول له : «ولكنه سيسلمك إياها منذ أن تحرق وثيقة الاعتراف الموقعة من قبله...» .

وحين غادرنا حيا السيدات تحية مبالغة أجبن عليها بإيماءة ، وركب دراجته في كلال . وذهبت إلى النساء الثلاث فأعلنتهن أني مسافر إلى باريس في المساء نفسه . واعترضت إيزا بأن في سفري وحدي ، وصحتي واهية ، كثيراً من التهور ، فأجبت :

ـ لا بد لي من الاهتمام بديوني ، فأنا أفكر في أمركم ، وإن لم يبد ذلك علي .

وكن يرقبنني في قلق ، ولهجتي الساخرة تفضحني ، فنظرت جانين إلى أمها ، وجرؤت على القول :

إن جدتي أو عمي هوبير يستطيعان أن يقوما مقامك في هذا الأمر .

إنها فكرة يا ابنتي ، ما أطيبها فكرة!... ولكن... لقد تعودت أن أصرف شؤوني بنفسي . وأنا أعلم أن هذا سيء ، ولكني لا أثق بأحد .

ـ حتى بأولادك ؟ جدي ، هذا كثير!

وكانت تغير كلمة «جدي» بلهجة فيها بعض التصنع ، متفنجة مغرية ، مرنة بصوتها المثير ، هذا الصوت الذي سمعته في الليل ، ممزوجاً بأصوات الآخرين... وحينئذ أخذت أضحك ، انطلقت مني تلك القهقهة الخطرة التي تجعلني أسعل ، والتي كان جلياً أنها تفزعهن . ولن أنسى قط هذا الوجه المسكين ، وجه إيزا ، ومظهرها المضنى ؛ ولا ريب أنها كانت تلقت بعض الهجمات ، وأن جانين كانت ستعود سيرتها الأولى متى أوليتهن ظهري ، قائلة لها : «لا تدعيه يسافر ، يا جدتي...» .

ولكن امرأتي لم تكن بالمرأة المهاجمة . لقد وهت قواها ، آخر الشوط ، فهي منهكة مهزولة . ولقد سمعتها منذ أيام تقول لجنفييف : «وددت لو أغفر ، لو أنام ، ثم لا أستيقظ من بعد...» .

ولقد كانت تثير شفقتي كما أثارتها من قبل أمي المسكينة ، إذ كان الأولاد يدفعون ضدي هذه الآلة القديمة المتفككة ، العاجزة عن العمل ، وإن كانوا بلا ريب يحبونها على طريقتهم ، ويجبرونها على أن تستشير الطبيب ، وأن تعمد إلى الحمية في الطعام . وابتعدت ابنتها وحفيدتها ، فاقتربت مني وقالت مسرعة :

ـ أصغ إلي . أنا في حاجة إلى مال .

ـ ما نزال في العاشر من الشهر ، وقد أعطيتك مخصص الشهر في أوله .

ـ صحيح . ولكني اضطررت إلى إقراض جانين بعض المال . إنها في عسر شديد . وسأقتصد في كاليز فأعوضك في شهر أغسطس .

فأجبت بأن هذا لايعنيني ، وأني لست مجبراً على تقديم القوت للمدعو فيلي .

ـ إن عليّ ديناً متأخراً لدى القصاب ، ولدى البقال... خذ وانظر...

وأخرجت من جيبها القوائم ، فأثارت شفقتي وعرضت عليها أن أمضي لها حوالات مالية ، بحيث أكون واثقاً أن المال لن يذهب في سبيل آخر . فوافقت ، فأخرجت مجموعة حوالاتي ولاحظت جانين وأمها يرقباننا في ممر الورود ، فقلت :

ـ أنا واثق أنهما تتخيلان أنك تحدثينني في أمر آخر .

فرعشت إيزا ، وسألت في صوت خفيض : «في أي أمر ؟» وفي هذه اللحظة استشعرت الانقباضة في صدري ، وبيدي المتقلصتين قمت بالحركة التي تعرفها تمام المعرفة . فاقتربت وسألت :

ـ أتتألم ؟

فتعلقت بذراعها لحظة ، وبدونا وسط ممر الزيزفون زوجين يقضيان أيامهما الأخيرة بعد سنوات من اتحاد وثيق . ولعلها كانت تفكر أنها في اللحظة المواتية للكلام ، في الفرصة الوحيدة ؛ ولكنها كانت فقدت القوة على ذلك ؛ ولاحظت كيف كانت ، هي إيضاً ، لاهثة مبهورة النفس . ولقد استطعت برغم مرضي أن أقف في وجوههم جميعاً ؛ أما هي فاستسلمت وأعطت ذاتها ، فما بقي لها من شيء خاص .

وكانت تبحث عن كلمة ، وتدور بعينيها خلسة وجهة ابنتها وحفيدتها لتكسب شجاعة . وتبينت في نظرتها المرفوعة نحوي كلالا لا اسم له ، وشيئاً من الشفقة وبعض الخجل . فلا ريب أن الأولاد قد جرجروها تلك الليلة .

وقالت لي أخيراً :

ـ يقلقني أن أراك تسافر وحدك .

فأجبتها بأني لا أرى ، إذا أصابني مكروه خلال السفرة ، أن يكلفوا أنفسهم عناء نقلي إلى هنا .

فنشدتني الله ألا ألمح إلى هذا الأمر ؛ وحينئذ أضفت :

ـ سيكون تبذيراً لا معنى له ، يا إيزا . إن أرض المقابر هي هي في كل مكان .

فتنهدت قائلة :

ـ وأنا مثلك ليضعوني حيث شاءوا . كان كل أملي ، قديماً ، أن أسجى قريباً من ماري... ولكن ما بقي من ماري ؟

وفهمت ، هذه المرة أيضاً ، أن ماري العزيزة كانت لديها هذا التراب ، هذه العظام . ولم أجرؤ على القول إني ، منذ سنوات ، أشعر بحياة ابنتي وأتنشاها ، وإنها طالما اجتازت حياتي المظلمة ببرق مفاجئ .

وذهبت هدراً نظرات جنفييف وجانين ؛ فقد كانت إيزا تبدو متعبة . أتراها كانت تسبر تفاهة ما ناضلت من أجله مدى سنين ؟ لقد كان هوبير وجنفييف ، مدفوعين بمطالب أولادهما ، يرميان في وجهي بهذه المرأة العجوز ، إيزا فوندوديج الفتاة المعطار التي عرفتها في ليالي بانيير .

فنحن في صراع منذ قريب من نصف قرن . ولكن في هذا الأصيل المثقل استشعر الخصمان الرباط الذي يخلقه ، برغم الصراع الطويل ، تعاونهما على الشيخوخة . لقد قضينا العمر في مظاهر من الحقد ، فوصلنا آخر الأمر إلى نقطة واحدة . ولم يكن ، فيما وراء هذا المرتفع الذي وقفنا عنده ننتظر الموت ، من شيء نرجوه ، شيء أرجوه أنا على الأقل ، أما هي فقد بقي لها ربها ، ربها وحده إذ كل ما كانت كلفة به كلفي أنا انهار في لحظة ، واختفت كل تلك الشهوات التي كانت تقوم بينها وبين الكائن المطلق . أتراها رأته إذ ذاك ، ولم يعد يحجبه دونها شيء ؟ لا ، لقد بقيت

لها نوازع أولادها وأطماعهم . كانت مكلفة برغباتهم ، وكان عليها أن ترجع إلى قسوتها نيابة عنهم . فهموم المال والعافية ، وتصورات الطمع والحسد ، كل أولئك كان أمامها ، كفروض مدرسية كتب عليها المعلم : «تعاد» .

ودارت بنظرها ثانية وجهة الممر الذي كانت فيه جنفييف وجانين تحملان مقصين وتتظاهران بتشذيب شجيرات الورد ، ومن المقعد الذي جلست عليه كي أستريح ، كنت أنظر إلى امرأتي تبتعد ، محنية الرأس ، كطفل يتوقع أن يوبخ . وكانت الشمس الشديدة الوطأة نذيراً بالعاصفة . وكانت تخطو خطوات امرأة يؤلمها المشي ، وخيل لي أنها تئن متوجعة... إن زوجين عجوزين لا يتباغضان أبداً بالقدر الذي يتوهمانه .

ووصلت إلى حيث ابنتها وحفيدتها ؛ ولا ريب أنهما وجهتا لها اللوم والعتاب ، إذ رأيتها ترتد فجأة نحوي محمرة لاهثة . وقعدت إلى جانبي وهي تزفر :

ـ هذه الأيام العاصفة تتعبني ، وضغط دمي فيها يزداد... أصغ إليّ يا لويس . هناك أمر يقلقني... ما فعلت بثمن أسهم السويس التي كانت بائنتي ؟ أعرف أنك طلبت إليّ أن أوقع على أوراق أخرى...

فذكرت لها الربح الضخم الذي حققته من أجلها عشية هبوط الأسهم ، وأفهمتها كيف اشتريت لها بدلاً منها سندات :

ـ بائنتك حبلت وولدت ، يا إيزا... فحتى إذا حسبنا حساب سقوط الفرنك ، سيبهرك الربح . وكل هذا مقيد باسمك ، في مصرف الويستمنستر ، بائنة وربحاً . وليس للأولاد بهذا أية علاقة... ويمكنك أن تقري بالاً ، فأنا سيد مالي وما أنتجه ، ولكن مالك هو لك فاذهبي وطمئني ملاكي الرحمة ، هناك...

فأخذتني من يدي ، فجأة . وقالت :

ـ لِمَ تكرههم ، يا لويس لِمَ تبغض أسرتك ؟
ـ أنتم الذين تكرهونني ، أو على الأصح ، أولادي يكرهونني . وأنت... لا تعنين بي ، إلا أن أغيظك أو أخيفك...
ـ تستطيع أن تضيف : «أو أعذبك...» أتحسب أني لم أتألم قديماً ؟
ـ كلام فارغ! ما باليت قط غير الأولاد...
ـ كان لا بد لي أن أتعلقهم . وهل بقي لي غيرهم شيء ؟ (ثم في صوت خفيض) لقد أهملتني وخدعتني منذ السنة الأولى ، كما تعرف .
ـ يا إيزا المسكينة ، إنك لن تستطيعي إقناعي إن مغامراتي الطائشة قد أزعجتك كثيراً ، إلا في أنانيتك ، أنانية المرأة الشابة ، ربما...
فضحكت ضحكة مريرة ، وقالت :
ـ إنك تبدو صادقاً! أنت الذي عميت عن كل شيء...
ورعشتُ أملاً (وهذا قول غريب ، ما دام الحديث عن عواطف طواها الزمن) ، أجل ، أملاً في أني كنت محبوباً ، قبل أربعين سنة ، على غير علم مني... ولكن لا ، لم أصدق ذلك وقلت لها :
ـ إنك لم تنبسي بكلمة أو بصيحة... كنت مكتفية بأولادك .
فأخفت وجهها بيديها ، ولم أكن لحظت من قبل عروقهما البارزة وبقعهما... وقالت :
ـ أولادي!... لقد حرمت نفسي خلال سنوات عديدة ، منذ أصبحت لكل منا غرفته الخاصة ، من أن أبقي أحدهم عندي في الليل ، حتى أثناء مرضهم ، لأني كنت أنتظرك ، كنت أرجو أبداً مجيئك .
وسالت على يديها الواهنتين دموع . تلك كانت إيزا ؛ ووحدي كنت أستطيع أن أتعرَّف ، في هذه المرأة الثقيلة العاجزة ، تلك الفتاة التي نذرت نفسها للثياب البيض على طريقة وادي الزنبق .
ثم قالت :

ـ هذه العودة إلى تلك ؛ الأمور ، وقد أمسيت عجوزاً ، مخجلة سخيفة...
أجل ، سخيفة . سامحني يا لويس .

وكنت أنظر إلى الكروم ، دون جواب . ومر بي في تلك اللحظة خاطر : يشاركنا في حياتنا كائن مدى نصف قرن ، ثم يمكن ألا نرى إلا جانباً واحداً منه ؟ أيمكن أن نسمع أقواله ونرى حركاته ، ثم تقودنا العادة إلى ألاّ نستبقي منها إلا ما يغذي شكوانا ويزيد حقدنا نغلاً ؟ نزعة قاسية إلى تبسيط الآخرين ، وحذف لكل السمات التي قد تلطف نظرتنا إليهم ، وتقرب من الانسانية الصورة التي يفتقر إليها حقدنا ليبرر ذاته... أتكون إيزا رأت اضطرابي ؟ فلقد سارعت إلى محاولة تسجيل ظفرها الأول ، بقولها :

لعلك عدلت عن السفر هذا المساء ؟

وبدا لي أني شمت في عينيها ذلك البريق الذي يعروهما كلما حسبت أنها غلبتني ، فاصطنعت الدهشة ، وأجبت أني ليس لديّ ما يدعو إلى تأجيل سفري . وصعدنا معاً إلى المنزل ، فلم نسلك العقبة الصاعدة ، مداراة لضعف قلبي ، بل ممر الزيزفون الذي يدور حول المنزل . على أني ، برغم كل شيء ، ظللت حائراً مضطرباً : هل يجب ألا أسافر ؟ هل أعطي إيزا هذا الكراس ؟ هل... ؟ وأسندت يدها إلى كتفي . منذ متى لم تقم بهذه الحركة ؟ وانتهى الممر أمام المنزل ، وقالت إيزا :

ـ كازو يهمل دائماً تنظيم مقاعد الحديقة...

فنظرت في ذهول . كانت المقاعد الخالية ما تزال تكون دائرة ضيقة ؛ فلقد شعر الذين كانوا يحتلونها بضرورة التقارب ليتكلموا في صوت خفيض . وكانت ما تزال على الأرض آثار الأقدام ، وفي كل مكان أعقاب اللفائف التي يدخنها فيلي . هنا كان العدو يخيم ، تلك الليلة ، وقد عقد مجلسه تحت النجوم . هنا ، في منزلي ، وأمام الأشجار التي زرعها أبي ، تآمر على حبسي والحجر عليّ . ولقد كنت ، في مساء ذليل ، شبهت قلبي بعقدة الأفاعي ؛

لا ، لا : إن عقدة الأفاعي خارجة عني ؛ ولقد انطلقت الأفاعي مني وكانت تلتف ، تلك الليلة ، وتكوّن هذه الدائرة البغيضة في أسفل الفناء ، وما يزال أثر مرورها على التراب .

وقلت في نفسي : ستجدين مالك يا إيزا ، مالك الذي ثمرته أنا ، ولكن مالك وحده ولا شيء سواه . حتى هذه الممتلكات نفسها سأجد سبيلاً إلى حرمانهم منها . سأبيع كاليز ، وسأبيع الأراضي . وكل ما أتاني من أسرتي سيئول إلى ذلك الابن المجهول ، ذلك الغلام الذي سألتقي به من الغد . مهما يكن شأنه فهو لا يعرفكم ، وهو لم يشترك في مؤامراتكم ، ولقد ربي بعيداً عني فلن يستطيع أن يبغضني ، وإذا أبغضني فإنما يبغض كائناً مجرداً لا يعرفه ، ولا علاقة له بذاتي...

وتخلصت منها في غضب ، وقفزت مسرعاً درج المدخل ، ناسياً قلبي العجوز المريض . وصاحت إيزا : «لويس!» فما رضيت حتى الالتفات .

١٤

لم أستطع النوم فارتديت ثيابي من جديد وخرجت إلى الشارع . وقد اضطررت ، كيما أبلغ شارع مونبارناس ، أن أشق لنفسي طريقاً في زحمة الراقصين . لقد كان الناس في الماضي ، حتى الجمهوري العنيف منهم كشأني ، يتجنبون أعياد ١٤ يوليو ؛ ولم يكن يخطر لأي رجل جدي أن يشارك في مباهج الشارع . أما هذا المساء فليسوا بأوباش ، أولئك الذين يرقصون في شارع بريا وحول «الورتوند» ، وما بهم من حقارة ؛ بل كلهم فتي قوي عاري الرأس ، وبعضهم يرتدي قمصاناً مفتوحة قصيرة الأكمام . وبين الراقصات قليل من فتيات الشارع . وكلهم يتعلقون بدواليب السيارات التي تقطع لعبهم ، ولكن في لطف ونفس ضاحكة . ولقد كاد شاب أن يوقعني على الأرض ، دونما تعمد ، فلم يلبث أن صاح : «طريقاً للشيخ الوقور!» فمررت بين سياجين من نضر الوجوه . وهتف بي فتى أسمر قصير الشعر : «ألم تنعس يا جدي ؟» ـ فلو أن لوك كان حياً لتعلم الضحك كهؤلاء والرقص في الشارع ؛ ولكنت تعلمت ذلك منه ، أنا الذي ما عرفت أبداً كيف يفرج المرء عن نفسه وكيف يلهو ، ولكان جيبه أكثر جيوبهم امتلاء فما يفتقر إلى مال... ولكن تراباً ملء فمه... ذلك كان مجرى أفكاري بينا كان صدري يضيق بالغصة المألوفة ، وأنا جالس أمام إحدى القهاوي وسط المرح الصاخب .

وفجأة ، وسط الجمهور الذي ينساب بين الأرصفة ، رأيت نفسي : كان ذلك روبير مع رفيق له زري الهيئة . هاتان الساقان الطويلتان ، ساقا روبير ، وهذا الجذع القصير كجذعي ، وهذا الرأس المنغرس من الكتفين ، إني لأكرهها . فعنده تتفخم كل عيوبي ، أنا طويل الوجه ، أما هو فله وجه حصان ، وجه أحدب ، وصوته أيضاً صوت أحدب . ولقد ناديته فترك صديقه وجال بنظره فيما حوله بادي القلق . ثم قال لي :

ـ لا يصح جلوسنا هنا . تعال إلى لقائي على الرصيف الأيمن ، في شارع كامباني بروميير .

فنبهته إلى أننا لن نجد مكاناً للاختفاء أصلح من وسط هذا الزحام ، فاقتنع ، وودع صديقه وجلس إلى مائدتي .

وكانت في يده جريدة رياضية ؛ فأردت أن أنقذ اللجنة من وقر الصمت بالحديث عن الخيل إذ كان عودني ذلك قديماً فوندوديج العجوز ؛ فقصصت على روبير أن هذا الرجل كان حين يراهن يدخل في انتقائه أكثر العناصر تنوعاً ، فلا يكتفي بأصل الحصان بل يرجع في انتقائه إلى طبيعة الأرض التي يفضلها... فقاطعني بقوله :

ـ أما أنا فأستلهم رأي بعض الناس عند درماس (كان ذلك اسم مخزن الأقمشة الذي انتهى إليه ، في شارع بيتي شان) .

ثم إن ما كان يعنيه هو الربح ، أما الخيول فتزعجه . وأضاف :

ـ ما أحبه أنا هو الدراجة .

والتمعت عيناه ؛ فقلت له :

ـ وعن قريب السيارة...

ـ يا ليت!

وبل إبهامه برضابه ، وأخذ لفافة فوضع فيها التبغ ، وعاد الصمت مرة أخرى ، فسألته عن أعمال المتجر الذي يعمل فيه هل تأثرت بالأزمة القائمة ،

فأجابني أنهم سرحوا بعض العمال ، أما هو ففي مأمن من هذا الخطر . ولم تنطلق أفكاره لحظة من حدود أضيق الدوائر الفردية… وقلت في نفسي : «على هذا الوحش ستنزل الملايين ؟ لِمَ لا أعطيها المؤسسات الخيرية ؟ لِمَ لا أوزعها يداً بيد ؟ لا ، إنهم إذ ذاك يستطيعون الحجر علي… وإذن فبالوصية ؟ لا ، إذ يستحيل تجاوز النسبة المحددة… آه يا لوك… لو كنت حياً ؟ » نعم إنه لم يكن يقبل ، ولكني كنت ولا بد واجداً سبيلاً إلى إغنائه دون أن يعرف مصدر المال ، كأن أقدم البائنة للفتاة التي يحبها…

ـ قل لي يا سيدي…

كان روبير يداعب وجنته بيده الحمراء ذات الأصابع الدموية .

ـ لقد فكرت : لو أن هذا الوكيل ، بورّو ، مات قبل أن نحرق الوثيقة…

ـ إذن يخلفه ابنه . والسلاح الذي سأبقيه بين أيديكما تجاه بورّو يصلح أيضاً تجاه ابنه .

وظل روبير يدغدغ خده .

ولم أحاول الكلام بعد ، إذ كان ضيق صدري وهذا التشنج المؤلم يكفيان لاشغالي . وأخيراً قال :

ـ قل لي ، يا سيدي… لنفرض أن بورّو أحرق الوثيقة ، فأعدت إليه تلك التي سلمتني إياها لاجباره على الوفاء بوعده ، فما يمنعه بعد ذلك أن يذهب إلى أهلك فيقول لأبنائك : «أنا أعرف أين الكنز ، وأبيعكم سري إذا شئتم ، وأطلب كذا ثمناً للسر ، وكذا إذا نجحتم…» وفي وسعه أن يطلب كتمان اسمه بحيث لا يتعرض لأي خطر… ثم يجرون التحقيق ، ويعرفون ، أني ابنك حقاً ، وأني وأمي قد غيرنا طرز حياتنا منذ وفاتك… وحينئذ فواحد من أمرين : إما أن نكون صرحنا بما لدينا حقاً من أجل الضريبة على الأرباح ، وإما أن نكون أخفينا…

كان يتكلم في جلاء ، وقد أخذ ذهنه يتفتح : آلة للمحاكمة تحركت في

بطء ثم لم تعد تتوقف ؛ فما تزال قوية لدى هذا العامل غريزته القروية المتبصرة ، المستريبة ، وتجنبه المغامرة ، وعنايته في ألا يدع شيئاً للمقادير . ولا ريب أنه كان يفضل أن يتلقى مئة ألف فرنك يداً بيد ، على الاضطرار إلى إخفاء هذه الثروة الضخمة .

وانتظرت حتى تحرر قلبي من الضغط ، وتراخى التكمش ، ثم قلت له :

ـ في ما تقول كثير من الصواب ، وأنا أوافقك عليه ، فلن توقع إذن أية وثيقة ، بل سأطمئن إليك ، خصوصاً وأنه سيكون أبداً من اليسير عليّ أن أثبت أن هذا المال مالي . كل هذا لم يبق له شأن ، فبعد ستة أشهر ، بعد سنة على الأكثر ، سأموت...

فلم يبد إشارة مجاملة ، ولا فاه بالكلمة المبتذلة التي كان يقولها أي الناس ، لا لأنه كان أقسى ممن هم في سنه من الفتيان ، بل لسبب واحد : أنه كان غير مؤدب .

قال لي :

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فأنا موافق .

واجترّ فكرته من خلال لحظات ثم أضاف :

ـ وينبغي أن أذهب إلى الصندوق من حين إلى حين ، حتى أثناء حياتك ، لكي يتعرف وجهي موظفو المصرف... أذهب لآتيك بما تريد من دراهم...

فقلت :

ـ في الواقع أن لدي عدة صناديق في الخارج . فإذا فضلت أن تكون أكثر اطمئناناً...

ـ أتريدني أن أترك بانام ؟

فنبهته إلى أنه يستطيع أن يظل في باريس وأن ينتقل عند الضرورة . فسألني عن ثروتي أهي مؤلفة من أسهم أم من أوراق مالية ، ثم أضاف :

ـ وددت لو تكتب إليَّ رسالة تقول لي فيها إنك تورثني مالك وأنت حر سليم العقل . فمن يدري ؟ لقد يكتشف السر ويتهمني الآخرون بالسرقة... ثم إن في هذا راحة لضميري...

وصحت من جديد ، واشترى كمية من الفول السوداني جعل يأكلها في شراهة كأنه جوعان . وفجأة سألني :

ـ ولكن... ما الذي اقترفه حيالك الآخرون ؟

فأجبت في جفاء :

ـ خذ ما يقدم إليك ، وكفاك أسئلة!

فخضب خديه الورديين بعض الدم ، وغشت وجهه تلك الابتسامة الحانقة التي لا ريب أنه تعود أن يجيب بها على تعنيف رئيسه في المتجر ، فكشف عن أسنان بيضاء دقيقة ، هي المفتنة الوحيدة في هذا الوجه الكافر .

وكان يقشر الفول السوداني دون أن ينبس بكلمة . ولم يكن بالمبهور فيما يبدو ، وإن كان جلياً أن مخيلته كانت ناشطة . فلقد وقعت على الكائن الوحيد الجدير بألا يرى في هذه العطية الضخمة إلا أخطارها التافهة . فأردت أن أبهره بكل الأساليب ، وفاجأته بسؤالي :

ـ أما لك صديقة ؟ سيكون في وسعك أن تتزوجها وأن تعيش معها أغنى عيشة .

فأتى بحركة لا معنى لها ، وهز رأسه في اكتئاب فألححت :

ـ بل إنك تستطيع أن تتزوج من تريد . فإذا كانت حولك امرأة تحسبها منيعة...

فنصب أذنيه ، ورأيت للمرة الأولى في عينيه لهباً شاباً يسطع وقال :

ـ أستطيع أن أتزوج الآنسة بروجير!

ـ ومن هي الآنسة بروجير ؟

ـ لا ، كنت أمزح ، رئيسة قسم عند دوماس ، فأين أنا منها! امرأة

فاتنة ، ولكنها لا تنظر أبداً إلي ، بل هي لا تشعر بوجودي... أين أنا منها ؟

فلما أكدت له أنه بجزء من عشرين من ثروته يستطيع أن يتزوج أية «رئيسة» في باريس ، أخذ يكرر :

ـ الآنسة بروجيرا (ثم بعد هزة كتف) لا... أين أنا منها!

وكنت أشكو في صدري ألماً شديداً ، فناديت النادل ؛ ولكن صدرت من روبير حركة مدهشة ، وقال :

ـ لا يا سيدي ، دع عنك . أستطيع أن أقدم لك هذا...

فأعدت الدراهم إلى جيبي في غبطة . ونهضنا بينا كان الموسيقيون يرتبون آلاتهم ، وقد أطفئت أكاليل الأنوار الكهربائية ، فلم يبق ما يخشاه روبير من مرافقتي . فقال لي :

ـ سأوصلك إلى منزلك .

فطلبت إليه أن يسير في بطء كيلا ينزعج قلبي . وأعجبني منه أنه لم يحاول أبداً تعجيل تنفيذ مشروعاتنا ، فقلت له إنه إذا مت الليلة مضيعٌ ثروة ، فلوى شفته في غير مبالاة ، فكأني ما قصدت إلى هذا الفتى إلا لأزعجه . كان في طوله قريباً مني ، فهل يمكن أن يبدو يوماً رجلاً كاملاً ؟ لقد كان جد ضئيل الجسم . هذا الابن ، هذا الوريث! وحاولت أن أسبغ على حديثنا بعضاً من الود والقربى ، فأكدت له أن ضميري يؤنبني كلما فكرت في الاهمال الذي أسلمتها إليه ، هو وأمه . فبدت عليه الدهشة ، إذ كان يرى «كثيراً من الطيبة» في أني كفلت لهم دخلاً منتظماً ، وقال لي : «هناك آخرون كثيرون لا يفعلون ما فعلت!» ثم أضاف هذه الجملة البشعة ، يحكم فيها على أمه دون رفق : «... خصوصاً وأنت لم تكن الأول!...» ولما وصلنا إلى منزلي ، قال لي فجأة :

ـ لنفترض... أني اتخذت حرفة تقتضيني الاختلاف إلى السوق المالية ، فسيكون في هذا ما يفسر ثرائي...

فقلت له :

ـ إياك أن تفعل . إنك إذن ستضيع كل شيء .

وكان ينظر إلى الرصيف بادي الانشغال ، وقال :

ـ كان ذلك من أجل الضريبة على الأرباح ؛ فلو أن المفتش قام بتحقيق...

ـ ولكنه مال مخزون ، وثروة صاحبها مجهول ، مودعة في صناديق لا يحق لأحد في الناس أن يفتحها ، إلا أنت .

ـ نعم ، بكل تأكيد ، ولكن على أي حال...

فأغلقت الباب في وجهه في حركة حانقة .

١٥

كاليز

من خلال الزجاج الذي تصطدم به ذبابة ، انظر إلى الهضبات المخدرة . والريح في نواحها تجر سحباً ثقيلة ظلها يملأ السهل . وصمت الموت هذا يعني انتظار الكون كله للرعدة الأولى . و«الكرم خائف...» كذلك قالت ماري في يوم صيف حزين منذ ثلاثين سنة ، شبيه بهذا . ولقد عدت إلى هذا الكراس ففتحته . إنه خطي ، أمعن النظر عن كثب في كل حروفه ، وفي أثر ظفر خنصري تحت الأسطر . وأنا عازم على متابعة هذه القصة حتى نهايتها ، أعرف لمن أوجهها ، وأعرف أن هذا الاعتراف كان لا بد أن يكتب ؛ ولكن عليّ أن أحذف منه كثيراً من الصفحات لن يجدوا القوة على قراءتها ، بل ما أطيق أنا نفسي أن أقرأها دفعة واحدة . ففي كل لحظة أقف عن القراءة وأخفي وجهي بين يدي . هو ذا الانسان ، هو ذا واحد من الناس : أنا . ولن يستطيع إنكاركم إياي أن يزيلني من الوجود .

في تلك الليلة ، بين الثالث عشر والرابع عشر من يوليو ، بعد أن تركت روبير ، لم أكن أملك من القوة إلا ما استطعت بفضله أن أخلع ثيابي وأن أتمدد على السرير . وكان يخنقني ثقل باهظ ، ولكني برغم هذا الاختناق لم

أمت . وكانت النافذة مفتوحة ، فتمنيت لو أني في الدور الخامس... ولكني لو رميت نفسي من ذلك الدور الأول فقد لا أموت . وهذه الفكرة وحدها هي التي منعتني من ذلك ، برغم أني كنت بالكاد أملك القوة على مد ذراعي لأتناول الأقراص التي تخفف عني الألم .

وما سمعوا إلا عند الفجر الجرس الذي كنت أقرعه ، فجاءني طبيب من الحي وأعطاني حقنة أعادت إليّ التنفس ، وأمرني بالامتناع إطلاقاً عن الحركة . ويا لشدة الألم كيف تجعلنا أكثر طواعية من الأطفال! فما فكرت لحظة في التحرك . ومنذ أن كفَّ الألم لم تعد تزعجني بشاعة تلك الغرفة ، ولا عفونة ذلك الأثاث ، ولا صخب الرابع عشر من يوليو . وجاءني روبير ذات مساء ، ثم لم يعد . ولكن أمه كانت تقضي ساعتين عندي بعد خروجها من المكتب ، فتقدم لي بعض الخدمات الصغيرة وتأتيني بالرسائل التي تردني إلى شباك البريد (ولم تكن بينها واحدة من أسرتي) .

ولم أكن أشكو من شيء ، بل كنت كثير الوداعة أجرع كل ما أوصاني به الطبيب . وكانت تغير موضوع الحديث حين أعرض لمشروعاتنا ، وتكرر : «ليس شيء بمستعجل» ، فأتنهد وأقول : «أتريدين الدليل على ضرورة التعجل ؟...» وأكشف لها عن صدري .

ـ لقد عاشت أمي حتى الثمانين ، برغم نوبات أشد من التي تعاني .

وذات صباح شعرت أني خير كثيراً مما كنت قبلاً . وكنت شديد الجوع ، وكان ما يقدمونه إلي في ذلك المنزل طعاماً لا يؤكل . فبدا لي أن أتناول فطوري في مطعم صغير في شارع سان جرمان كان يعجبني طهيه ، وكانت تكاليف الطعام فيه لا تثير فيّ من الدهشة والحنق ما أستشعره في أكثر الحوانيت الحقيرة التي كنت أجلس فيها وأنا مشفق من التبذير .

ووقفت بي عربة الأجرة في ناصية شارع رين ؛ وخطوت بضع خطوات لأجرب قواي ، فإذا أنا على خير حال . وكان الوقت لا يكاد يجاوز الظهر ،

فخطر لي أن أذهب فأتناول قدحاً من شراب فيشي في قهوة «الدوماجو» . وجلست في الداخل على الضفة ، وأنا أنظر إلى الشارع مشتت البال .

وشعرت بلدغة في قلبي ؛ فقد كان على رصيف القهوة شخص أعرفه ، يفصله عني سمك الزجاج . أكتاف ضيقة ، وشعر مقصوص وقذال أشيب ، وأذنان عريضتان بارزتان... كان ذلك الرجل هوبير ، يقرأ بعينيه الكليلتين جريدة يكاد أنفه يلتصق بصفحتها . وبدهي أنه لم يرني . فهدأت ضربات قلبي المريض ، وشملتني فرحة ملعونة : فلقد كنت أرقبه على غير علمه .

ولم يكن في وسعي أن أتخيل هوبير إلا في قهوات الشوارع الكبيرة ، فما أتى يعمل في هذه الحارة ؟ من المؤكد أنه لم يأت دون هدف معين ، فما كان عليّ ، وقد دفعت ثمن ما شربت ، إلا أن أنتظر ، حراً في النهوض عند الضرورة .

وكان واضحاً أنه ينتظر شخصاً ما ، فهو ينظر أبداً ساعته . ولقد كنت أحسبني حزرت أي الناس سينزلق إليه من بين الموائد ، فخيب ظني أن رأيت ألفريد زوج جنفييف ينزل من عربة ، وقد مالت على أذنه قبعته العريضة الحاشية ، وارتدى ثوباً صارخ البياض ولبس حذاء فاقع الصفرة ، فكانت أناقته الريفية على نقيض من وقار هندام هوبير ، الذي تقول عنه إيزا إن له في اللباس ذوق أفراد آل فوندوديج...

ورفع ألفريد قبعته ومسح جبهته اللامعة ، ثم جرع الشراب الذي أتوه به دفعة واحدة ، بينا كان هوبير واقفاً ينظر إلى ساعته ، وأني سأقوم بعمل شاق إذ أفعل مثلهما وألحق بهما ، بعد أن أكتشف أمر وجودهما . وانتظرت أن يبلغا حافة الرصيف كي أخرج . ولكنهما لم يناديا أي سائق ، واجتازا الميدان ، يتحادثان في الطريق ووجهتهما سان جرمان دوبري . ودخلا الكنيسة : فما كان أطيبها مفاجأة وأسعدها فرحة! فلو أن شرطياً يرى اللص يدخل الكمين المنصوب له لما فاق سروره تلك الرعشة اللذيذة التي احتوتني

تلك اللحظة . وتمهلت ، فقد كان يمكن أن يلتفتا ، ولئن كان ابني ضعيف النظر فصهري حديد العين . وبرغم جزعي أجبرت نفسي على التلبث دقيقتين على الرصيف ، ثم جزت بدوري رواق الكنيسة .

وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة قليلاً ، وأنا أتقدم شديد الحذر في صحن الكنيسة الخالي ، فما طال بي الأمر حتى توثقت من أن مَنْ أبحث عنهما لم يكونا هناك ؛ فخطر لي لحظة أنهما ربما رأياني ، فلم يدخلا ها هنا إلا لأضيع آثارهما ، وخرجا من أحد الأبواب الجانبية ؛ فعدت القهقرى ودخلت صحن الجانب الأيمن ، وأنا أخفي نفسي وراء الأعمدة الضخمة . وفجأة في أشد أمكنة الحنية ظلاماً ، رأيتهما . كانا جالسين على مقعدين ، وبينهما ثالث ذليل الظهر محنيه ، لم أدهش لحضوره ؛ فهو ذلك الذي كنت منذ حين أتوقع أن أراه يشق لنفسه طريقاً حتى مائدة ابني الشرعي . هو الابن الآخر ، تلك الدودة المسكينة ، روبير .

ولقد كنت أوجست هذه الخيانة ، ولكن فكري لم يقف عندها كسلاً وملالة . فمنذ لقائنا الأول بدا لي أن هذا المخلوق الضئيل ، هذا القن ، ستعوزه المعدة الصالحة ، وأن أمه التي ما تزال تفزعها ذكرياتها القضائية قد تنصحه أن يتواطأ مع الأسرة وأن يبيع سره أغلى ما يستطيع . وهأنذا أتأمل قذال هذا الأحمق ، وقد حاصره ذانك البورجوازيان اللذان كان أحدهما ، ألفريد ، ما يسمونه الطينة الصالحة (على قصر نظرته ودنو أغراضه) وكان ثانيهما ، ابني العزيز هوبير طويل الأسنان له في السلوك تلك السيطرة الحازمة التي أخذها عني والتي يقف روبير أمامها أعزل . وكنت أرقبهم من وراء أحد الأعمدة ، كما تنظر إلى عنكبوت يغالب ذبابة وقد اعتزمت في قرارة نفسك أن تصرع الذبابة والعنكبوت . وكان روبير يزداد انحناء رأس ، فلا ريب أنه بدأهما بالقول : «نصف لكم ونصف لي...» وهو يحسب أنه

الأقوى ؛ ولكن هذا الأحمق بمجرد أن عرفهما بوجوده ، قد أسلم نفسه إليهما فلا مفر له من الإذعان آخر الأمر . أما أنا ، شاهد هذا الصراع الذي كنت وحدي أعرف أنه هدر لا يجدي ، فقد شعرت حينئذ أني إله ، وأن في وسعي أن أصرع هذه الحشرات المسكينة بقبضتي العاتية ، وأن أدوس بقدمي هذه الأفاعي المتشابكة . وضحكت .

وما كادت تمضي عشرة دقائق حتى خرس روبير فما يفوه بكلمة . أما هوبير فكان يتكلم في طلاقة ، فلا ريب أنه كان يملي أوامر ، يوافقه عليها الآخر بهزات صغيرة من رأسه ، وبتخاذل في كتفيه المحنيين . أما ألفريد فكان مستلقياً على الكرسي القش استلقاءه على مقعد كبير ، وقد وضع رجله اليمنى على اليسرى يهتز ورأسه مردود إلى وراء ، ووجهه الممتلئ المتفتح أراه من جانبه ممروراً أسود اللحية .

ونهضوا أخيراً ، فتبعتهم متخفياً ، وهم يسيرون في خطاً صغيرة ، وروبير في الوسط حاني الرأس وكأن يديه في أصفاد وراء ظهره ، تدعكان قبعة لينة رمادية وسخة . وكنت أحسب أن لن يأتي بعد جديد يدهشني ، ولكنني أخطأت الحساب ؛ فبينا كان ألفريد وروبير يجوزان الباب ، غمس هوبير يده في جرن الماء المقدس ، ثم التفت نحو الهيكل ، ورسم إشارة الصليب .

في تلك اللحظة لم يعد يعجلني شيء ؛ فكان في وسعي أن أطمئن وما كانت جدوى اللحاق بهم وأنا واثق أن روبير ، في المساء نفسه أو في غداته ، آت يستعجلني تنفيذ المشروع ؟ وكان لدي الوقت الكافي للتفكير في أسلوب استقباله ، وكنت بدأت أستشعر التعب ، فجلست أستريح وفي فكري يهيمن أمر واحد يحجب كل ما عداه ، هو الحنق الذي أثارته في نفسي حركة هوبير التقية . وجاءت فتاة ، متواضعة الثياب عادية الوجه ، فوضعت

إلى جانبها علبة قبعات وركعت في صف الكراسي الموجود أما الصف الذي أنا فيه ، فكنت أراها من جانب ، وفي عنقها بعض الجعدات ، وعيناها مثبتتان على نفس الباب الصغير البعيد الذي كان هوبير منذ حين ، بعد أن أدى واجبه العائلي ، يحييه في خشوع بالغ . وكان على وجه الفتاة ابتسامة صغيرة ، ولكنها ساكنة لا تتحرك . ودخل طالبان «اكليريكيّان» أحدهما مفرط الطول بالغ النحافة ، ذكرني بالأب أردوان والآخر قصي له وجه كوجه الطاووس . وانحنيا جنباً إلى جنب وبدوا ، هما أيضاً ، مصابين بالجمود . فنظرت ما ينظران وحاولت أن أرى ما يريان ، وقلت في نفسي : «ليس هنا إلا الصمت ، والرطوبة ، ورائحة الأحجار القديمة في الظل» . ولكن وجه صانعة القبعات لفت انتباهي مرة أخرى ، إذ كانت قد أغلقت عينيها ، فذكرني جفناها الطويلا الأهداب بجفني ماري على فراش موتها ، واستشعرت عالماً من الجمال أجهله ، هو في متناول يدي وفي بعد غير محدود معاً... لطالما قالت لي إيزا : «أنت الذي لا ترى إلا الشر... أنت الذي ترى الشر في كل مكان...» وكان هذا القول صحيحاً ، ولم يكنه...

١٦

وتغذيت ، طليق الفكر أدنى إلى المرح ، في نعمى من العافية لم أستشعرها منذ أمد طويل ، وكأن خيانة روبير ، بدلاً من أن تفسد عليّ خطتي ، قد خدمتها . فكنت أقول لنفسي : إن امرءاً في مثل سني ، حياته مهددة منذ أعوام ، ينبغي ألا يبحث بعيداً عن أسباب تبدلات مزاجه : إنها عضوية فحسب . وخرافة بروميثيوس تعني أن كل أحزان العالم مصدرها الكبر . ولكن من يجرؤ على الاعتراف بمثل هذه الحقيقة التافهة ؟ ولم يكن بي ألم ، بل كنت أهضم أحسن الهضم قطعة اللحم المشوية ، سعيداً بأنها من الكبد بحيث توفر عليّ ثمن طبق آخر ، معتزماً أن يكون نقولي بعدها الجبن : فليس أغذى منه ولا أرخص .

وكنت أفكر فيما يجب أن يكون موقفي من روبير ، وفي ضرورة تبديل الأسلوب معه ؛ ولكني لم أكن أستطيع أن أركز فكري على هذه الأمور . وبعد ، فما جدوى التعقيد والخطط ، وخير من ذلك أن أسلس إلى وحي الساعة ؟ على أني كنت لا أجرؤ على الاعتراف بالرضى الذي كنت أواعد نفسي به إذ ألعب مع هذا الجرذ التافه لعبة القط . فقد كان روبير أبعد الناس عن الظن أني كشفت سره... أأكون قاسياً ؟ نعم ، إني لكذلك . ولكني لست أكثر قسوة من الآخرين ، من الأطفال ومن النساء ، من... (وفكرت في صانعة

القبعات الصغيرة التي لمحتها في الكنيسة) من كل أولئك الذين ليسوا من حزب الحمل...

وعدت في سيارة إلى شارع بريا واستلقيت على فراشي . وكان الطلاب الذين يملئون هذا المنزل ضجة قد ذهبوا في إجازة ، فاسترحت في أتم هدوء . على أن الباب الزجاجي المغشىّ بسدول رقيقة وسخة ، كان يمنح المرء أن يشعر بالاستقلال في هذه الغرفة . وكانت بعض نقوش السرير الخشبي الصغيرة المقتلعة قد جمعت في عناية في وعاء من الخزف المذهب يزين المدفأة . وكانت حزم من البقع تنبسط على ورق الجدران المموج اللامع . ورائحة المائدة الفخمة التي يعلوها المرمر الأحمر ، كانت برغم النافذة المفتوحة تملأ الغرفة ؛ وتغشى المائدة سجادة بلون الخردل . فكانت هذه المجموعة ترضيني كمصغر للبشاعة وللعجب البشري .

وأيقظني حفيف ثوب ، فإذا أمامي أمُّ روبير تطالعني بابتسامتها ؛ فلو أني جهلت كل شيء لكان إفراطها في العناية بي كافياً وحده لتحذيري ، ولإنذاري بالخيانة ، فبين أساليب اللطف واحد هو أبداً نذير خيانة . وابتسمت لها أنا أيضاً وأكدت لها أني في خير . ولاحظت أن أنفها ، قبل عشرين عاماً ، لم يكن ضخماً إلى هذا الحد ، وأنها كانت إذ ذاك تزين فاهاً بالأسنان الجميلة التي ورثها روبير . أما اليوم فابتسامتها تفغم على فك عريض . ولا ريب أنها أتت مسرعة الخطو ، إذ كانت رائحة عرقها أقوى من رائحة المائدة ذات المرمر الأحمر ، فرجوتها أن تفتح النافذة إلى نهايتها ، ففعلت ذلك وعادت إليّ ، وابتسمت لي مرة أخرى . فلما اطمأنت إلى أني حسن الحال أنبأتني أن روبير يضع نفسه تحت تصرفي من أجل «الحكاية» ، وأنه في اليوم التالي (وهو يوم سبت) سيكون حراً منذ الظهر ، فذكرتها بأن المصارف تقفل يوم السبت بعد الظهر ، فقررت أن يطلب إجازة من أجل

صباح يوم الاثنين ، قائلة إنه سينالها في يسر ، وإنه على أي حال لم يعد في حاجة إلى مداراة رؤسائه .

وبانت عليها الدهشة حين طلبت إليها في إلحاح أن يحتفظ روبير بوظيفته بضعة أسابيع أخرى . وحين استأذنت بالانصراف أنبأتني أنها سترافق ابنها في الغد إليّ ، فرجوتها أن تدعه يأتي وحده ، متعللاً برغبتي في أن أتحدث قليلاً معه ، وأن أزداد به معرفة... ولم تكن هذه الحمقاء المسكينة تخفي قلقها ، فلا ريب أنها كانت تشفق من ابنها أن يخونه لسانه . ولكن لي في الحديث أسلوباً لا يفكر معه أحد في معارضة أقوالي . ولا ريب أنها كانت هي التي بعثت روبير على التواطؤ مع أبنائي ، فلقد كنت أعرف هذا الفتى الورع القلق معرفة لا مجال معها للشك في الاضطراب الذي استحوذ عليه حين اعتزم بأمرها ما اعتزم .

فلما دخل عليّ المسكين ، في اليوم التالي، أدركت للنظرة الأولى أن حاله جاوزت ما تنبأت به : كانت أجفانه أجفان امرئ ضله النوم ، ونظراته وجلة لا تستقر . فأجلسته ، وسألته عما ألم به فأرهق وجهه ، وعطفت عليه ببعض الحنان . ثم وصفت له في بلاغة محام كبير ، حياة الهناءة التي تنبجس بين يديه . وحدثته عن المنزل والحديقة ذوي الهكتارات العشرة ، اللذين سأشتريهما باسمه في سان جورمان . أما المنزل فمفروش كله بأثاث من الطراز القديم ، وإلى جانبه غدير كثير السمك ، ومخزن لأربع سيارات ، وأشياء أخرى كثيرة كنت أضيفها بحسب ما تتوارد على ذهني . ولما حدثته عن السيارات ، واقترحت عليه واحدة من انتاج أشهر المصانع الأميركية ، نظرت إليه فإذا أمامي رجل يحتضر ، فكان جلياً أنه قد تعهد ألا يقبض درهماً في حياتي .

وأضفت :

ـ لن يزعجك شيء بعد الآن ؛ فعقد الشراء ستمضيه أنت وسأسلمك منذ يوم الاثنين عدداً من الأسهم يضمن لك حوالي مئة ألف فرنك ريعاً . ولكن هذه هي البداية فحسب ، فجل الثروة المالية ما يزال في أمستردام . ولهذا سنقوم في الأسبوع المقبل برحلة إلى هناك لنقوم بكل الترتيبات الضرورية.. ولكن ، ما بك يا روبير ؟

ـ لا يا سيدي ، لا... لا شيء قبل وفاتك... إن هذا ليغيظني ، فما أريد أن أسلبك مالك منذ الآن . لا تلح علي : إن هذا يؤلمني .

وكان يستند إلى الخزانة ، ومرفقه الأيسر في يده اليمنى ، وهو يقضم أظافره . فحدقت فيه بعيني اللتين طالما أشفق منهما الخصم في المحكمة ، واللتين كانتا ، حين أكون محامي الطرف المدني ، لا تتركان أبداً ضحيتي ، حتى تتداعى على مقعدها بين يدي رجال الأمن .

ولكني في الحق ، كنت رؤوفاً به . وكان يفرحني شعور التخلص منه : فما أسوأها خاتمة حياة مع هذه الدودة! ولم أكن أكرهه ، ولو شئت لرميته دون أن أحطمه ، ولكن لم يكن في وسعي أن أمنع نفسي عن التلهي به لحظات أخرى ، فقلت :

ـ ما أطيب عواطفك يا روبير! ما أجمل أن تريد انتظار موتي! ولكني لا أقبل تضحيتك . فكل شيء سيكون لك ، منذ يوم الاثنين ؛ ولن توافي نهاية الأسبوع حتى ينول إليك الشطر الأكبر من ثروتي... (ولما اعترض أضفت في جفاء) : إما أن تقبل ، وإما أن ترفض!

فحاول أن يتهرب من نظرتي ، وسألني مهلة أيام ليفكر في الأمر ، أي ـ في الواقع ـ ليكتب هذا الأحمق إلى بوردو ، ويطلب رأي جماعته .

فقلت له :

ـ إنك تدهشني يا روبير . أؤكد لك أن وضعك غريب .

وكنت أحسبني أَلَنْتُ نظرتي . ولكن نظرتي أشد قسوة فقد زمزم

روبير بصوت راجف : «لم تحدق هكذا في وجهي ؟» فرددت ، وأنا أقلده برغمي : «لِمَ أحدق هكذا في وجهك ؟ وأنت لِمَ لا تستطيع احتمال نظراتي ؟» .

أولئك الذين اعتادوا أن يكونوا محبوبين ، يقومون بغريزتهم بكل الحركات ويقولون كل الألفاظ التي تجذب القلوب . أما أنا ، فقد اعتدت أن أكون بغيضاً مخيفاً ، بحيث أصبحت أحداقي وحواجبي وصوتي وضحكتي ، شركاء مطاويع لهذه الموهبة المرهوبة . هكذا كان يتلوى ذلك الفتى المسكين تحت نظرتي التي كنت أودها سمحة . وكنت أزداد ضحكاً فيزداد شعوراً بأن نبرة هذا المرح نذارة مشؤومة .

وسألته فجأة ، كمن يجهز على ضحيته بضربة أخيرة :

ـ كم عرض عليك الآخرون ؟

فكان في هذه اللهجة الحميمة[1] ، أردت ذلك أم لم أرد ، دليل احتقار لا صداقة . وتمتم : «أي آخرين ؟» وهو فريسة لرهبة توشك أن تكون دينية . فأجبته :

ـ الرجلان ، البدين والهزيل... نعم ، الهزيل والبدين!

وكرهت أن يطول هذا المشهد ، فقلت له أخيراً :

ـ قر عيناً ، فقد غفرت لك .

ـ لست أنا الذي أراد ذلك... لقد أرادته...

فأطبقت بيدي على فمه ، فما كنت أطيق أن أسمعه يتهم أمه . وقلت :

ـ اصمت . لا تسم أحداً... ولكن قل لي : كم عرضوا عليك ، مليوناً ؟ خمسمائة ألف ؟ أقل من ذلك ؟ ثلاثمائة ؟ مائتين ؟

فكان يهز رأسه كدر الوجه ، وقال بصوت خفيض :

(١) في النص الفرنسي ، نلاحظ أنه انتقل هنا في توجيه الحديث إليه من صيغة المخاطب الجمع إلى صيغة المخاطب المفرد .

ـ لا ، بل ريعاً سنوياً . وذلك ما أغرانا إذ كان أدعى إلى الاطمئنان : إثني عشر ألف فرنك في السنة .

ـ ابتداءً من اليوم ؟

ـ لا ، بل متى حصلوا على التركة... إذ لم يقدروا أنك تريد أن تسجل باسمي كل شيء من الآن... ولكن أيكون فات الوقت حقاً ؟ صحيح أنهم يستطيعون أن يرافعونا أمام القضاء ، إلا إذا أخفينا الأمر... آه! ما كان أشد حماقتي! إني لأستحق هذا العقاب...

وجعل يبكي مر البكاء وهو جالس على السرير ، وقد تراخت إحدى يديه ، ضخمة ممتلئة بالدم . وتنهد :

ـ أنا ابنك على أي حال . فلا تدعني في حالي التعسة .

وفي حركة خرقاء ، حاول أن يضع ذراعه حول عنقي ، فتخلصت منه ولكن في لطف . وذهبت نحو النافذة وقلت له دون أن ألتفت :

ـ سيصلك ، منذ أول أغسطس ، ألف وخمسمائة فرنك كل شهر . وسأقوم حالاً بما يلزم من الترتيبات لتقبض هذا المبلغ طول حياتك وتقبضه من بعدك أمك . وطبيعي أن عائلتي يجب أن تجهل أني اكتشفت مؤامرة سان جرمان دي بري (وأفزعه اسم الكنيسة) ولا ضرورة للقول إن أقل مخالفة لطلبي هذا تجعلك تخسر كل شيء . وبالمقابل ، ستطلعني باستمرار على ما يمكن أن يحاك ضدي من جديد .

هكذا عرف أن لم يكن شيء خافياً علي ، وعرف ما قد يكلفه أن يخونني مرة ثانية . وأفهمته أني لا أريد أن أراه بعد أو أرى أمه ، وأن عليهما إذا أرادا الكتابة إليّ أن يكتبا إلى شباك البريد المعتاد وسألته :

ـ متى يغادر باريس شريكاك في الكنيسة ؟

فأكد لي أنهما ركبا في الأمس قطار المساء . وقطعت عليه زائف شكرانه ومواعيده . ولا ريب أنه كان مبهوتاً مبهوراً : فإن آلة عجيبة ، ذات

مقاصد لا تبين ، خانها فأخذت بيده ، ثم رمته ، ثم عادت فشالت به... فهو مغمض العينين ، أسلم قضاءه إلى يد غيره ، يخرج من الباب محني الظهر ، مهدل الأذنين ، مستكيناً يحمل العظمة التي رميتها له .

وفي لحظة خروجه عاد فسألني كيف يصله ذلك الدخل ، وبأية وسيلة . فأجبته في لهجة جافية :

ـ إنه سيصلك ، أنا أبداً عند مواعيدي ، وباقي الأمر لا يعنيك .

وتردد طويلاً ، ويده على الزلاج ، ثم قال :

ـ أود لو يكون تأميناً على الحياة ، أو ريعاً مستمراً ، أو شيئاً من هذا لدى شركة محترمة... ليطمئن قلبي وأخلص من المخاوف...

ففتحت الباب في عنف ودفعت به إلى الدهليز .

١٧

كنت معتمداً على المدخنة ، أعد بصورة آلية قطع الخشب المطلي المجموعة في الوعاء الخزف .

لقد حلمت ، مدى سنوات ، بهذا الابن المجهول . وما فقدت قط الشعور بوجوده طوال كل حياتي المسكينة . ففي مكان ما كان لي ابن ولد مني وكنت أستطيع لقاءه ، وعساه أن يعزيني . وكنت أرجو أن يجعله أقرب إليّ أنه غضيض الحال ؛ ويطيب لي التفكير في أنه لا يشبه في شيء ابني الشرعي ؛ وأسبغ عليه هذه البساطة وهذا الارتباط القوي اللذين لا يندر وجودهما في أبناء الشعب... كنت ، آخر الأمر ، أجازف بورقتي الأخيرة ، وأعرف أني بعده لا أرجو من أحد شيئاً ولا يبقى أمامي إلا أن أتكوم وأدور بوجهي إلى الجدار . ففي مدى أربعين عاماً حسبتني أرتضي الحقد ، ما ألهمه منه وما أستشعره ، ولكني كغيري من الناس كنت أتعلل بالآمال وأخادع سغبي ما استطعت ، حتى انتهت بي الحال إلى آخر ما لدي من قوة . أما الآن فقد انتهى كل شيء .

لم يبق لي حتى اللذة البشعة التي كنت أحسها وأنا أرتب الخطط لأحرم من الارث أولئك الذين أرادوا بي السوء . لقد وضع روبير يدهم على الطريق ، فهم لا بد منتهون إلى اكتشاف الصناديق ، حتى ما لم يكن منها

باسمي . أأخترع شيئاً آخر ؟ وددت لو أعيش ، لو أستمر في العيش حتى أبـذر كل ما أملك ، فإذا مت لم يجدوا ما يدفعونه تكاليف دفن لفقير ؟ ولكن كيف أتعلم في سني هذه أساليب المبذرين ، أنا الذي قضيت عمري أقتصد ، وأشبعت ميلي إلى التقتير مدى أعوام ؟... وكنت أقول لنفسي : إن الأولاد يراقبونني من غير شك ، فما يمكن أن أفعل شيئاً في هذه الوجهة إلا غدا بين أيديهم سلاحاً يخيف... فيجب أن أهدم نفسي في الظلام ، تدريجياً .

واأسفاه! لن أستطيع حتى تهديم نفسي! لن أصل الدهر إلى تبديد مالي! فليتني أستطيع طمره في حفرتي ، فإذا عدت إلى الأرض جئت أحمل بين يدي هذا الذهب ، وهذه الأوراق ، وهذه الأسهم! ليتني أستطيع أن أكذب أولئك الذين يزعمون أن أغراض الدنيا لن تلحق بنا بعد الموت!

وقلت لنفسي : دونك الصدقات يا نفسي! الصدقات حفر تبتلع كل شيء . ففي وسعي أن أبعث بأعطيات مجهولة المصدر إلى مكتب الاحسان إلى أخوات الفقراء الصغيرات . ألا فكرت مرة في الآخرين ، في آخرين غير أعدائي ؟ ولكن بشاعة الشيخوخة هي في أنها حصيلة حياة ، مجموع حسابي لا نستطيع أن نبدل فيه أي رقم . ولقد قضيت ستين عاماً في بناء هذا الشيخ الذي يموت حقداً . فأنا ما أنا عليه ، ولن أستطيع الاحسان إلا إذا غدوت امرءاً آخر . يا رب ، يا رب... إن تكن موجوداً!

ومع المغيب ، دخلت فتاة لتنظم سريري ، ولم تغلق صفقي النافذة . ثم تمددت في الظل وضجة الشارع ونور المصابيح لا يمنعانني من التهويم . وكنت لا ألبث أن أستيقظ ، أثناء السفر حين يقف القطار ، ثم أعود إلى غفوتي . وبرغم أن مرضي لم يكن أشد وطأة ، فقد كان يخيل لي أن لم يكن عليّ إلا البقاء على هذه الحال والتلبث حتى يستحيل هذا النوم أبدياً .

وكان ما يزال عليّ أن أعد ما يجب لكي يدفع إلى روبير الدخل الذي وعدته به ؛ وكنت أريد أيضاً أن أمر على شباك البريد ما دمت الآن لا أجد من يقوم لي بهذه الخدمة . وكنت منذ ثلاثة أيام لم أقرأ رسائل . إن في هذا الترقب للرسالة المجهولة ، هذا الترقب الذي يظل حياً برغم كل شيء ، لدليلاً ناصعاً على أن الأمل مستحيل الاقتلاع وأن لا بد لبعض هذا النجيل أن يظل في نفوسنا!

وهذا الاهتمام بالرسائل هو الذي وهبني القوة على النهوض ، في اليوم التالي حوالي الظهر ، وعلى الذهاب إلى مكتب البريد . وكان المطر ينهمر ، وأنا بلا مظلة أجانب الجدران ، ومشيتي تثير فضول الناس فيلتفتون نحوي ، حتى لكانت بي رغبة أن أصرخ في وجوههم : «ماذا فيّ من غريب ؟ أتحسبونني مخبولاً ؟ لا ينبغي أن تقولوا هذا فسيفيد منه الأولاد . ولا تنظروا إليّ هكذا : فأنا ككل الناس ، سوى أن أولادي يكرهونني وأن عليّ أن أدفع أذاهم عني ، ولكن هذا ليس بالجنون . إني أتكلم لوحدي ، ولكن لأني وحدي أبداً . والحوار ضروري للكائن البشري . فأية غرابة في حركات امرئ متوحد وفي أقواله ؟»

وكانت الرزمة التي سلموني إياها تضم بعض المطبوعات ، وبعض رسائل مصرفية ، وثلاث برقيات فكرت أنها دون ريب تتعلق بأمر في السوق المالية لم يستطع تنفيذه . ولم أتلها ، بل انتظرت أن أقعد في قهوة شعبية . وكان بعض البنائين يجلسون إلى موائد طويلة فيأكلون في هدوء جرايتهم الضئيلة ويشربون جعتهم دون كلام ، بعد أن عملوا طوال الصباح تحت المطر ، وقبل أن يعودوا إلى عملهم في الساعة الواحدة والنصف . وكنا في آخر يوليو ، والناس يملأون المحطات... أتراهم لو تحدثت إليهم فاهمون شيئاً من عذابي ما في ذلك ريب! وكيف يجهل ذلك محام قديم والدعوى

الأولى التي ترافعت فيها كانت تتعلق بأبناء يتخاصمون كيلا يطعموا أباهم ، والشيخ المسكين ينتقل من منزل أحدهم إلى منزل الآخر مرة كل ثلاثة أشهر ، ملعوناً فيها جميعاً ، متفقاً مع أبنائه على استصراخ الموت أن يخلصهم منه ؟ وكم من المزارع شهدت فيها هذه المأساة ، مأساة الشيخ يظل دهراً متشبثاً بملكه ، ثم يخدعه ملق أولاده حتى يقتلوه نصباً وجوعاً ؟ نعم ، لا بد أنه عانى ذلك ، هذا البناء الهزيل الأعجر ، الذي كان على خطوتين مني يطحن الخبز في بطء بين لثتيه العاريتين .

وليس من يدهشه اليوم وجود شيخ حسن الهندام في قهوة . وقد كنت آكل قطعة من أرنب أبيض وألهو بمشهد قطرات المطر التي تتلاقى على الزجاج . ومست يدي حزمة الرسائل وأنا أبحث عن منديلي ، فأخرجت نظارتي وفتحت إحدى البرقيات فإذا فيها : «جنازة أمي غداً ، ٢٣ يوليو ، في الساعة التاسعة ، في كنيسة سان لويس» . وكانت مرسلة في الصباح نفسه . أما الأخريان فكانتا مرسلتين قبل يومين وبينهما ساعات ، وتقول أولاهما : «أمي في حال سيئة جداً . إرجع» . وتقول الأخرى : «توفيت أمي...» والثلاث بتوقيع «هوبير» .

ودعكت البرقيات . وأكملت طعامي ، مُعنّى الفكر لاضطراري على ضعفي أن أركب قطار المساء . وظللت دقائق لا أفكر إلا في هذا ، ثم جلا فيّ شعور آخر ، وهو جزعي من أن أعيش بعد إيزا . فلقد كان واضحاً أني مقبل على الموت ، ولم أكن أشك ، ولا الآخرون ، في أني السابق إلا بالأيام دون ريب . وكل المشروعات والحيل والمؤامرات لم تكن تعني إلا بالأيام الأولى التي تعقب موتي العاجل . لا في ذهني جال الشك في هذا ، ولا في أذهانهم . وما تمثلت قط امرأتي إلا في صورة معينة ، هي صورة أرملتي التي تتعثر في حدادها إذ تفتح الصندوق . فلو اختل مجرى الأفلاك لما كان أكثر من هذا الموت إثارة لذهولي ولوعتي . وانقلبت برغمي رجل أعمال أدرس

الوضع الذي أنا فيه والفائدة التي يمكن أن أجنيها منه ضد خصومي . تلك كانت مشاعري حتى الساعة التي تحرك فيها القطار .

وحينئذ بدأ خيالي عمله ، وتمثلت إيزا للمرة الأولى كما لعلها كانت على سريرها في اليومين السابقين ، واستحضرت في ذهني إطار الحادثة ، وهو غرفتها في كاليز (إذ كنت أجهل أنها توفيت في بوردو) . وتمتمت : «لقد وضعت في التابوت...» واحتواني ارتياح جبان ، إذ شعرت أني تخلصت من حرج موقفي لو كنت ساعتها هناك ، ومما كان يجب أن يبدو عليّ تحت أنظار الأولاد اليقظة الحاقدة . أما باقي المشكلة فالسرير الذي سأضطر إلى التزامه ساعة وصولي كفيل بحذف كل صعوباتي ، إذ لم يكن في وسعي أن أحضر المأتم ، أنا الذي حاولت عبثاً قبل لحظات أن أبلغ المغاسل . ولم يكن يخيفني هذا الوهن : فلست ، وقد ماتت إيزا ، أتوقع أن أموت : لقد مضى دوري ولكني كنت أشفق من نوبة ، وأنا وحيد في شقتي في القطار . وكنت أعرف أنهم سينتظرونني في المحطة إذ كنت أبرقت إليهم ، وفكرت أن هوبير سيأتي...

لا ، لم يكن هوبير . وما كان أشد ارتياحي حين طالعني ألفريد بوجهه المنتفخ وقد أضناه الأرق! وكأنما أفزعه مرآي . وقد اضطررت أن أتوكأ على ذراعه وأن أستعين به للصعود إلى السيارة . وجزنا بوردو الكئيبة في الصباح المطير ، خلال منطقة كلها مذابح ومدارس . ولم تكن بي حاجة إلى الكلام ، إذ كان ألفريد يعوج بأدق التفاصيل ويصف لي بالضبط الموضع الذي تهالكت فيه إيزا من الحديقة العامة ـ قبيل الوصول إلى بيوت النبات الزجاجية ، أمام غيضة النخيل ـ ، والصيدلية التي حملوها إليها ، ومشقة الصعود بجسمها الثقيل حتى غرفتها في الدور الأول . وقال لي إنها ظلت محتفظة بوعيها كل الليل ، برغم النزف الدماغي ؛ وقد ألحت في طلبي

بالاشارات ، ثم غفت ساعة . أتى الكاهن بالزيت المقدس ، ولكنها كانت تناولت القربان منذ العشية...

وكان ألفريد يريد أن يتركني أمام المنزل المجلل بالسواد ، وأن يتابع طريقه متعذراً بأنه لا يكاد يملك من الوقت ما يكفيه لارتداء ثيابه كي يحضر المأتم . ولكنه اضطر إلى إنزالي من السيارة وأعانني على صعود الدرجات الأولى . ولم أتعرف الدهليز ، إذ كانت بين جدرانه السود مجامر شموع تضطرم حول كومة من الورود . وطرفت بعيني ، فلقد كانت الغربة التي استشعرتها شبيهة بما نحسه في بعض الأحلام . وكانت هناك راهبتان واقفتان لا ريب أنهما قدمتا مع الباقي . ومن وراء هذا الخليط من الأقمشة والزهور والأنوار كان السلم المعتاد ، بسجادته البالية ، يصعد نحو حياتنا المألوفة .

وكان هوبير ينزل هذا السلم ، وقد ارتدى ثيابه في كثير من العناية ؛ فمد إليّ يده وكلمني ولكن صوته كان يأتي من بعيد ، فإذا أجبته لم يبلغ شفتي أي صوت . واقترب وجهه من وجهي ، وغدا أكثر انتفاخاً ، ثم فقدت وعيي . وقد علمت فيما بعد أن هذا الاغماء لم يدم ثلاث دقائق . وعدت إلى وعيي في حجرة صغيرة كانت فيما مضى غرفة الانتظار قبل أن أترك المحاماة . وكانت بعض الأملاح تهيج أعصاب أنفي ، فتعرفت صوت جنفييف وهي تقول : « ها هو ذا يصحو... » وانفتحت عيناي فإذا كلهم حان عليّ . وبدت لي وجوههم حائلة حمراء ، شاحبة ، يصطبغ بعضها بالخضرة . وكانت جانين تبدو في مثل سن أمها برغم أنها خير منها صحة . وكان وجه هوبير أكثر الوجوه أخاديد تأثراً بالدموع ، وعليه هذا التعبير البشع المؤثر الذي كان له وهو طفل ، حين تضعه إيزا على ركبتيها وتقول له : « إنه جاد في حزنه ، هذا الشاب الصغير... » وكان فيلي وحده ، في ردائه الذي عرف كل حانات باريس وبرلين ، يلتفت نحوي بوجهه الجميل ، السادر الضجر ، ولما

يعقد رباط رقبته ، شأنه حين كان يعود من إحدى الحفلات مخموراً مسلوب الوقار . وكان وراءه نساء محجبات لا أتبينهن جيداً ، لعلهن أولمب وبناتها . وكانت صدر بيضاء أخرى تلتمع في الظل .

وأدنت جنفييف من شفتي كأساً شربت منها بعض جرعات ، وقلت لها إني أحسن حالاً ، فسألتني في صوت ناعم حنون ألريد أن أنام لتوي ، فلفظت الجملة التي مرت بخاطري :

ـ لكم كان بودي أن أرافقها حتى مقرّها الأخير ، ما دمت لم أستطع أن أودعها .

وجعلت أكرر كالممثل الذي يبحث عن لهجة توافق كلامه : «ما دمت لم أستطع أن أودعها...» فإذا هذه الكلمات المبتذلة ، التي لم تكن تهدف لغير إنقاذ المظاهر ، والتي خطرت لي لأنها جزء من دوري في المأتم ، تبتعث في نفسي العاطفة التي كانت تعبيراً عنها ، في قوة مباغتة ، كما لو كنت نبهت نفسي إلى هذا الأمر الذي لم يخطر لي من قبل : لن أرى زوجتي أبداً بعد اليوم ، ولن يكون بيننا تفاهم ، ولن تقرأ هذه الصفحات ، وستظل الأمور الى أبد الدهر في النقطة التي خلفتها فيها يوم تركت كاليز ، فلن نستطيع أن نعود ، وأن نبدأ حياتنا على أسس جديدة . لقد ماتت دون أن تعرفني ، دون أن تعرف أني لم أكن غولاً فحسب ، ولا جلاداً ، بل كان في ذاتي امرؤ آخر وحتى لو كنت وصلت في الدقيقة الأخيرة ، وحتى لو لم نتبادل أي كلمة ، لرأت هذه الدموع التي تخدُّ الآن وجنتي ، ولرحلت وهي تحمل معها صورة يأسي .

وكان أولادي ، وحدهم ، بكماً من الذهول يتأملون هذا المشهد . ولعلهم لم يروني قط أبكي من قبل ، طول حياتهم . لقد كان هذا الوجه العجوز ، الباسر المخيف ، هذا الوجه الذي لم يستطع أحدهم أن يطيق نظرته ، يتحول ويغدو إنسانياً . وسمعت قائلاً منهم (وأظنه جانين) :

ـ لو أنك لم تسافر... لِمَ سافرت ؟

صحيح : لِمَ سافرت ؟ ولكن ألم يكن في المستطاع أن أرجع في الوقت المناسب ، لو أن البرقيات لم ترسل إلى شباك البريد . تلقيتها في شارع بريا ؟... وزل لسان هوبير ، إذ أضاف :

ـ سافرت دون أن نعرف عنوانك... وما كنا نستطيع أن نحزر...

فجلت بغتة فكرة كانت غامضة في نفسي حتى ذلك الحين ، فاعتمدت بيدي على ذراعي المقعد ، وانتصبت أرتجف غضباً ، وصحت به في ملء وجهه : « كذاب! » فتمتم : « أبي أجننت ؟ » فكررت :

ـ أجل أنتم كذابون . . لقد كنتم تعرفون عنواني . اجرؤوا على القول في وجهي إنكم لم تكونوا تعرفونه .

فرد هوبير في ضعف : « ومن أين لنا أن نعرفه ؟ » . فأجبته :

ـ ألم تلتق بشخص واشج الصلة بي ؟ أتجرؤ على انكار ذلك ؟

فجعلت الأسرة المبهوتة تتأملني في صمت ، وكان هوبير يحرك رأسه كطفل تلبك في كذبته . وعدت أقول :

ـ على أنكم لم تدفعوا غالياً ثمن خيانته . لم تكونوا كرماء . يا أولادي . فريع الاثنى عشر ألف فرنك لمن يرد عليكم ثروة هو مبلغ تافه .

وكنت أضحك ، تلك الضحكة التي تثير سعالي ، والأولاد معقودو اللسان لا يجدون ما يقولون . ودمدم فيلي : « لقد فضحنا!... » وأشار إليّ هوبير متوسلاً وهو يحاول عبثاً أن يتكلم ، فعاودت القول بصوت خفيض :

ـ من أجلكم أنتم لم أستطع رؤيتها . لقد كنتم عالمين بأدق حركاتي ، ولكنكم حرصتم على ألا أعرف ذلك . فلو أبرقتم إليّ في شارع بريا لأدركت أنه خانني . كنتم معتزمين ألا تفعلوا ذلك على رغم كل شيء ، وحتى على رغم توسلات أمكم المحتضرة . ما من ريب في أنكم متألمون ، ولكنكم لا تضلون الطريق...

قلت لهم هذه الأشياء ، وأخرى أكثر منها بشاعة . وكان هوبير يتوسل إلى أخته : «أسكتيه ، أسكتيه! سيسمعونه...» في صوت مبهور . فأحاطت جنفييف كتفي بذراعيها وأجلستني وهي تقول :

ـ أبي ، وليس الآن مجال هذا . سنتحدث عن ذلك في حينه . ولكني أستحلفك باسم التي ما تزال في البيت...

ووضع هوبير اصبعه على فمه شاحب الوجه ، إذ دخل منظم المأتم يحمل قائمة بأسماء الأشخاص الذين ينبغي أن يحملوا زر البلوط . فخطوت بضع خطوات ، وكنت أريد أن أمشي وحدي ، فأفسحت الأسرة لي الطريق وأنا أترجرج في مشيتي . واستطعت أن أجوز عتبة غرفة النعش ، وأن أجثو على مركع .

هنالك لحق بي هوبير وجنفييف ، فأخذني كل من ذراع ، وتبعتهما في طواعية . وكانت صعدة السلم شاقة ، وقبلت إحدى الراهبتين أن ترعاني أثناء المأتم . وقبل أن يستأذن هوبير في الذهاب ، تظاهر بنسيان ما كان بيننا قبل هنيهة ؛ وجاء يسألني هل أحسن صنعاً إذ كلف النقيب بحمل واحد من أزرار البلوط ، فملت عنه وجهة النافذة التي يتشرشر عليها الماء ، ولم أجبه .

وبدأت أسمع وقع خطوات . وكان أكيداً أن كل المدينة ستأتي للتعزية . فمن لسنا أصهاراً له ، من طرف آل فوندوديج ؟ أما من ناحيتي ، فالمحامون ، والمصارف ، ورجال الأعمال... وكنت أشعر بحال من الدعة ، كامرئ زكى نفسه واعترف الناس ببراءته . لقد أثبت على الأولاد الخداع ، فلم ينكروا مسؤوليتهم . وبينا كان البيت كله يدوي كحفلة رقص غريبة لا موسيقى فيها ، ألزمت نفسي بتركيز انتباهي على جريمتهم : لقد منعوني ، هم وحدهم ، منعوني أن أودع إيزا مرة أخيرة . ولكني كنت أهمز حقدي العجوز كما يخنس حصان عاجز فلا ينتج شيئاً . فما أدري ما الذي جعلني

لطيفاً برغمي : أهو الارتياح الجسدي ، أم الاطمئنان إلى أن كلمتي كانت الأخيرة...

ثم لم يعد يبلغني شيء من التراتيل الكنسية وابتعدت جلبة المأتم ، فران على المنزل الرحب صمت عميق كصمت كاليز . لقد أفرغته إيزا من ساكنيه ، وهي تجر وراء جثمانها كل الخدم ، فما يبقى فيه إلا أنا . وإلا تلك الراهبة التي تنهي أمام سريري ورداً بدأته قرب النعش .

وقد أثار هذا الصمت ، مرة جديدة ، ألمي للفرقة الأبدية ، للرحيل الذي لا أوبة منه . وعاد بيني وبينها جديد . وكنت في جلستي على السرير ، مسنوداً بوسائد تهون عليّ التنفس ، أنظر هذا الأثاث الذي كنا انتقينا طرزه ــ طرز لويس الثالث عشر ــ عند «بارديبيه» ، أيام خطوبتنا ، والذي ظل أثاث غرفتها إلى أن ورثت أثاث أمها . هذا السرير الحزين ، سرير أحقادنا وصمتنا .

ودخل هوبير وجنفييف وحدهما ، وظل الآخرون في الدهليز ؛ فأدركت أنهم لا يألفون وجهي الباكي . وظلا واقفين إزاء سريري ، والأخ يبدو غريباً في لباس السهرة ساعة الظهيرة ، والأخت تشبه برجاً من القماش الأسود يشرق فيه منديل أبيض ، ويكشف حجابها المرفوع عن وجه أحمر ملتهب . لقد ذهب الحزن بأقنعتنا جميعاً فلم يكن بيننا من يتعرف وجه الآخر .

وسألاني عن حالي ، وقالت جنفييف :

ـ أكثر الناس تبعوا الجثمان حتى القبر : لقد كانت محبوبة .

فسألتها عن الأيام التي سبقت نوبة الفالج فأجابت :

ـ كانت تشعر بضيق... بل لعلها أوجست ذلك ؛ فلقد أمضت كل وقتها ، عشية سافرت إلى بوردو ، تحرق في غرفتها أكواماً من الرسائل ؛ حتى لقد حسبنا أن هناك حريقاً...

فقاطعتها ، إذ خطرت لي فكرة . (كيف لم أفكر في ذلك من قبل) :
ـ جنفييف أتحسبين أن سفري كان له بعض الأثر ؟
فأجابتني ، بادية الرضا ، أنه «كان ضربة لها دون ريب...»
ـ ولكنكم لم تقولوا لها... لم تطلعوها على ما اكتشفتم...

فسألت أخاها بنظرتها : هل ينبغي أن تظهر أنها فهمت ؟ ولعل وجهي كان غريباً إذ ذاك ، إذ رأيتهما فزعين ؛ وبينا كانت جنفييف تساعدني على الاعتدال في جلستي ، أجاب هوبير في ساعة إن أمه مرضت بعد سفري بأكثر من عشرة أيام ، وأنهم خلال هذه الحقبة اعتزموا أن يجعلوها في منجى من هذا الصراع الكئيب . أكان يقول حقاً ؟ لقد أضاف ، في صوت راجف :
ـ وبعد ، فلو أنا رضينا أن نحدثها بذلك ، لكنا المسؤولين الأول .

وأعرض قليلاً ، وكنت أرى تشنج كتفيه . وفتح أحدهم الباب وسأل : «ألا تأكلون ؟» وسمعت صوت فيلي يقول : «ما تريدون ؟ ليست غلطتي أنا فإني جائع...» وسألتني جنفييف من خلال دموعها عما أريد أن آكل . وقال لي هوبير إنه سيعود بعد الطعام فنتفاهم نهائياً إذا كنت أملك القوة على الاصغاء إليه ، فأجبت بإشارة موافقة .

ولما خرجا ، ساعدتني الراهبة على أن أنهض ، واغتسلت وارتديت ثيابي ، وشربت كوباً من الحساء . فما كنت أريد أن أبدأ المعركة وأنا مريض يداريه خصمه ويحميه .

فلما عادا وجدا شخصاً غير ذلك الشيخ الذي أثار شفقتها منذ حين . إذ كنت قد تناولت الأدوية الضرورية ، وجلست منتصب القامة ، فكنت أراني أقل ضيقاً ، شأني في كل مرة أغادر فيها سريري .

وكان هوبير قد ارتدى ثوباً عادياً ، أما جنفييف فاشتملت بمبذل قديم لأمها ، وقالت : «ليس لدي ثوب أسود أرتديه...» وجلسا قبالتي ، وبدأ هوبير ، بعد الكلمات المألوفة :

ـ لقد فكرت طويلاً...

كان قد عني بتهيئة خطابه ، فكان يتوجه إلي بالحديث كما لو كنت مجلس مساهمين ، وهو يزن كل كلمة ، ويعني بألا يعلو صوته . قال :

ـ لقد استشرت ضميري أمام سرير أمي ، وحاولت أن أبدل وجهة نظري ، وأن أضع نفسي في مكانك : أب فكرته الثابتة أن يحرم أولاده من الارث . ذلك ما كنا نراه فيك وما يبرر في أعيننا كل سلوكنا . ولكننا سلطناك على أنفسنا بهذه المعركة الرهيبة وهذه...

وكان يبحث عن الكلمة الصحيحة ، فهمست له في هدوء : «هذه المؤامرات الدنيئة» .

فاحمر خداه ، واعترضت جنفييف قائلة :

ـ من أين «دناءتها» ؟ إنك أقوى منا كثيراً...

ـ أنا ؟ شيخ مريض ضد عصابة فتية...

فقال هوبير :

ـ إن الشيخ المريض ينعم ، في منزل كمنزلنا ، بوضع ممتاز : فهو لا يترك غرفته ، بل يظل فيها بالمرصاد ، لا عمل له إلا أن يراقب أعمال الأسرة ويفيد منها . يعد ضرباته وحده ، ويهيئ دون تعجل . يعرف كل شيء عن الآخرين الذين لا يعرفون شيئاً عنه . ويعلم بمراكز الاصغاء... (وبما أني لم أستطع الامتناع عن الابتسام ، فقد ابتسما أيضاً) نعم ، لا يمكن أسرة أن تكون دائمة الحذر . أفرادها يتشاجرون ، ويرفعون الصوت ، وينتهي الجميع بالصياح دون أن يعلموا . لقد أفرطنا في التعويل على سمك جدران المنزل القديم ، ونسينا رقة السقوف بين أدواره ، ونوافذه المفتوحة أيضاً...

وخلقت هذه الايماءات بيننا جواً من المرح . ثم كان هوبير أولنا في العودة إلى الجد . قال :

هب أننا بدونا لعينيك آثمين . إن من اللعب إذ ذاك أن تتذرع بالدفاع المشروع . ولكني سأجتنب كل ما يمكن أن يسمم التعايش ، فلن أحاول تعيين المعتدي في هذه الحرب الخاسرة ، بل أوافق على الوقوف موقف الآثم . ولكن يجب أن تفهم...

ووقف ، وأخذ يمسح زجاج نظارتيه ؛ وطرف بعينيه في وجهه المتخدّد الناحل . ثم تابع :

ـ يجب أن تفهم أني كنت أناضل من أجل شرف أولادي وحياتهم . إنك لا تستطيع أن تتصور وضعنا : فأنت من قرن آخر ؛ لقد عشت في ذلك العصر الأسطوري الذي كان الفطن فيه من يتكل على أسناد مضمونة . وأنا أعرف أنك لم تخفق في كل المناسبات ، وأنك أوجست الخطر قبل كل الناس ، ففزت بالربح في الوقت اللازم... ولكن سبب ذلك أنك كنت خارجاً عن الأعمال ، كنت مشاهداً فحسب! فكان في وسعك أن تحكم على الوضع في اتزان ، وأن تسيطر عليه ، لأنك لم تكن غريقاً مثلي حتى أذنيك... لقد كانت الضربة قاصمة ، فلم نستطع حتى الارتداد... وهذه هي المرة الأولى التي تتكسر فيها كل الأغصان مرة واحدة ، فلا مجال للتعلق بشيء ، ولا للتؤمن من شيء بشيء...

وكرر في غصة خانقة : «لا شيء... لا شيء...» فأي مدى بلغ ضرره ؟ على شفا أي نكبة كان يتخبط ؟ ولقد أشفق أن يكون أفرط في الكشف عن موقفه ، فاستمسك ، وحاول أن يرقع الحديث بالأسباب العامة المألوفة : اتساع الصناعة بعد الحرب ، وفرة الانتاج ، أزمة الاستهلاك... ولم يكن لحديثه من شأن : ما كان يعنيني هو غمه . فلقد انتبهت ، في تلك اللحظة ، إلى أن حقدي مات ، مات ومعه رغبتي في القصاص . بل لعله كان ميتاً ما جدوى التعامي عن الواقع ؟ لقد مر بي ، أمام ابني شعور غامض أقوى ما فيه الفضول : فلشد ما بدا لي غريباً اضطراب هذا البائس ، وجزعه ، وحسراته

التي كنت أستطيع وقفها بكلمة!... وكنت أرى بالفكر هذه الثورة التي كانت فيما بدا لي كل حياتي ، والتي حاولت أن أهبها ، أن أبددها ، والتي لم أكن حراً حتى بالتصرف بها وفق هواي . هذه الثروة التي شعرت ، بغتة ، أني جد منفصل عنها ، والتي غدت لا تهمني ولا تعنيني... وصمت هوبير وأخذ يرقبني من خلال نظاراته : أي مكيدة أدبر له ؟ أي ضربة سأهوي بها عليه ؟ كان مرخى الشفتين ، ينصب قامته ، ويرفع ذراعه بعض الرفع كالطفل الذي يحمي نفسه . وعاد يقول بصوت مغضوض :

ـ لست أسألك أكثر من اصلاح حالي ؛ ولن أحتاج ، مع ما يعود عليّ من تركة أمي ، (وتردد لحظة قبل أن يقذف الرقم) إلا إلى مليون . فإذا رضيت استطعت أن أخلص نفسي . أما الباقي فتصرف به كما تشاء . وأتعهد باحترام مشيئتك...

وابتلع ريقه ، وهو يرقبني بجانب عينيه ؛ ولكن وجهي ظل لا ينم عن شيء . ثم التفت نحو جنفييف وقلت لها :

ـ وأنت ، يا ابنتي ، ألست في حال طيبة ؟ إن زوجك حكيم...

وكان امتداح زوجها يغيظها أبداً ، فردت بأن المتجر قد انتهى عمره ، وأن ألفريد لم يشتر خموراً منذ سنتين ، وهو بالطبع واثق من أنه ليس على خطأ! صحيح أن لديهم ما يعيشون به ، ولكن فيلي يهدد بترك امرأته وهو لا ينتظر إلا الوثوق من أن الثروة ضاعت نهائياً . وتمتمت : «ما أجملها مصيبة!» فردت في عنف :

ـ نعم ، نحن نعرف أنه سافل حقير . وجانين تعرف ذلك... ولكنها ستموت إذا تركها . أؤكد لك أنها ستموت . لن تستطيع أن تفهم هذا ، يا أبي ، لأنه بعيد عن عقليتك . إن جانين تعرف عن فيلي أكثر مما نعرف ، ولطالما قالت لي إنه أسوأ من كل ما نستطيع أن نتصور . ولكنها برغم هذا ستموت إذا تركها . هذا يبدو لك غير معقول ، لأن هذه الأمور

لا وجود لها في نظرك . وكذلك بعقلك الكبير تستطيع أن تفهم ما لا تشعر به .

ـ إنك تتعبين أباك ، يا جنفييف .

قال هوبير هذا وهو يفكر أن أخته الثقيلة تنال بكلامها من كبريائي . فقد كان يرى على وجهي علائم الألم ، ولكنه لم يكن يعرف سببه ، لم يكن يعلم أن جنفييف تنكأ فيّ الجرح القديم وتضع أصابعها فيه . وزفرت قائلاً : «ما أسعدك يا فيلي!» .

فتبادل ولداي نظرات الدهشة . ولقد طالما اعتقدا حقاً أني نصف مجنون ، ولو استطاعا فلعلهما كانا يحجران عليّ وضميرهما في راحة تامة .

ويدمدم هوبير :

ـ إنه سكير سافل ، وهو يمسك بخناقنا .

فقلت :

ـ إن عمه أكثر رأفة به منك ، فلطالما ردد ألفريد أن فيلي ليس «سيئاً إلى هذا الحد» .

فالتهبت جنفييف وقالت :

ـ إن سلطته تمتد إلى ألفريد أيضاً . فلقد أفسد الصهر عمه : هذا أمر تعرفه كل المدينة ؛ ولقد رأوهما معاً ، ومعهما بنات... يا للعار! لقد كان ذلك أحد الهموم التي أرهقت أمي...

ومسحت جنفييف عينيها . وحسب هوبير أني أروم صرف انتباههما عن الناحية الهامة ، فقال في لهجة مغيظة :

ـ ولكن هذا ليس موضوع حديثنا ، يا جنفييف... لكأن ليس في العالم إلا أنت وأولادك!

فغضبت وردت بأنه أكثر منها أثرة . ثم أضافت :

ـ صحيح . كل منا يفكر أولاً في أولاده . لقد عملت أبداً كل ما

أستطيعه من أجل جانين ، وأنا أفخر بذلك ، كما فعلت أمنا من أجلنا كل شيء . وإني لأرمي نفسي في النار...

فقاطعها أخوها ليقول ، في هذه اللهجة القاسية التي كنت أتعرف نفسي فيها : «وترمين فيها الآخرين أيضاً!» .

ولو حدث هذا النزاع من قبل لكان طربي له جد عظيم ، ولرحبت أطيب الترحيب ببشائر معركة لا هوادة فيها حول نتف من الإرث لم أستطع حرمانهما منها! أما ساعتها فما كنت أشعر إلا ببعض الاشمئزاز وبعض الضيق... كنت أريد أن تحل هذه المشكلة حلاً حاسماً ، وأن يدعوني أموت في سلام . فقلت لهما :

ـ من الغريب ، يا ولدي ، أني أنتهي بعمل ما بدا لي أبداً أكبر أنواع الجنون...

فلم يعودا يفكران البتة في التنازع ، وأدارا نحوي عيوناً قاسية حذرة ، وهما ينتظران في احتراس . وتابعت :

ـ أنا الذي كان مثالي الدائم الأجير الشيخ ، المسلوب في حياته ، والذي يهمله أبناؤه ليفطس جوعاً ، فإذا استطال أمد احتضاره زادوا عليه اللحف وغطوه بها حتى فمه...

ـ أبي أتوسل إليك...

وكان في احتجاجهما ارتياع ليس بمصنوع ، فغيرت لهجتي بغتة وقلت :

ـ ستكون كثير المشاغل ، يا هوبير . فالتقسيم سيكون شاقاً ، لأن لي ودائع في كل مكان : هنا ، وفي باريس ، وفي الخارج . ثم الأراضي والعقارات...

وكانت أعينهما ، لدى كل كلمة ، تزداد اتساعاً ، ولكنهما لم يكونا يريدان تصديقي ؛ ورأيت يدي هوبير الدقيقتين تنتفخان ثم تنغلقان .

ـ يجب أن ينتهي كل شيء قبل موتي ، في نفس الوقت الذي تقتسمان فيه ما يعود عليكما من أمكما . أما أنا فأستبقي التصرف بكاليز ، منزلاً وحديقة (على أن تتحملا نفقات الصيانة والاصلاح) . وأما الكروم فلا تحدثاني عنها بعد الآن . ويدفع لي مسجل العقود دخلاً شهرياً ، تحدد قيمته فيما بعد... إئتني بمحفظتي... نعم... في الجيب الأيسر من سترتي .

ومدها هوبير إليّ بيد ترتجف . فأخرجت منها غلافاً ، وقلت له :

ـ ستجد هنا بعض الايضاحات عن مجموع ثروتي ، فتستطيع أن تحملها إلى الأستاذ آركام... لا ، اطلب منه بالهاتف أن يأتي إلى هنا ، فأسلمه إياها بنفسي وأؤكد له إرادتي في حضورك .

فأخذ هوبير الغلاف وسألني في جزع :

ـ ألا تسخر منا ؟

ـ ناد مسجل العقود بالهاتف . سترى أأسخر أم لا...

فاندفع نحو الباب ، ثم تراجع وقال :

ـ لا ، لن يكون من اللائق أن نفعل هذا اليوم... ينبغي أن ننتظر أسبوعاً .

ومر بيده على عينه ، فما من ريب أنه كان خجلان ، يحاول أن يفكر في أمه . وكان يقلب الغلاف بين يديه . فقلت له :

ـ إذن فافتحه واقرأ : إني آذن لك .

فدنا مسرعاً من النافذة ، ونزع الختم ، وقرأ كما لو كان يأكل . ولم تطق جنفييف صبراً فنهضت ومدت من فوق كتف أخيها رأسها النهم .

وجعلت أتأمل هذين الأخوين ، فما أوحيا لي بأي اشمئزاز . لقد كانا أباً يهدده الافلاس وأم أسرة يغتنيان فجأة بملايين كانا يحسبانها فقدت إلى

الأبد . لا لم يكن في ذلك من يثيرني ، ولكني كنت أدهش لعدم مبالاتي . كنت شبيهاً بالمريض الذي جرح جسمه الطبيب ، يستيقظ بعد زوال أثر المخدر فيقول إنه لم يحس شيئاً ؛ وقد انتزعت من نفسي شيئاً كنت أحسبني مرتبطاً به بأسباب عميقة ، فما أحسست بغير الراحة ، ما أحسست إلا بتخفف جسمي غدوت معه أحسن تنفساً . لقد كان كل ما عملته ، مدى سنوات ، أني حاولت أن أبدد هذه الثروة ، أن أسبغها على مخلوق ليس واحداً من أهلي . ولقد ضللت أبداً هدف رغباتي . إننا لا نعرف ما نريد ، ولا نحب ما نحسب أننا نحبه .

وسمعت هوبير يقول لأخته : «ما أضخمها!... ما أضخمها! إنها ثروة ضخمة» . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض ، ثم قالت جنفييف إنهما يأبيان تضحيتي ، ولا يريدان أن أتعرى على هذا الشكل .

فكان لكلمتي «التضحية» و«التعري» وقع غريب في أذني وألح هوبير :

ـ لقد فعلت هذا بسبب تأثرك اليوم . وأنت تحسب أنك أمرض مما أنت حقاً ؛ ولكنك لم تبلغ السبعين ، ومن في مثل حالك يعمرون طويلاً . ولقد تندم بعد حين . فإذا أردت فأنا أحمل عنك كل الأعباء المادية ، وتبقى في سلام مع ما تملك . إننا لا نريد إلا العدل ، وما طلبنا قط إلا العدل .

وكان التعب يرهقني ، ورأيا عيني تنغلقان . وقلت لهما إن تلك عزيمتي وإني لن أعود إلى حديثهما إلا أمام المسجل . فتركاني . وحين بلغا الباب قلت لهما دون أن ألتفت :

ـ نسيت أن أقول لكما إن دخلاً شهرياً قدره ألف وخمسمائة فرنك يجب أن يدفع لابني روبير . لقد وعدته بذلك . فذكرني به حين نوقع على الصك .

فاحمر وجه هوبير ، إذ لم يكن يتوقع هذا السهم . ولكن جنفييف لم تر وراءه مقصد خبث ، بل دارت بعينها وعملت حساباً سريعاً ، ثم قالت :

ـ ثمانية عشر ألف فرنك في السنة... ألا ترى أن هذا كثير ؟

١٨

المرج أنقى من السماء . والأرض ، مشبعة بالماء ، تبخر . وفي الحفر الملأى بالمطر ينعكس أفق كدر . كل شيء أعني به كعهدي يوم كنت أملك كاليز . لم يبق لي شيء ولكني لا أحس فقري . ووقع المطر في الليل على العنب المتخمر يحزنني مثله حين كنت سيد هذا الجنى المهدد . وما حسبته نزوعاً إلى الاحتفاظ بالملكية ليس إلا غريزة الفلاح ابن الفلاح ، المولود من أولئك الذين منذ قرون يستنطقون الأفق في جزع . وسيتراكم الدخل الذي يحق لي قبضه لدى مسجل العقود شهراً بعد شهر ؛ فما بي حاجة إلى شيء . لقد كنت مدى حياتي كلها سجين هوى لم يكن يمتلكني ؛ وكما ينبح الكلب القمر أغوتني ظلال . ـ فهذه اليقظة في الثامنة والستين من عمري ولادة جديدة ساعة الموت! ألا أمهلت بعض سنوات أخرى ، أو بضعة أشهر أو بضعة أسابيع!...

لقد رحلت الممرضة ، وأشعر أني خير كثيراً مما كنت قبل حين . وسيبقى إلى جانبي ارنست وآميلي اللذان كانا يخدمان إيزا ؛ فهما يجيدان إعطاء الحقن . وفي متناول يدي حقن «المورفين» و«التنريت» . أما ابني وابنتي فمشغولان لا يكادان يتركان المدينة ، ولم أعد أراهما إلا حين يكونان في حاجة إلى بعض المعلومات أو التقديرات... ويجري كل شيء دون

كثير من النزاع فاشفاق كل منهما من أن « يغلب » جعلتهما يفضلان هذه الخطة المضحكة ، وهي أن يتقاسما كل المنقولات تقاسماً عينياً . ولو استطاعا لاقتسما السجادة الواحدة كيلا ينتفع بها أحدهما وحده . ويسميان ذلك : الاتصاف بحب العدالة . إنهما سيقضيان حياتهما في ستر أحط العواطف وراء أسماء براقة... لا ، يجب أن أمحو هذا . من يدري ؟ فلعلهما ، كما كنت ، سجينا هوى لا صلة له بأعماق نفسيهما! .

ما رأيهما فيّ ؟ إنهما يقولان دون ريب إني هزمت وخضعت وإنهما « ظفرا بي » . ومع ذلك ، فهما في كل زيارة يبديان لي كثيراً من الاحترام والامتنان . وأنا أدهشهما على أي حال . وهوبير على الأخص يرقبني . إنه حذر ، غير مطمئن إلى أني نزعت سلاحي . اطمئن ، يا بني المسكين . فمنذ اليوم الذي عدت فيه ناقهاً إلى كاليز لم أعد أوحي بكثير من الخوف . أما الآن...

أشجار الدردار في الطرق والحور في المروج تؤلف فيما بينها مساحات عريضة متراكبة ، وبين خطوطها الظليلة يتراكم الضباب ، والضباب ودخان نار الأعشاب ، وهذا النفس الذي تزفره الأرض الريّا . ذلك أنا نستيقظ في رأد الخريف ، والعناقيد التي ما تزال تتعلق فيها نقاط من المطر الملتمع ، لن تنعم أبداً بما حرمها منه مطر أغسطس . أما نحن فلعل أمامنا أبداً فسحة من الوقت . أنا في حاجة إلى أن أكرر لنفسي أن الفرصة لا تفوت أبداً .

وما عن وفاء دخلت غرفة إيزا غداة عودتي إلى هنا . ولكن فراغي ، وهذا التفتح الكامل الذي لا أدري أأنعم به أم أتعذب في الريف ، جعلاني وحدهما أدفع الباب المسدف ، وهو أول الأبواب بعد السلم ، إلى الشمال . ولم تكن النافذة وحدها مفتوحة ، بل الخزانة والصندوق أيضاً ، إذ كان الخدم قد نزعوا كل ما في الغرفة ، فكانت الشمس تلتهم حتى أدق الأركان ، والأثر الخفية الباقية من قدر انتهى . وكان ذلك الأصيل من سبتمبر يدندن

بالذباب ، والزيزفون الكثيف المكور يشبه ثماراً مصابة ، والسماء الزرقاء في السمت تشحب عند الهضاب الغافية ، وتصدر عن فتاة لا أراها ضحكة عالية ، وتتحرك عند الكروم قبعات شمس : إذ كان قد بدأ القطاف .

ولكن الحياة السحرية كانت قد انسحبت من غرفة إيزا ، وكان في أسفل الخزانة قفاز ومظلة عليهما سيماء الموت . وكنت أنظر المدفأة الحجرية البالية التي نقشت في أعلاها مجرفة ورفش ومنجل وحزمة سنابل . وهذه المدافئ القديمة ، التي تتسع لإحراق جذوع ضخمة ، تغلق خلال الصيف بستور عريضة عليها رسوم . وقد كانت ستارة هذه المدفأة تمثل زوج ثيران يحرث الأرض ، كنت في يوم غضب ، وأنا طفل ، ثقبته بضربات السكين . وكان مسنداً إلى المدفأة فحسب ، فحاولت أن أعيده إلى مكانه ، فسقط ، وكشف لي الأولاد عن الموقد الأسود . المليء بالرماد . وحينئذ ذكرت ما قاله لي الأولاد عن آخر أيام إيزا في كاليز : «كانت تحرق أوراقاً ، وقد حسبنا أن هناك حريقاً...» ففهمت في تلك اللحظة أنها أوجست اقتراب الموت . والمرء لا يستطيع في وقت واحد أن يفكر في موته وموت الآخرين ، وقد كانت فكرة دنو أجلي تشغلني باستمرار فلم ألق بالاً إلى الضغط الذي تعانيه إيزا . وكان الأولاد الحمقى يرددون : «ليس هذا بأمر خطر . إنها وطأة السن» . أما هي فقد كانت تعرف ، يوم أشعلت هذه النار ، أن ساعتها دانية . وقد أرادت أن تختفي كلها فمحت أتفه آثارها . وأخذت أنظر في الموقد إلى هذه البقايا الرمادية التي كانت الريح تعبث بها قليلاً . وكان الملقط الذي استخدمته ما يزال هناك ، بين المدفأة والجدار ؛ فأمسكت به وبعثرت هذا الركام من الرماد ، هذا المعدم . كنت أنبش فيه كأنما أنبش عن سر حياتي ، عن سر حياتينا . وكان الرماد يزداد كثافة كلما ازداد الملقط تعميقاً فيه . وقد عدت من هذا البحث بنتف من أوراق كانت حمتها سماكة الرزم ، ولكنها لم تكن إلا كلمات ، أو جملاً مبتورة لا

يرام معناها . وكانت كلها بخط واحد لم أتعرفه . وكانت يداي ترتعشان وتتقبضان ، وقد استطعت أن أقرأ ، على ورقة صغيرة متسخة بالسناج ، هذه الكلمة : «سلام!» ، وتحت صليب صغير هذا التاريخ : «٢٣ فبراير ١٩١٣» ، وهذه الكلمة : «ابنتي العزيزة...» وحاولت أن أركب الحروف الموجودة على حاشية الصفحة المحترقة ، ولكني لم أفز إلا بهذا : «تكوني آثمة إلا إذا استسلمت لهذه العاطفة . ولكنك على العكس تحاولين...» وبعد جهود كثيرة ، استطعت أن أقرأ أيضاً : «هذا العطف الذي يحوطه به لوك لا يدل على...» وكان السناج يغطي الباقي ، خلا جملة : «اغفروا دون أن تعرفوا عم تغفرون . قدموا له ما لكم من...» .

وكنت أرجئ التفكير إلى ما بعد ، ولا أهتم إلا باكتشاف أشياء جديدة . وبحثت محني القامة ، في وضع سيء كان يمنعني من التنفس . وهزني هنيهة اكتشاف كراس كان يبدو سليماً . ولكن لم تنج منه ورقة واحدة . وعلى ظهر الغلاف ، استطعت أن أقرأ هاتين الكلمتين المكتوبتين بخط إيزا : «باقة روحية» وتحتها : «لست الداعي بالهلاك للناس . إن اسمي هو يسوع» . (من المسيح إلى القديس فرنسوا دوسال) .

وكانت بعد هذا جمل أخرى منقولة ، ولكنها مستحيلة القراءة . وعبثاً ظللت محنياً على هذا التراب ، فما فزت منه بجديد . فوقفت ونظرت إلى يدي المسودتين ؛ ورأيت في المرآة جبيني المخدد بالرماد . واحتوتني رغبة في السير كأيام شبابي ، فنزلت السلم في سرعة ، ناسياً ضعف قلبي .

وكانت هذه المرة الأولى التي أتوجه فيها ، بعد انقطاعي أسابيع ، إلى الكروم التي عريت من ثمارها فهي متعبة توشك أن تنام . وكان المنظر طلقاً صافياً ، والريح والشمس تجففان الحفر وآثار حوافر الثيران . وكنت أمشي ، مصطحباً معي صورة إيزا ، هذه المرأة المجهولة التي كانت فريسة

أهواء عنيفة لم يقو على إذلالها إلا الله . لقد كانت هذه المرأة أختاً يشفها الحسد ، وتكره لوك الصغير... أية امرأة هذه التي تكره طفلاً ؟ أمن أجل أولادها هي ؟ ألأني كنت أفضله عليهم ؟ ولكنها أبغضت مارينيت أيضاً... نعم ، نعم ، لقد تألمت من أجلي ، وكانت لي القدرة على تعذيبها... يا له من جنون! أتموت مارينيت ، ويموت لوك ، وتموت إيزا ، وأنا الشيخ الواقف على شفا الحفرة التي تهاووا فيها يطيب لي التفكير في أني لم أكن مهملاً لدى امرأة ، وأني ابتعثت فيها هذه الأهواء! .

لقد كان ذلك جديراً بالضحك ، وكنت أضحك منه وحدي ، لاهثاً بعض اللهاث ، متكئاً على جذع دالية ، قبالة الضباب الشاحب الذي اختفت وسطه القرى بكنائسها والطرق بأشجارها العالية ، وكان نور المغيب يشق لنفسه طريقاً عسيراً إلى هذا العالم المصور . وكنت أحس جريمتي ، كنت أراها وألمسها . لم تكن كلها في هذا الوكر الكريه ، وكر الأفاعي ، في بغضي أولادي وطلبي الثأر وحبي المال ؛ بل كانت أيضاً في رفضي البحث عمّا وراء هذه الأفاعي المتراكبة . لقد وقفت عند هذه العقدة الكريهة كما لو كان قلبي نفسه ، كما لو خالطت نبضات هذا القلب فحيح هذه الزواحف . ولم يكن حسبي ، مدى نصف قرن أن لم أعرف من نفسي إلا ما لم يكن إياها ، بل طبقت هذا ذاته على الآخرين . كان يسعدني أن أرى على وجوه أولادي مسكين الشهوات ، وكانت حماقة روبير كل ما بدا لي منه فاكتفيت بهذا المظهر . وما فكرت قط أن مظهر الآخرين شيء ينبغي تمزيقه واختراقه للوصول إليهم . ولقد يجب أن أكتشف هذه الحقيقة وأنا في الثلاثين أو في الأربعين ، أما اليوم فأنا شيخ واهن القلب ، أرى إلى آخر خريف من حياتي يقيم الكرم ، ويخدر بالدخان والشعاع . الذين كان ينبغي أن أحبهم ماتوا ، ومات الذين كان يمكن أن يحبوني . وأما الباقون فلا

يسعفني الوقت ولا القوة على محاولة الذهاب إليهم واكتشافهم . إن كل شيء فيّ حتى صوتي ، وحتى حركاتي ، وحتى ضحكتي ، هو ملك لذلك الوحش الذي نصبته في وجه العالم والذي سميته باسمي .

أكان هذا حقاً ما اجترته من أفكار وأنا مستند إلى جذع الدالية ، قبالة مروج ايكيم التي كانت تودعها الشمس الغاربة ؟ لقد أصبحت هذه الأفكار فيما بعد أكثر جلاء في نفسي بفضل حادث يجب أن أذكره هنا ؛ ولكن ما من ريب أنها كانت في نفسي منذ ذلك المساء ، بينا كنت عائداً نحو المنزل ، يعمر قلبي السلام الذي كان يغمر الأرض . وكانت الظلال تستطيل ، ومن بعيد كانت الهضاب تشبه أكتافاً محنية ، لعلها تنتظر الغمام والليل لتتمدد ، ولتنام في غفوة إنسانية .

وكنت آمل أن أجد هوبير وجنفييف في المنزل ، فقد وعداني أن يقاسماني العشاء . وكانت تلك في حياتي المرة الأولى التي أتمنى فيها مجيئهما ، وأفرح للقياهما ، غير مطيق صبراً على الكشف لهما عن قلبي الجديد . فما كان ينبغي أن أضيع لحظة إذا أردت أن أعرفهما ، وأن يعرفاني . وكنت أتساءل أيتسع الوقت أمامي ، قبل الموت ، لأختبر اكتشافي ؟ واعتزمت أن أصل دفعة واحدة إلى قلبيهما ، وأن أجوز خلال كل ما كان يعرفنا . لقد قطعت عقدة الأفاعي ، وسأفوز بحبهما في سرعة كبيرة ، حتى ليبكيان حين يغمضان عيني .

وكانا لما يصلا ، فجلست على المقعد قرب طريق أنتبه إلى صوت المحركات . وتأخرا فازداد إليهما شوقي ، وعاد إليّ بعض غضبي القديم وأنا أقول في نفسي إنهما لا يباليان أن أنتظر ، ولا يزعجهما أن أتعذب من أجلهما ، وإن تأخرهما مقصود... ولكني أمسكت : فلقد يكون لهذا التأخر سبب أجهله ، وليس بالمحتمل أن يكون السبب الذي طالما غذيت به

سخيمتي . وقرع جرس العشاء ، فذهبت حتى المطبخ أبلغ آميلي أنه يجب الانتظار قليلاً ، وكان جد نادر أن أرى تحت الخشبان هذه السدد التي تتدلى منها أفخاذ الخنازير المملحة . وجلست قرب النار ، على كرسي من القش . وكانت آميلي وزوجها وكازو الأجير الذي سمعت قهقهاته من بعيد ، قد صمتوا حين دخولي ، وأحاط بي جو من الاحترام والخوف ، فما عودت الخدم قط أن أكلمهم ، لا لأني سيد قاس شديد ، بل لأنهم غير موجودين في نظري ، لأني لا أراهم . أما ذلك المساء فقد كان وجودهم يطمئنني . ولقد وددت ، ما دام ولداي لم يأتيا ، لو اتناول طعامي على زاوية من هذه المنضدة التي كانت الطاهية تهرم عليها اللحم .

وكان كازو قد ولى الأدبار ، وارتدى ارنست سترة بيضاء ليقوم بخدمتي . وقد ثقل عليّ صمته فبحثت عبثاً عن كلمة ، فما كنت أعرف شيئاً عن هذين المخلوقين اللذين أخلصا لنا الخدمة منذ عشرين عاماً . وأخيراً تذكرت أن ابنتهما المتزوجة في سوفتير دوجويين ، كانت في القديم تأتي إلى زيارتهما وأن إيزا لم تكن تدفع لها ثمن الأرنب الذي تأتي به معها ، لأنها تأكل في بيتنا عدة مرات . فقلت ، دون أن أدير وجهي ، في شيء من السرعة :

ـ آميلي كيف حال ابنتك ؟ أما تزال في سوفتير ؟

فأحنت نحوي وجهها العطن ، وقالت ، بعد أن صعدت فيّ نظرها :

ـ سيدي يعرف أنها ماتت... في التاسع والعشرين من هذا الشهر . يوم عيد سان ميشيل ، يكون قد مضى على ذلك عشر سنوات . ألا يذكر سيدي ذلك ؟

أما زوجها فظل صامتاً ، ولكنه رماني بنظرة قاسية : لقد كان يحسب أني تظاهرت بالنسيان . وتمتمت : «معذرة... إن ذاكرتي أصبحت عجوزاً...» ولكني ، كعادتي حين أكون مرتبكاً خجلاً ، لم أستطع أن

أحبس ضحكة متهاتفة . وأعلن الزوج ، بصوته المعتاد : «سيدي ، الطعام جاهز» .

فنهضت على الفور وذهبت أقعد في غرفة الطعام الخافتة النور قبالة شبح إيزا . وكان إلى جانبه كرسي جنفييف ، ثم الأب أردوان ، ثم هوبير... وبحثت بعيني ، بين النافذة والمقلاد ، عن كرسي ماري العالي الذي جلست عليه بعدها جانين وابنة جانين . وتظاهرت بأني أزدرد بضع لقمات ؛ فقد كانت نظرة هذا الرجل الذي يقوم بخدمتي ثقيلة علي .

وفي القاعة ، كان قد أشعل ناراً من قضبان الدوالي . وكانت هذه القاعة تحوي مجموعات وصناديق وصوراً خلفها كل من الأجيال الماضية وهو ينسحب ، كما يترك الماء الأصداف وراءه حين الجزر وعلى الرفوف أعلاق صغيرة قديمة . وكان يشجي قلبي وقع حوافر الخيل في الظلام أو صوت المعصرة المجاورة للمنزل . وصعدت إلى شفتي هذه الزفرة : «يا ولدي ، لِمَ لمْ تأتيا ؟» فلو أن الخادمين سمعاها من خلال الباب لحسبا في القاعة رجلاً غريباً ، إذ لم يكن معقولاً أن يكون هذا صوت الشيخ الشرير وهذه ألفاظه ، وهو الذي يتخيلان أنه تجاهل عمداً موت ابنتهما .

لقد اعتصموا كلهم ضد روحي ـ كلهم : زوجتي وأولادي وخدمي ـ وكلهم أملوا علي هذا الدور الكريه . ولقد تيبست على الوضع الذي اقتضوه مني ، وقلدت النموذج الذي قدمه لي حقدهم . فما أبلغ جنوني . أنا الذي أرجي في الثامنة والستين عودا إلى بداية الطريق ، وآمل أن أفرض عليهم صورة جديدة لي ، برغم أنها صورتي الصادقة ، وأني كنت أبداً كذلك! إننا لا نرى إلا ما تعودنا رؤيته . وحتى أنتما ، يا ولدي المسكينين ، لا أراكما . ولو كنت شاباً لكانت غضون نفسي أقل تخديداً وعاداتي أقل تأصلاً ؛ على أني أشك أني كنت مستطيعاً ، حتى في شبابي ، أن أفك هذا السحر . كنت

أقول في نفسي : إني مفتقر إلى قوة ؛ فإلى أية قوة ؟ إلى كائن . أجل ، إلى كائن نلتقي جميعاً عنده ويكون ضامن نصري الداخلي في أعين أهلي ، كائن يشهد بجانبي ويضع عني حملي القذر ليتكفل به...

حتى خيار الناس لا يتعلمون وحدهم كيف يحبون : فالتجاوز عن سخف الآخرين ونقائصهم وغباوتهم يقتضي أن تعرف طريقة للحب لم يعد يعرفها العالم . ولن يجديك أن تبدل ظروف الانسان ما لم تجد هذه الطريقة ؛ فلقد كنت أحسب أن الأثرة هي التي كانت تجعلني غريباً عن كل ما يمس البشر والمجتمع ، وصحيح أني كنت وحشاً سادراً غريباً في انعزالي ؛ ولكني كنت أشعر أيضاً ، شعوراً يشبه اليقين ، أن إثارة وجه العالم لن تجدي ، وأن قلب العالم هو ما يجب أن نصيب . فأنا أبحث عن الكائن الذي يمكنه وحده أن يحقق هذا الظفر ، وسيكون هو نفسه بالضرورة قلب القلوب والبؤرة اللاهبة لكل حب . رغبة لعلها كانت صلاة . فلقد كنت جد قريب ، ذلك المساء ، من أن أركع مستنداً إلى مقعد ، كما كانت إيزا تفعل في أصياف العهد الأول ، ومعها الأولاد الثلاثة يلوذون بثوبها ، كنت إذ ذاك أعود من الفناء نحو هذه النافذة المضاءة . وأكتم خطوي ، فأرى ـ تسترني ظلمة الحديقة ـ هذه الجماعة المصلية ، وأسمع إيزا ترتل : «... راكعة قدامك يا إلهي ، وأشكرك على ما وهبتني قلباً قادراً على أن يعرفك ويحبك...» .

وظللت واقفاً وسط القاعة ، مترجرجاً كالمصعوق ؛ كنت أفكر في حياتي ، وأتأملها . وقلت لنفسي : لا ، إنها نهر وحل لن تمكن العودة إلى نبعه . لقد كنت من الكراهة بحيث لم يكن لي صديق . ولكن أليس سبب ذلك أني كنت أبداً عاجزاً عن التنكر ؟ فلو أن كل الناس كانوا يمشون في مثل العري الذي كنت فيه مدى نصف قرن ، فلربما أدهشنا أن يكون اختلاف المستوى بينهم تافهاً إلى هذا الحد . ففي الحق ، ليس ثمة امرؤ واحد يمشي مكشوف الوجه أبداً . أكثرهم يتظاهرون بالسمو والنبل ، ويقلدون على جهل

منهم نماذج أدبية أو غير أدبية . والقديسون يعرفون ذلك ، فهم يبغضون أنفسهم ويحتقرونها لأنهم يرونها حق الرؤية . ولم أكن لأحتقر إلى هذا الحد لو لم أكن في مثل هذا العري .

تلك كل الفِكَر التي تلاحقني ذلك المساء وأنا أشرد خلال الغرفة المعتمة ، مصطدماً بخشب الأثاث الثقيل . هذا الحطام المشبع بماضي الأسرة ، والذي طالما قعدت عليه أجسام لم يعد لها اليوم أثر . وكانت أحذية الأطفال قد وسخت الأريكة حين كانوا يلطون فيها ليتصفحوا مجلة «الموند ايلوستري» الصادرة عام ١٨٧٠ وكانت الريح تدور حول المنزل ، فتهز أوراق الزيزفون الصفر . وكانت هناك غرفة نسي الخدم أن يغلقوا مصاريع نوافذها الخشبية .

١٩

في اليوم التالي انتظرت ساعة البريد في لهفة ؛ فلكنت أدور في الممرات ، كما كانت تفعل إيزا إذا تأخر الأولاد فقلقتُ لذلك . وكنت أتساءل : أتراهما تنازعا ؟ أفي الأسرة مريض ؟ ويهلع قلبي ، وتصبح لي مهارة إيزا في تغذية هذه الفكرة الثابتة وتضخيمها . وكنت أمشي ، وسط الكروم ، كأني أذكر أني ، في الوقت ذاته ، كنت منتبهاً إلى هذا التبدل الذي نالني ، راضياً عن هذا القلق . وكان للضباب جهرة إذ أسمع ضجة السهل دون أن أراه . وكان صغار القنابر والسماني تلهو في الكروم التي لم يختمر فيها العنب بعد... مثل هذه الأصباح كان يحبها لوك الطفل في أواخر الاجازة...

ووصلتني كلمة من هوبير ، مرسلة من باريس ، ولكنها لم تطمئنني . قال لي فيها إنه اضطر إلى السفر على عجل لأمر خطير سيحدثني عنه بعد يومين ، لدى عودته . فخطر لي أن ذلك ربما كان مشكلة تتصل بالضرائب ، وأنه ربما أتى أمراً غير قانوني...

ولم أستطع الصبر بعد الظهر ، فقادوني إلى المحطة ، وركبت القطار إلى بوردو رغم أني كنت تعهدت ألا أسافر وحدي أبداً . وذهبت إلى جنفييف ، التي تسكن الآن منزلنا القديم ، فلقيتها في الدهليز تودع مجهولاً عرفت أنه الطبيب . وسألتني :

ـ ألم يخبرك هوبير بالأمر ؟

ثم جرتني إلى حجرة الانتظار التي أغمي عليّ فيها يوم المأتم . وعادت إليّ الطمأنينة ، حين عرفت أن الأمر يتعلق بهرب فيلي ، فقد كنت أخشى شراً من ذلك . لقد سافر مع امرأة «تمسك به من خناقه» ، بعد مشادة عنيفة مع جانين لم يترك لها فيها أي رجاء . ومنذ تلك الساعة والمسكينة في حال من الضراعة أعيت الطبيب . وقد لحق ألفريد وهوبير بالهارب إلى باريس ، ووصلت منهما قبل لحظات برقية تنبئ أنهما لم يفوزا بشيء .

وقالت جنفييف :

ـ لقد كنا نوفر لهما دخلاً شهرياً كبيراً... صحيح أننا احتطنا للأمر فلم ندفع له أي رأس مال ، ولكن الدخل كان ضخماً . ويعلم الله أن جانين كانت منقادة له يفوز منها بكل ما يريد . لقد كان في الماضي يهدد بهجرها مقتنعاً بأنك لن تورثنا شيئاً ؛ ولكن ها هو ذا يرحل في حين تنزل لنا أنت عن ثروتك . فكيف تعلل هذا ؟

ووقفت في وجهي ، مرفوعة الحاجبين مشدوهة . ثم التصقت بالمدفأة وأخذت تفرك راحتيها . قلت :

ـ ومن الطبيعي إنها امرأة ضخمة الثروة...

ـ أبداً! معلمة غناء... ولكنك تعرفها : هي الآنسة فيلار . امرأة لم تعد شابة ، كثيرة التنقل ، لا تكاد تربح كفاف عيشها .

وكررت : «كيف تعلل هذا ؟» ولكنها ، دون أن تنتظر جوابي ، كانت تعود إلى الكلام .

وفي تلك اللحظة دخلت جانين ترتدي مبذلها ، ومدت لي جبينها . ولم تكن قد هزلت ، ولكن اليأس كان أزال من على هذا الوجه الثقيل ، الخالي من الفتنة ، كل ما كنت أمقته : فلقد حال هذا الكائن الماضغ الكلام ،

المتصنع في حركاته ، شخصاً جد عادي وجد بسيط . وكان نور الثريا الباهر يضيئها كلها دون أن ترف عيناها . وسألتني في بساطة : «أتعرف ؟» ثم جلست على المقعد الطويل .

وما أدري أكانت تسمع أحاديث أمها ، وهذا النقد المستمر الذي لا بد أن جنفييف كانت لا تنفك تردده منذ رحيل فيلي .

ـ حين أفكر...

كانت كل جملها تبتدئ بهذه العبارة «حين أفكر» وهي عبارة تبعث على الدهشة إذ أنها صادرة عن شخص لا يفكر إلا قليلاً .

كانت أمها تقول :

ـ لقد وافقنا على هذا الزواج بالرغم من أن فيلي كان قد بذر ، وهو بعد في الثانية والعشرين ، ثروة طائلة كان حرّ التمتع بها منذ صباه (إذ كان يتيماً ولم يكن له أقارب أدنون) . وقد أغمضت الأسرة عينيها عن حياته الخليعة... فانظر كيف يكافئنا...

فحاولت عبثاً أن أكظم غيظي منها ، وعاد خبثي القديم يفتح عينه . فلقد كنت أعلم أن جنفييف نفسها ، وألفريد ، وإيزا . وكل أصدقائهم ، كانوا قد تحرشوا بفيلي وبهروه بألوف المواعيد .

وزمجرت قائلاً :

ـ أغرب ما في الأمر أنك تصدقين ما تقولين . ومع ذلك فأنت تعرفين أنكم جميعاً كنتم تجرون في أعقاب هذا الفتى .

ـ أبي أتدافع عنه ؟

فأجبتها بأني لا أقف موقف المدافع ، ولكننا أخطأنا جميعاً إذ جرنا في الحكم على فيلي . وأنهم قد أفهموه ـ في قسوة فظة دون ريب ـ أنه متى

ضمنت الثروة سيرتضي كل الإهانات ، وأنهم كانوا مطمئنين إلى أنه لم يفكر في التحرر ، ولكن الناس ليسوا أبداً من الوضاعة بالقدر الذي نتخيله .

ـ كيف تدافع عن شقي هجر زوجته الشابة وابنته الصغيرة ؟... فصحت مغضباً :

ـ جنفييف ، إنك لا تفهمينني ، فابذلي بعض الجهد كي تفهمي : جريمة دون ريب أن يهجر المرء زوجته وابنته ، ولكن الدوافع التي انقاد لها المجرم يمكن أن تكون وضيعة كما يمكن أن تكون سامية...

فرددت جنفييف ، متابعة عنادها :

ـ فأنت إذن ترى من النبل أن يهجر الزوج امرأة في الثانية والعشرين وابنة طفلة...

ولم تخرج من هذه الحلقة ، ولا فهمت شيئاً من كل حديثي .

ـ لا . إنك مفرطة الحمق ، إلا إذا كنت تصطنعين عدم الفهم... إنني أصر على أن فيلي يبدو أقل حقارة منذ...

فقطعت جنفييف عليّ الكلام صائحة بي أن أنتظر غياب جانين إذا أردت إهانتها بالدفاع عن زوجها . ولكن الصغيرة التي كانت لم تفتح فاها حتى ذلك الحين ، قالت بصوت لم أكد أتعرفه :

ـ لِمَ الانكار يا أم ؟ لقد وضعنا فيلي في منزلة أحط من التراب . ألا تذكرين ؟ منذ قرر اقتسام الثروة أمسكنا به من خناقه . نعم ، كان كالحيوان أجره من رسنه ، حتى غدوت لا يؤلمني كثيراً أنه لا يحبني . كنت أسوقه ، كان لي ، كان ملكي ، لأني كنت سيدة المال ، وكنت «أضع له العلف عالياً» . ذلك كان اصطلاحك ، يا أمي . أذكري ما كنت تقولينه لي : «بعد اليوم سيكون في وسعك أن تضعي له العلف عالياً» . وكنا نحسب أنه لا يضع شيئاً فوق المال ، ولعله هو أيضاً كان يظن ذلك ، ولكن غضبته وخجله كانا أقوى . فهو لا يحب تلك المرأة التي أخذته مني ؛ لقد اعترف لي بذلك قبل

رحيله ، ورماني في وجهي بأشياء أخرى قاسية لأكون على ثقة من أنه صادق في قوله . ولكنها هي لم تحتقره ، ولم تذله . لقد أعطته ذاتها ، ولم تأخذه . أما أنا فكأنما قدمته لنفسي هدية...

وجعلت تكرر هذه الكلمات الأخيرة ، كأنما تضرب نفسها . أما أمها فكانت تهز أكتافها ، ولكنها تفرح إذ ترى دموعها ، وتقول : «ستخفف عنها هذه الدموع...» وتقول أيضاً :

ـ لا تخافي ، يا حبيبتي . سيعود إليك . الجوع يطرد الذئب من الغاب ، ومتى شبع من لحم البقر المسعر...

وكنت واثقاً أن مثل هذه الألفاظ تهيج اشمئزاز جانين . فنهضت وتناولت قبعتي ، وقد ضاق صبري عن تحمل بقية السهرة مع ابنتي ، فقلت لها إني استأجرت سيارة وإني عائد إلى كاليز ، فقالت جانين بغتة :

ـ خذني معك ، يا جدي!

فسألتها أمها أهي مجنونة ؟ وقالت لها إنها يجب أن تبقى لأن رجال القانون في حاجة إليها ، ثم إن «الحزن سيعاودها» إذا هي ذهبت إلى كاليز .

ولحقت بي جنفييف ، فوجهت إلي أعنف اللوم على كوني سايرت هوى جانين . وقالت :

ـ إذا هي استطاعت نسيان هذا المخلوق ، فاعترف أنه سيكون تخلصاً ناجحاً . ولن يكون من المستحيل إيجاد سبيل إلى إلغاء الزواج ، وثروة جانين تستطيع أن توفر لها زيجة ممتازة . ولكن قبل كل شيء يجب أن تنسى... وأنت الذي كنت تكره فيلي ، تأتي الآن فتشيد بمدحه أمامها... لا ، لن أدعها تذهب معك إلى كاليز ، فستعيدها إلينا في حال سوداء . أما هنا فسيكون في وسعنا أن نسليها . وستنسى...

فقلت في نفسي : إلا إذا ماتت ، أو عاشت شقية ، في عذاب دائب لا

ينال منه الزمن... فلعل جانين تنتسب إلى هذا الجنس الذي يعرفه كل محام قديم ، إلى هؤلاء النساء اللواتي يكون الأمل عندهن مرضاً لا يبرأن منه ، واللواتي ينظرن إلى الباب ، بعد عشرين عاماً ، بعيني كلب أمين .

وعدت إلى الغرفة التي ظلت فيها جانين ، وقلت لها :

عندما تشائين ، يا ابنتي... أهلاً بك في كل حين .

فلم تبد أية دلالة على أنها فهمت ما قلت . ودخلت جنفييف وسألتني في لهجة المستريب : «ماذا تقول لها ؟» وقد عرفت فيما بعد أنها تتهمني بأني ، خلال هذه الثواني القليلة ، قد «أدرت فكر جانين» ، وأني «حشوت دماغها بأفكار ضارة» . أما أنا فكنت أنزل السلم ، متذكراً صيحة هذه المرأة الشابة : «خذني معك!...» لقد طلبت إليّ أن آخذها إلى منزلي ، لأني قلت عن فيلي ، بصورة غريزية الكلمات التي كانت في حاجة إلى سماعها ، ولعلي كنت أول شخص لم يجرحها...

وكنت أمشي في شوارع بوردو المضاءة ، وأرصفة ساحة «الأنتاندانس» تلتمع ، وأصوات الجنوب تغطي على جلبة «الترام» . وكانت رائحة طفولتي مفقودة ، ولعلي كنت واجدها في أحياء شارع دوفور دوبرجييه وجروس كلوش ، هذه الأحياء المظلمة فلربما قعدت هناك ، في ناصية شارع أسود ، عجوز تشد إلى صدرها وعاء من الكستناء المسلوقة التي تشم منها رائحة الأنيسون على أني لم أكن حزيناً . لقد كان هناك شخص أصغى إليّ ، وفهمني . تلاقينا ، وكان ذلك نصراً لي ، ولئن كنت أخفقت أمام جنفييف ، فلأن ثمة نوعاً من الحمق لا أستطيع شيئاً قبله . يسير أن تبلغ النفس الحية من خلال أبشع الجرائم والنقائص ، ولكن الخسة موصدة الباب . فليكن ما يكون! فلن يستطاع فتح هذه القبور جميعاً... وطوبى لي إذا استطعت التفاهم مع كائن واحد قبل موتي!

ونمت في الفندق ولم أعد إلا في الغداة إلى كاليز . وبعد أيام جاءني ألفريد فعلمت منه أن زيارتي كانت لها أسوأ الآثار : إذ كتبت جانين إلى فيلي رسالة مجنونة تنسب فيها إلى نفسها كل الأخطاء وتسأله المغفرة . وقال لي : «النساء لا يفعلن أبداً إلا هذا...» ومن الأكيد أنه كان يقول في نفسه : «إنها تكرر حماقات جدتها» ، وإن لم يجرؤ على أن يقول ذلك لي...

ولمح لي ألفريد بأن الدعوى كانت محتومة الخسارة ، وأن جنفييف تحملني مسؤولية ذلك ، لأني «ملأت دماغ جانين» عمداً فسألت صهري ، باسماً ، عما يمكن أن يدفعني إلى ذلك ، فأجابني وهو يزعم أنه لا يشارك امرأته في أي من آرائها ، أنها ترى أني فعلت ذلك خبثاً وانتقاماً ، بل لعلي فعلته «لمجرد الرغبة في الأذى» .

ولم يأت الأولاد بعدها إلى زيارتي . ولكن رسالة من جنفييف أنبأتني أنهم اضطروا ، بعد ذلك بأسبوعين ، إلى الحجر على جانين في مصحة ، لا لأنها جنت ، بل لأنهم يرجون خيراً كثيراً من وراء هذا العلاج بالعزلة .

وأنا أيضاً كنت في عزلة . ولكني لم أكن أتألم ، وما نعمت قط من قبل بمثل هذه الراحة الطويلة . ولقد استمر الخريف إلى ما بعد هذين الأسبوعين ينور العالم ، ولم تسقط ورقة ، وعادت الورود إلى الحمل . وكان المنتظر أن أتألم لعودة أولادي إلى اجتنابي إذ كان هوبير أيضاً لا يزورني إلا لحديث يتعلق بأعماله ، وكان جافاً مهذباً ، ولكن في حيطة ، بحيث خسرت كل ما كنت غنمته ، وعدت في نظر أولادي كما كنت العدو القديم ، والغدار الذي لا يردعه خلق . ثم إن الوحيدة التي كان يحتمل أن تفهمني ، كانت حبيسة معزولة عن الأحياء . ولكني برغم ذلك كله كنت أستشعر طمأنينة عميقة . كنت الأعزل المتوحد ، المسرع إلى الموت الكريه ، وكنت مع ذلك الهادئ النابه الدائم اليقظ . ولم يكن

يزعجني التفكير في حياتي الكئيبة ، ولا كنت أشعر بوقر هذه السنين القفرة ، كأنما لم أكن شيخاً أثقله المرض ، وكأنما كانت لا تزال أمامي حياة مديدة ، وكأن هذه الطمأنينة التي تحتويني كائن حي .

٢٠

ها قد مضى شهر منذ أن هربت جانين من المصحة فآويتها ، ولما تشف بعد . إنها تحسب أنها كانت ضحية مؤامرة ، وتؤكد أنهم حجروا عليها لأنها رفضت أن تهاجم فيلي وأن تطلب الطلاق وإلغاء الزواج ، أما الآخرون فيحسبون أني الوحيد الذي يبث في عقلها هذه الأفكار ويثيرها عليهم ، بينا أقضي أيام كاليز الطويلة في صراع دائب مع أوهامها وضلالاتها . المطر خارج البيت يفسد الأوراق إذ يمزجها بالوحل ؛ ويدوس حصباء الساحة حذاء ثقيل ، ويمر رجل يستر رأسه بكيس . وقد أمست الحديقة بشعة العري ، فما يخفى شيء تفاهة ما أعد فيها للزينة : فهياكل الأشجار والفياض الهزيلة ترتعد تحت المطر الرمدي . ورطوبة الغرف تحرمنا في المساء الجرأة على ترك مجمر القاعة . وينتصف الليل فلا يزيدنا رغبة في الصعود إلى غرفنا ؛ والجذوات التي كومتها في صبر تنهار في الرماد ؛ ولست أنتهي من العودة إلى محاولة إقناع الصغيرة بأن أباها وأمها ، وأخاها وعمها ، لا يريدون بها أي سوء . وأحاول ما استطعت أن أصرفها عن التفكير في المصحة ثم نعود أبداً إلى فيلي فتقول : «إنك لا تستطيع أن تتصور أي رجل كان هذا الرجل... لا تستطيع أن تعرف أي مخلوق...» وهي كلمات تستهل بها حديثها سواء في الاتهام والتمجيد ، واللهجة وحدها هي التي تدلني على أنها

ستتغنى به أو ستمرغه في التراب . ولكن الوقائع التي تذكرها تبدو لي تافهة أنزهته أم لطخته . فالحب يكسب هذه المرأة المسكينة ، على شدة افتقارها إلى الخيال ، قدرة مدهشة على التشويه وعلى التكبير . ولقد عرفت يا ابنتي زوجك : إنه واحد من هذه الأصفار التي يضفي عليها الشباب السريع لحظة بعض النور . هذا الغلام المدلل ، المحمول على الأكتاف ، الطليق من التكاليف ، تنسبين إليه مقاصد خيرة وأخرى أثيمة ، وما هي في الواقع إلا استجابات وردود فعل .

لم تفهموا أنه كان ، كيما يتنفس ، في حاجة إلى الشعور بأنه الأقوى . فما كان ينبغي أن تذلوه ، أن «تضعوا له العلف عالياً» . «العلف العالي» لا يغري هذا النوع من الكلاب بالقفز إليه ، بل هي تنطلق إلى مآكل أخرى تقدم لها على الأرض .

وهذه المسكينة بعيدة كل البعد عن أن تعرف صاحبها . وهل يمثل شيئاً في عينيها ، إلا العذاب لفرقته ، والشوق إلى ملاطفاته ، وإلا الغيرة والفزع لفقده ؟ إنها تجري وراء هذا المخلوق كالمسعورة ، لا ترى ولا تشم ولا تسمع ، ولا يدلها شيء على هدف جريها الحقيقي... وهل بين الآباء أعمى ؟ إن جانين هي حفيدتي ، ولكن لو أنها كانت ابنتي فلن أكون أقل فهماً لها على حقيقتها : إنها المخلوقة التي لا تستطيع أن تتلقى شيئاً من كائن آخر . فهذه المرأة العادية القسمات ، الثقيلة الغليظة ، الوحشية الصوت ، واحدة من أولئك اللواتي لا تقف عندهن نظرة ، ولا يلقى إليهن بال . ومع ذلك فهي تبدو لي جميلة ، خلال هذه الليالي ، جمالاً غريباً عنها ، مستعاراً من يأسها ، أليس في الناس امرؤ يجتذبه هذا الحريق ؟ لا ، إن هذه التعيسة تحترق في الظلمات وسط مفازة . لا يراها إلا هذا الشيخ...

وعلى رغم رثائي لها ، خلال هذه السهرات الطويلة ، كنت لا أنفك

أقابل بين فيلي ، هذا الغلام الذي يشبه ملايين غيره ، كما تشبه هذه الفراشة البيضاء كل الفراشات البيض ، ـ وبين هذا الشعر الذي كان وحده قادراً على تفجيره في امرأته ، والذي كان يمحق في عينيها العالم المرئي وغير المرئي ، فما تريا إلا رجلاً بدأ يفقد نضارته ، يكاد يفضل الكحول على كل ما عداه ، ويرى في الحب عملاً وواجباً متعباً... يا للبؤس!

وكانت لا تكاد تنظر إلى ابنتها التي تتسلل إلى الغرفة ساعة المغيب ، ولا تبالي أن تأتي شفتاها من شعرها إذ تقبلها ؛ لا لأن الصغيرة كانت عديمة السلطة على أمها ، فمن أجلها قويت جانين على ألا تغادرنا لتجري وراء فيلي (ولو فعلت فلربما هاجته ونكدت عيشه ، ولأهانته أمام الناس) . لا ، فما كنت أكفي لإمساكها ، بل بقيت من أجل الطفلة ، دون أن تجد لديها أي سلوى . وبين ذراعي وعلى ركبتي كانت الطفلة تلطى مساء في انتظار العشاء ؛ فألقي في شعورها رائحة العصفور والعش التي تذكرني ماري ، فأغمض عيني وشفتاي على هذا الرأس ، محاولاً ألا أفرط في ضغط هذا الجسم الصغير ، وأنادي في قلبي ابنتي المفقودة . وكنت في الوقت ذاته أحسب أني أقبل لوك : فحين كانت تأتيني وقد لعبت كثيراً ، كان لجسدها المذاق المالح الذي كان لخدود لوك ، أيام كان يغفو على المائدة لكثرة ما ركض ، فلا يستطيع انتظار النقول ، بل يمد لنا ، واحداً بعد واحد ، وجهه المرهق نعاساً... كذلك كنت أحلم ، بينا جانين تهيم خلال الغرفة تمشي وتطيل المشي ، دائرة وسط حبها .

وتحضرني ذكرى مساء كانت تسألني فيه : «ما العمل لأنتهي من العذاب ؟ أتحسبه ألماً عابراً ؟...» وكان ذلك ليلة صقيع ؛ ورأيتها تفتح النافذة وتدفع مصراعيها ، ثم تغسل جبينها ونحرها في ضوء القمر الصقيع ،

فعدت بها إلى جانب النار ، وأنا جاهل كل حركات الحنو جلست لصقها في خرق ، وأحطت كتفيها بذراعي ، وسألتها هل لم يبق لها أي ملاذ ، وقلت : «أتؤمنين ؟» فردت ذاهلة : «أؤمن ؟» كأنما لم تفهم ، فأجبت : «نعم . الله...» فرفعت نحوي وجهها الملتهب ، وصعدت فيّ نظرة حذرة ، وأخيراً قالت إنها لا ترى من صلة بين الأمرين ، فلما ألححت أجابت :

ـ طبعاً ، أنا مؤمنة ، وأقوم بفروضي الدينية . لِمَ تسألني هذا السؤال ؟ أتهزأ بي ؟

فتابعت قائلاً :

ـ أتظنين أن فيلي جدير منك بما تهبينه ؟

فنظرتني نظرة باسرة حانقة ، هي نظرة جنفييف حين لا تفهم ما يقال لها ولا تعرف بم تجيب وتخشى أن تقع في شرك . وأخيراً غامرت وقالت إنه ليس بين الأمرين من علاقة ، وإنها لا تحب أن تمزج الدين بتلك الأمور ؛ وإنها ـ وإن لم تكن قائمة بواجباتها الدينية ـ تكره هذه المقارنات الضالة ، وحسبها أنها تؤدي فروضها . قالت ذلك بنفس اللهجة التي كان يمكن أن تقول بها إنها تؤدي ضرائبها . وكان ذلك ما كرهته أشد الكراهية طوال حياتي ، ولم يكن غير ذلك . ولقد تظاهرت بأني أرى في هذه الصورة المبتذلة وهذا الواجب الوضيع ، تمثيلاً صادقاً للحياة المسيحية ، لأكون على حق في بغضها... ينبغي أن نجرؤ على مجابهة ما نبغض ؛ أما أنا... ألم أكن أعرف أي مخادع نفسي منذ ذلك المساء من آخر القرن الماضي ، الذي قال لي فيه الأب أردوان على فناء كاليز : «إنك طيب جداً...» ؟ ولقد صممت أذني فيما بعد كيلا أسمع كلمات تحتضر . ومع ذلك ، فعلى هذا السرير كشف لي عن سر الحياة والموت : لقد كانت هناك طفلة صغيرة تموت من أجلي... ولقد أردت نسيان ذلك ، وما انفككت أحاول أن أضيع هذا المفتاح الذي كانت يد خفية تعيده أبداً إليّ ، لدى كل منعطف في حياتي (نظرة لوك

بعد الصلاة أيام الآحاد ، ساعة الجدجُد الأول... وهذا الربيع أيضاً ، ليلة البرد...) .

كذلك كانت تجري أفكاري ، ذلك المساء . وأذكر أني نهضت ، وأني دفعت مقعدي في عنف رجفت له جانين . وفي تلك الساعة المتأخرة كان صمت كاليز هذا الصمت الثقيل الذي يكاد أن يتجسم ، يخدر ألمها ويخنقه . وكانت تدع النار تنطفئ ، وكلما ازدادت الغرفة برداً أدنت كرسيها من الموقد ، حتى لكادت قدماها تلامسان الرماد . وكانت النار المحتضرة تجتذب يديها وجبينها ، ومصباح المدفأة يضيء هذه المرأة الثقيلة المكتومة ، وأنا أهيم من حولها ، في الظل المكتظ بالأثاث ، أهيم عاجزاً حول هذه الكتلة البشرية ، حول هذا الجسد الذليل . وبدأتها الحديث بقولي : «يا ابنتي...» ولكني لم أجد الألفاظ التي أريدها . وما يخنقني هذا المساء ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، ما يوهن قلبي حتى ليكاد ينفطر ، هذا الحب الذي عرفت أخيراً اسمه المعبو...

... ...

... ...

من هوبير إلى جنفييف

كاليز في ١٠ ديسمبر ١٩٣٠

عزيزتي جنفييف ، سأنتهي ، هذا الأسبوع من تصنيف الأوراق التي تطفح بها كل الجوارير . ولكن واجبي أن أبعث إليك ، دون تمهل ، هذه الوثيقة الغريبة . فأنت تعرفين أن أبانا مات على مكتبه وأن آميلي وجدته ، صباح ٢٤ نوفمبر ، منكب الوجه على كراس مفتوح ، هو هذا الذي أرسله إليك في غلاف موصى عليه .

ولا ريب أنك ستعانين ما عانيت من المشقة في حل رموزه... ومن حسن الحظ أن الخدم لا يستطيعون قراءة خطه . وقد ابتعثتني أول الأمر رغبتي في عدم إيذائك على اعتزام تجنيبك هذه القراءة . إذ أن أبانا يعبر عن آرائه حيالك في ألفاظ جارحة . ولكن هل كان من حقي أن أدعك تجهلين أمراً هو ملكك بقدر ما هو ملكي ؟ إنك تعرفين دقتي في كل ما يتصل من قريب أو بعيد بتركة أهلنا . ومن أجل هذا رجعت عما انتويت .

وبعد فأينا لم تسيء إليه هذه الصفحات الناضحة مرارة ؟ إنها لا تكشف لنا عن شيء لم نكن نعرفه من وقت طويل . فلقد سمم احتقار أبي لي كل مراهقتي ، حتى لشككت في نفسي طويلاً ، وانطويت تحت هذه النظرة القاسية ، وما وعيت قيمتي إلا بعد سنوات طوال .

ولقد غفرت له ، بل أضيف أن الواجب البنوي بوجه خاص هو الذي دفعني إلى إطلاعك على هذه الوثيقة . فمهما يكن حكمك عليها ، فلا ريب في أن وجه أبينا ، رغم كل ما يبسطه فيها من عواطف وضيعة ، سيبدو لك فيها أكثر إنسانية ، بل لأكاد أقول أكثر نبالة (ويتجه فكري هنا بوجه خاص إلى حبه لأختنا ماري وللصغير لوك ، هذا الحب الذي تقوم عليه دلائل مؤثرة) . وأنا اليوم أكثر فهماً للألم الذي أبداه أمام نعش أمي والذي حيرنا يومذاك ، وكنت تحسبينه ألماً كاذباً إلى حد ما . فلو لم يكن لهذه الصفحات من جدوى إلا أن تكشف لك عن تلك البقية من العاطفة لدى هذا الرجل القاسي ، المجنون كبرياء ، فهي جديرة بأن تحتملي قراءتها التي ستكون من ناحية أخرى شاقة عليك ، يا جنفييف العزيزة .

أما ما نحن مدينان به لهذا الاعتراف فهو راحة ضميرنا . ولقد ولدت يقظ الضمير ، فلو كان لدى ألف سبب للاعتقاد بأني محق لكفاني سبب تافه للشك في حقي . إن هذه الرهافة الخلقية النامية في نفسي لا تجعل الحياة سهلة! فما حاولت مرة أن أدافع عن نفسي تجاه حقد أبي الذي يلاحقني ،

حتى الدفاع المشروع ، دون أن يساورني القلق ، إن لم يكن عذاب الضمير . ولولا أني كنت رب عائلة ، مسؤولاً عن شرف أولادنا وإرثهم ، لفضلت النكوص عن هذا النضال على الرضى بهذه المنازعات والمعارك الداخلية التي شهدتها غير مرة .

وأحمد الله الذي شاء أن تبرر عملي صفحات أبي هذه . فهي ـ أولاً ـ تؤكد كل ما كنا نعرفه عن المكائد التي دبرها ليحرمنا إرثه . وقد اعتراني الخجل وأنا أقرأ الصفحات التي يصف فيها الأساليب التي اخترعها ليجعل وكيل الدعاوى بورو والمدعو روبير معاً تحت رحمته . فلنرم على هذه المشاهد المحزنة ستارة نوح . على أن واجبي كان أن أفسد عليه تدابيره الماكرة مهما كلف الأمر ، فقمت بذلك ، في نجاح لا أخجل منه . فثقي ، يا أختي ، أنك لي مدينة بثروتك . فهذا التعيس يجهد طوال اعترافه أن يقنع أن الحقد الذي كان يشعر به حيالنا قد مات فجأة ، ويفخر بإهماله المباغت لأعراض هذه الدنيا (وأعترف أني لم أستطع الامتناع عن الضحك في هذا المكان) . ولكن أرجو أن تنتبهي إلى حقبة هذا الانقلاب غير المنتظر : فقد حدث ذلك في الوقت الذي كشفنا فيه عن ألاعيبه وباعنا السر ابنه الطبيعي . ولم يكن سهلاً أن يخفي مثل هذه الثروة ؛ كما لم يكن في المستطاع إبدال ذلك البرنامج الذي اقتضى إعداده سنوات . أما الحق فهو أن هذا المسكين كان يوجس دنو أجله ، وأنه لم يعد لديه متسع من الوقت ولا من الحيلة لحرماننا بأسلوب غير الذي كان اعتزمه والذي جعلتنا العناية الإلهية نكتشفه .

هذا المحامي لم يشأ أن يخسر دعواه ، لا أمام نفسه ولا أمامنا ، فحول هزيمته نصراً معنوياً (واعترف أن هذا المكر لم يكن واعياً كله) ، وتظاهر بالتجرد واللامبالاة... أكان يستطيع أن يفعل شيئاً آخر ؟ لا ، إنه لن يخدعني هنا ، وأظن أنك بحسك السليم ستحكمين بأنه لن يجب علينا قبله إعجاب ولا امتنان .

ولكن هناك نقطة أخرى يحمل فيها هذا الاعتراف إلى ضميري الراحة التامة ، نقطة بلوت نفسي حولها في كثير من القسوة ، وأعترف أني برغم ذلك لم أفز خلال أمد طويل بتهدئة هذا الضمير المرهف . وأقصد بذلك المحاولات التي قمنا بها ـ عبثاً ـ لفحص حال أبينا العقلية بواسطة أخصائيين . وأقر أنه كان لزوجتي أثر كبير في إثارة جزعي حول هذا الموضوع . وأنت تعرفين أني لم أتعود أن أقيم وزناً كبيراً لآرائها ، فهي أقل الناس اتزاناً . ولكنها كانت ترهق أذني ، ليل نهار ، بأدلة أعترف بأن بعضها كان يثير فيّ الاضطراب ، حتى انتهت إلى إقناعي بأن هذا المحامي الكبير ، وهذا الماليّ الماكر ، وهذا المحلل النفسي العميق كان الاتزان نفسه... ولا ريب أن من اليسير إثارة اشمئزاز الناس من أولاد يحاولون أن يحجروا على أبيهم الشيخ كيلا يضيعوا الميراث... فأنت ترين أني لا أرمي الكلام جزافاً... وقد قضيت ـ يشهد الله ـ كثيراً من الليالي دون نوم...

ولكن هذا الكراس ، يا عزيزتي جنفييف ، وبخاصة في صفحاته الأخيرة ، يحمل إلينا البرهان الجلي على الهذيان المتقطع الذي كان يعتاد هذا المسكين . وتبدو لي حالة جديرة بدراسة طبيب نفساني ، ولكن واجبي الأول ألا أخبر أحداً بصفحات كهذه بالغة الخطر على أولادنا . وأحسب أن عليك أن تحرقيها حال انتهائك من قراءتها ، فما يحسن أن تقع بين يدي غريب .

ولئن كنا أسررنا أبداً كل ما يتصل بأسرتنا ، وكنت اتخذت التدابير لكيلا يطرق سمع الناس إشفاقنا من الحال العقلية التي بلغها من كان رب هذه الأسرة ، فأنت لا تجهلين ، يا جنفييف العزيزة ، وأن بعض العناصر الغريبة لم تكن مثلنا كتماناً وحرصاً ، وأن صهرك التعيس ، بوجه خاص ، قد أذاع بين الناس أخطر الأقاصيص حتى هذا الموضوع . وها نحن أولاء ندفع الثمن

غالياً ؛ فلن يكون جديداً عليك أن أبلغك أن كثيراً من الناس في المدينة يقارنون بين مرض جانين النفسي والشذوذ الذي يعزونه إلى أبينا استناداً إلى ثرثرات فيلي .

فمزقي إذن هذا الكراس ولا تحدثي أحداً عنه ، ولنطوي حديثه نحن أيضاً فلا نرجع إليه أبداً من بعد . وأنا أعترف أن في ذلك بعض الخسارة . ففي هذا الكراس ملاحظات نفسية وعناية بالطبيعة تكشف لدى هذا الخطيب عن كاتب نابغ . ولكن في هذا داعياً جديداً لتمزيقه ؛ إذ لا ينقصنا إلا أن يأتي أحد أبنائنا فينشر هذا فيما بعد!

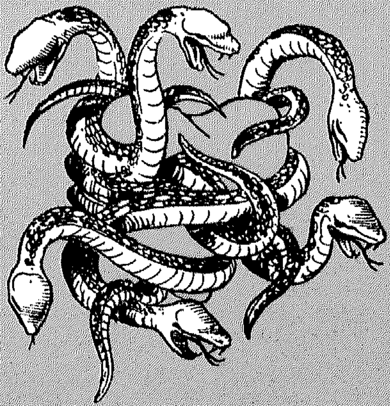
أما أنت وأنا ، فنستطيع فيما بيننا أن نسمي الأشياء بإسمها . وقراءة هذا الكراس لن تبقى لدينا مجالاً للشك في أن أبانا كان نصف مجنون . وبهذا أفسر اليوم كلمة قالتها ابنتك وحسبتها حينذاك لوثة مريض : « إن جدي هو الرجل المؤمن الوحيد الذي لقيته في حياتي » . فلقد خدعت هذه المسكينة بأحلام هذا السوداوي ونوازعه الغامضة . ولقد كان عدواً لأهله ، بغيضاً إلى الجميع ، محروماً من الأصدقاء ، شقياً في الحب كما سترين (فهناك تفاصيل مضحكة) ، بلغت غيرته على امرأته أن لم يغفر لها قط في حياته مغامرة تافهة في صباها ، فهل يكون آخر الأمر طلب العزاء في الصلاة ؟ إني لا أصدق شيئاً من هذا ؛ وما يبدو جلياً في هذه الأسطر هو التشوش العقلي في أكمل شكل ، هو جنون الاضطهاد والهذيان ذو الشكل الديني . وستسألينني : أليس في حاله من أثر للمسيحية الحقة ؟ فأجيبك لا ، ومثلي من يعرف هذه الأمور ويعرف ما لها من وزن! وأعترف أن هذا التصرف الكاذب يثير في نفسي اشمئزازاً لا يطاق .

ولعلك ، وأنت امرأة ، ستخالفينني في الرأي . فإذا انطلى عليك زيف هذا التدين المائع ، فاذكري أن أبانا الذي كان نابغة في الحقد ، لم يحب شيئاً في حياته إلا مخالفة لشخص آخر . وما عرضه لعاطفته الدينية إلا نقد ،

مباشر أو مستتر ، للمبادئ التي لقنتنا إياها أمنا منذ الطفولة . وهو لا يندفع في هذا التصوف الأسود إلا ليزداد قدرة على انتقاد الدين الحكيم المتزن ، الذي كانت له في أسرتنا المكانة الأولى في كل حين . إن الحقيقة هي التوازن... ولكني سأكتفي بهذا ولن أحدثك عن اعتبارات ونظريات قد تشق عليك متابعتي فيها . فارجعي إلى الوثيقة نفسها ، وأنا شديد الرغبة في معرفة رأيك .

بقيت لي فسحة ضيقة من المكان أجيبك فيها على الأسئلة الهامة التي طرحتها عليّ . يا جنفييف العزيزة ، إن المشكلة عسيرة الحل : فإذا حبسنا هذه الأوراق المالية كلها في صندوق ، وجب علينا أن نأكل من رأس مالنا . وتلك مصيبة لا تطاق . وإذا أعطينا في السوق المالية أوامر بالشراء فما نقبضه لا يعوضنا من تدني القيم المستمر . فما دامت الخسارة محتومة في كل الأحوال . فالحكمة في أن نحتفظ بأوراق بنك فرنسا : فالفرنك لا يسوى ألا أربعة فلسات ، ولكنه مغطى باحتياطي ضخم من الذهب . ولقد كان رأي أبينا في هذه الناحية هو الرأي الصائب ، وينبغي لنا أن نأخذ إخذه . ويجب أن تجتنبي بكل قواك ، يا جنفييف العزيزة ، هذا الهوس المتأصل في الجمهور الفرنسي ، وهو حب توظيف الأموال بأي ثمن . ومن الجلي أن علينا أن نعيش أضيق عيشة ممكنة وأنت تعلمين أني ألبي نداءك كلما احتجت إلى مشورة... على أن شدة الأحوال لا تمنع أن يعرض لنا بين الحين والحين فرص طيبة : فأنا الآن مثلاً أتتبع نوعاً من الكحول ممزوجاً بالأنيسون ، وهذا ضرب من التجارة لن تنال منه الأزمة . وفي رأيي أننا إلى هذه الوجهة يجب أن نلتفت ، خالطين الجرأة بالحذر .

ولقد سرني ما بعثته إليّ من أخبار عن تحسن حال جانين . ولا يزعجك في الوقت الحاضر إفراطها في الورع ، فالمهم هو أن ينصرف فكرها عن



فرانسوا مورياك

نوبل ١٩٥٢

- ولد في ١١ أكتوبر ١٨٨٥ من أسرة فرنسية جلّ أفرادها من العلماء والأدباء .
- اتجه لدراسة الطب أولاً ، ثم انصرف عنها نهائياً ليتجه الى الأدب والصحافة مكرساً لهما حياته اللاحقة كلها .
- نشر أولى رواياته عام ١٩٢٢ بعنوان « قبلة للأبرص » ، وفيها بدا واضحاً اهتمامه بالتجديد الفني واستخدام الأساليب المستحدثة في الكتابة الروائية .
- عام ١٩٢٨ نشر روايته المعروفة « المكروهون » ، مصوراً فيها حياة فرنسا في عشرينيات هذا القرن ، من وجهة نظر ناقدة ، اختلط فيها السخط والتشاؤم أيضاً .
- من رواياته الأخرى : صحراء الحب (١٩٢٥) ، تيريز ديكيور (١٩٢٧) ، باسكال (١٩٣١) ، حياة السيد المسيح (١٩٣٦) .
- أول ترجمة عربية لروايته « عقدة الأفاعي » صدرت في القاهرة عام ١٩٤٧ بإشراف الدكتور طه حسين .
- عضو الأكاديمية الفرنسية منذ عام ١٩٣٣ .
- شغل منصب وزير الثقافة الفرنسية أيام رئاسة الجنرال ديغول .
- منح جائزة نوبل عام ١٩٥٢ .
- توفي في ١ أيلول عام ١٩٧٠ .

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الاسكندرية
02584424

ISBN => 2-84305-140-1
EAN => 9782843051401